رواية
كلُّ الأشياءَ
بثينة العيسى
AMERICAN PUBLIC OPINION AND U.S. FOREIGN POLICY 1987
«كرامة وطن».. مواجهات ومصادمات وإصابات واعت
الدار العربية للعلوم ناشرون
Arab Scientific Publishers, Inc.

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

mohamed khatab

كلُّ الأَشياء

بثينة العيسى

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الطبعة الأولى: تشرين الأول/أكتوبر 2017 م - 1439 هـ
الطبعة الثانية: تشرين الثاني/نوفمبر 2017 م - 1439 هـ
الطبعة الثالثة: تشرين الثاني/نوفمبر 2017 م - 1439 هـ

ردمك 9786140233072

جميع الحقوق محفوظة للناشر

الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل
Arab Scientific Publishers, Inc. SAL
عين التينة، شارع المفتي توفيق خالد، بناية الريم
هاتف: 786233 – 785108 – 785107 (1–961+)
ص.ب: 13–5574 شوران – بيروت 1102–2050 – لبنان
فاكس: 786230 (1–961+) – البريد الإلكتروني: asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الإنترنت: http://www.asp.com.lb

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأية وسيلة تصويرية أو الكترونية أو ميكانيكية بما فيه التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أية وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها، من دون إذن خطي من الناشر.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تعبر بالضرورة عن رأي الدار العربية للعلوم ناشرون ش.م.ل

تصميم الغلاف: **يوسف العبدالله (الكويت)**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت – هاتف 785107 (1–961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت – هاتف 786233 (1–961+)

«هنا في هذه المدينة لم يقتلونا بالرّصاص. قتلونا بالقرارات»

غابرييل غارسيا ماركيز

الفصل الأوّل

بيت هَدَام

1

.. ثمَّ عاد كأنَّ شيئًا لم يحدث.

تسمّر لوهلةٍ أمام البوابةِ المعدنية السَّوداء، يتحسّس الثلمة على الحافّة. لا يذكرُ أنه رآها من قبل. حكّها بإظفره وهو يفكّرُ في كلّ الأشياء التي تغيّرَت في غيابِه؛ كلّ خدشٍ على الباب، كل صدعٍ في القلب، كلّ رحيل. تلمّس الخدوش التي صنعها بمفتاحه قبل سنوات. ظنَّ أنه يتذكّر تلك الليلة، لكنه في الحقيقة لم يكن يذكر شيئًا. كان ثملًا تلك الليلة، وهو الآن ثمِل. تملّى في أسلاك جرس الباب؛ حمراء سوداء تتكالبُ إلى أعلى. الزرّ العلوي لغرفةِ السائق، الزرُّ السُّفلي لأهلِ البيت، بينهما فراغ إسمنتيّ.

قرأ المكتوب على اللافتة المثبّتة إلى يسار البوابة؛ «ڤيلا عبد المحسن برّاك العظيمي». بلع ريقه؛ كل صدعٍ في القلب، كل رحيل.. كان الاسم يثقل كتفيه، وأحسّ أن ذاكرته تشدّه إلى أسفل؛ مثل كيسٍ من الإسمنت، مثل مرساة، مثل قلب. رفع عينيه إلى السّماء. يوشك الفجرُ أن ينبلج. الصَّمت كثيف، والصَّوت الوحيد الذي يسمعه هو صرير الجداجد المنبعث من أحواض العشبِ في البيتِ المقابل. تساءل في تلك اللحظة؛ لماذا لا ينبح كلب الجيران؟

زفر، جثا على ركبتهِ ومدَّ أصابعه أسفل البوابة، قبض على المزلاج بسبّابته ووسطاه، رفعهُ عن الأرض، صرَّتْ مفاصل البوابةِ قبل أن تُفتح. تردَّدَ لحظة، ازدرد ريقه، وقرّر أن يكفَّ عن حماقة التذكّر. خطا داخِلًا يجرُّ حقيبةَ سفرهِ. كانت مربّعات البلاط متكسّرة تحت قدميهِ، كما هي قبل أربع سنوات، والصُّنبور ما يزال، كما يذكرهُ، ملفوفًا بقماشةٍ قطنيةٍ بيضاء، يعرفُ أنها فانيلته الداخلية. أسفل الصنبور سطلٌ يجمعُ القطرات المتسرّبة منذ عشر سنوات، عشرين سنة، ربما أكثر. لا تحملُ ذاكرته صورة لهذا الصنبور وهو غير مكسور. ولا يستطيع، أصلًا، أن يتخيّل الحياة في بيتٍ بصنبورٍ غير مكسور.

سكران يا كَلب! همس لنفسهِ، محاولًا قدر الإمكان أن يلفظ الأحرف والمدود كما كان يفعل والده. وجد نفسه يضحك. لن يسمع صوته بعد اليوم، ولن يراه يحمل السَّطل بيديهِ ليدلق ماءه في حوض النخلة الوحيدة المنتصبة في طرفِ الحوش؛ البرحية التي زحفَ على جذعها السُّوس. لم يفهم جاسم الأمر قط، لماذا لم يصلح والده الصنبور المكسور؟ لماذا كان يفضّل، بدلًا من أن يحلَّ المشكلة، أن يعالج نتائجها؛ تجمع القطرات في سطل، تدلق المياه في الحوض، وتكفُّ المشكلة عن كونها مشكلة. ولكن ليس بالنسبة إليه. فهو لا يؤمن بتطويع الخطأ لخلق الصَّواب، كان، في تلك الأيام، يؤمن باجتثاث الخطأ وخلقِ

الصَّواب. أراد حُلولًا جذرية؛ صنبورًا غير مكسور، وإمدادات ري بالتنقيط لنخلة الحوش، وحديقة حقيقية. هذا غباء سياسي، كان والده يقول؛ لا تستطيع إسقاط نظام قائم، تستطيع فقط تطويره. كان يجيب بأن المشاكل الراديكالية تحتاج حلولًا راديكالية، ولكنّ والده أخبره بأنّه وجماعته من «أطفال السياسة» سذّجٌ جدًا، أفضل واحد منهم يرتدي حفاظة «بامبرز».

تساءل ما الذي يؤمنُ به اليوم؟ لم يدرِ. كان يعرفُ أنّه تغيّر، لكنه لا يعرف كيف. نظر إلى السَّطل، وعرف من منسوبِ المياه أن والده لم يغادر البيت منذ أيام، وعرف من جذع النخلة المريض أنَّ والده فقد اهتمامه بالعالم منذ سنوات. عدا ذلك، ما مِن شيءٍ يدلُّ على موتِه، وهو متأكد أن عبد المحسن العظيمي لم يمت، لأنّه، ببساطة شديدة، لا يمكن أن يموت، وعليه الآن أن يدلق المياه في حوض النخلة، وأن يكفَّ عن حماقة صنع العلاقات.. لا علاقة بين سوس النخلة، وبين رحيله. لا علاقة بين رحيله، وسجنه. لا علاقة بين سجنه، وموت أبيه. هذه أفكارٌ من اختراعه، نحن نخترع العلاقات لكي نصنع المعنى، كي لا نعترف بأن العالم بلا معنى، ولكن ليس هو، إذ ليس لديه مشكلة مع انعدام المعنى. مشكلته، على العكس، هي في المعنى ذاته؛ كثرتهُ وتوغّله في كل الأشياء؛ النخلة والأب، الأب والسجن، السجن والحبيبة، الحبيبة والبلاد، دوائر لعينة، مُدوّخة، تتداخل في رأسهِ إلى الأبد.

ألقى نظرة على المكان؛ خرطوم المياه الأصفر يلتفُّ على نفسه في الزاوية. الدرّاجات الوردية الصغيرة كَبُرتْ، صارت حمراء وزرقاء، اختفت الشرائط الملوّنة من مقابض المقود. أحسَّ أنّه شاخ. يجرجرُ خطواتٍ متعبة إلى المكان الذي أقسم، قبل أربع سنواتٍ، ألا يعود إليه مهما حدث. ها أنتَ تعود. يقول لنفسه وهو يتحسَّس الخوص المصفرّ المتدلّي من الجذع. تذكَّرَ نفسه وهو ابن السنوات السّبع، يتعلّق بسعفِ النخلة ويجذبه إلى الأرض، جاسم طرزان الفريج.. خرج والده إلى الحوش بدشداشته البيتية وشماغه الأحمر. شدّه من أذنه وخبط مؤخرته بنعله. يتذكّر أن أذنه احمرّت وتورّمت، أنَّ ألم الضَّربة على مؤخرته سال حتى ربلة ساقه، أنه راح يفرك كاحله بإبهام قدمه ويهتزُّ في مكانه. كان على الطرزان أن يبحث عن غابة أخرى؛ ستائر البيت، أرائك الديوانية، دولاب الملابس العتيق، ولاحقًا؛ ساحة الإرادة، عنابر أمن الدولة، وأخيرًا؛ المنفى. كل الأشياء إلا النخلة، النخلة لا تُمس، خاصّة سعفها. الخوص رئة النخلة والنخلة شجرة لها رأس، وأنتَ كالقرد تشدّ سعفها إلى الأرض يا ولد السُّوء! صوتُ والده يتردّد داخل رأسه ثانيةً. لكن ها هي الآن، يأكلها السوس؛ محاطة بالفسائل الميتة، ترى النشارة على جذعها وآثار الصّمغ النتن. ترى لماذا لم يكرّبها والده طوال تلك السنوات؟ هل يعقل أنه لم يحبّها هي الأخرى؟

رفع رأسه إلى واجهةِ البيت الذي تسكنه أسرته منذ أربعين عامًا. واجهة من الطوبِ المصفر. بوابة المدخل مغطاة بفسيفساء رخامية، مربّعات صغيرة مخلوعة ومتكسّرة، تساقطت مع مرور السَّنوات لتترك الإسمنت في العراء. شُرفة واسعة، درابزين من مربّعات الزجاج الملوّن؛ أخضر، برتقالي، أرجواني.

الزجاجة الخضراء مكسورة مذ كان في عاشرته، لم يتكبّد أحدٌ مشقة استبدالها. بناءٌ متهالك، شاهدٌ على زمنٍ مات دون أن يفطن أحدٌ إلى موته. بيت «هَدَام» كما يسمّونه. بناءٌ، بلا قيمة، على أرضٍ تساوي مئات الآلاف من الدنانير. أن تسكن في حتمية الزّوال. في دولة مؤقتة، في المكان العابر.. تساءل؛ ألهذا السّبب، ربما، لم يتكبّد أحدٌ عناء إصلاح الصنبور، واستبدال الزجاج المكسور؟ طول عمرك «مِردم»، يقول لنفسهِ، مقلدًا صوت أبيه، بحَّتهُ القديمة وصوته المشروخ؛ تعرف شنو يعني مِردم؟ نعم يعرف؛ عصفور غبي! «أَثْوَل» مِثلك يا ولد، يتخبّط بالجدران ولافتات الشوارع. عصفور أحمق، يصطاد نفسه بنفسه؛ يدخل البيوت ثمَّ يعجز عن العثور على طريق الخروج، ويأخذ في الصراخ حتى يكتشف الجميع مكانه، يأتي صبية البيت للإمساك به، يقبضون عليه ويُحبس في قفص..

هل هذا ما حدث فعلًا؟

يكاد لا يصدّق أنه عاد. عندما اتصل به برّاك ليبلغه بالخبر، كانت الساعة تقاربُ الخامسة مساءً في الكويت، والثانية ظهرًا في لندن. خلال عشر ساعاتٍ ارتحلت به الطائرة من هيثرو، مرورًا بدبي، وصولًا إلى الكويت، وهو يتساءل عن سبب عودته. لماذا عاد؟ في مكانٍ سحيق العمقِ من صدره، حيث لا يستطيع أحدٌ غيره أن يسمع صوتًا، كان يعرفُ أنّه لا يعرف. وتساءل إن كان المردم يعود إلى قفصه للمرة الثانية. هل غادر القفص أصلًا؟ أيّ قفصٍ منهم؟

امتلأ صدره برائحة الكوناكاربس وأزهار الدفلى النابتة على سورِ الجار، وتفقّد أصص الصبّار وأحواض الريحان. في لحظاتٍ دوّى في الفضاء نباح «صلبوخ» آتيًا من الحوش المقابل. كأنَّ الكلب حدس بحضوره، كأنّه يحسبه غريبًا. ترى، هل اشتاق له أحدٌ قط؟

لم يكن في نيّته أن يعود، على الأقل ليس بهذه السرعة. أربع سنواتٍ من الغياب ليستْ ما خطّط له أبدًا، بل أربعين سنة، خمسين سنة. العُمر كلّه. كان يتساءل إن كان راغبًا في أن يُدفن في البلاد حتى. رحيلٌ مؤقت، قال لهم. أحتاجُ أن أبتعد. كان مهزومًا، خارجًا من السّجن لتوّه، مكسورًا حتى آخر ضلعٍ فيه. أغيبُ قليلًا وأعود. رسم على ثغره ابتسامة غبية. كلّهم صدّقوه إلا دانة، لكنه لا يريد أن يتذكّر دانة، يريد أن يتذكّر والده في لحظةٍ صافية، تقاسماها معًا مثل ابن وأب، مجرّد ابن وأب، في زمنٍ غير ملوّث. قبل الصّدع، قبل السجن، قبل أن تلطّخ السياسة أحلامه وتصنع كوابيسه. لماذا يبدو الأمر بهذه الصعوبة؟ أمضى ساعات الرحلة الطويلة غارقًا في كأسهِ ودموعه، يفتّش في هاتفه عن صورةٍ واحدة تجمعه بأبيه ولا يجد.

لم يحسب حساب يومٍ كهذا؛ أن يموت والده، ويعود ليخوض في الجرح حتى خاصرته، لحضور مراسم الدفن. كان يأمل أن يكون أوّل الراحلين، ربما متسمّمًا بالكحول، أمام شاشة التلفزيون التي تبثُّ

مشاهد لطياراتٍ روسية تقصفُ مدينة الرقة، أو طفل يغرق في طريقه إلى اليونان، أو تفجير في أنبوب غاز على حدود معبر رفح، أو جرّافة إسرائيلية تهدم بيتًا في الخليل، أو حتى أخبار بلاده التي ما عادت بلاده؛ تفجير إرهابي في مسجد «الصادق»، العثور على ترسانة أسلحة في «العبدلي»، شيءٌ سيجعل الرّحيل مسوّغًا، ربما مستوجبًا. لكنه، للأسف الشديد، ما زال حيًا، ثملًا، وعليه أن يحضر مراسم الدفن. أن يكبّر أربع مرّات في صلاةٍ ما عاد يفهمها، وأن يأخذ مكانه في الصفِ الأوّل بين أناسٍ لا يشبهونه ولا يشبههم. أن يستقبل المعزّين الذين نسي وجوههم وأسماءهم. عظّم الله أجرك جاسم. لا يفهم. أجرنا وأجرك. سوف يردّ عليهم جميعًا، ولن يفهم. رفع عينيه إلى النخلة يفكّر؛ ثلاثة أيّام. ثمّ تعود إلى لندن، تركض كالمهبول عاضًّا طرف دشداشتك ونعلك محشورة تحت إبطك. أي دشداشة يا جاسم؟ وأيُّ نعل؟ ليس عندك دشداشة، يجب أن تحصل على واحدة لحضور «الدّفان».

صعد الدَّرجات الأربع باتجاه مدخلِ البيت، تساءل إن كانت أمّه ما تزال تشكو من ألمٍ في ركبتيها. تذكّر نفسه قبلَ سنوات، يأخذها إلى جلسات العلاج الطبيعي، ينتظرها في الممرّ الرُّخامي للمستشفى، أصابعه مشغولة بكتابة الرسائل النصيّة لدانة. يصوّر لها عجيزة الممرضة، ركام الملفات الطبية على الأرض، طفلٌ يغرق في مخاطِه. يسأل نفسه الآن؛ هل كنتَ ثائرًا حقًا، أم مجرّد عاشق؟ لكنه لن يفكر في دانة الآن. أربع سنواتٍ انقضت وما يزال المدخل من غيرِ طريقٍ معبّد لكرسيّ العجلات. كرسي العجلات يبدو، في نظر أمه، مثل إهانة. تقول له، «أنا بعدي بقوّتي»، وتئنُّ في كل مرة تضعُ فيها قدمها على درجةٍ أعلى. «يا الله سترك وعفوك ورضاك». تقول، تقبضُ على يدِهِ بقوة ليشدّها إلى فوق. «يالله عليك ولا على غيرك». كانت تتألّم باختيارها المحض، كأنَّ في الأمر بطولة. لا توجد بطولة في الألم، لماذا يجد الناس صعوبة في تصديق ذلك؟ لماذا يتعايشون مع مشكلاتهم؟ لماذا يقبلون بالصّنبور الذي لا يمكن إغلاقه، والزجاج الأخضر المكسور، والسّوس على جذع النخلة، وآلام الركبتين، وخشونة الرقبة، ووجع القلب؟ لماذا يتصالح الناس مع خطاياهم؟

كان الأجدر بأمّه أن تُصلح الصنبور، وأن تشتري كرسيًا بعجلات. وكان الأجدر بأبيه ألا يكفَّ عن تكريب البرحية، وألا يلومه على سجنه. وكان الأجدر به أن ينتزع دانة من هذا المكان، ويفرّ بها خارجًا قبل أن يفوت الأوان كثيرًا.

2

خُيّلَ إليه عندما دخل إلى البيت أنّه لم يغادِره قط.

خطا إلى الصالون، تسمّر في مكانه يتنشّق تلك الرائحة؛ بقايا رَوْحِ بخور المعمول، أريج الخشبِ الغامض المنبعث من "الصندوق المبيّت"، حيث تخبئ أمّه أثواب الصلاة، والسَّجاجيد المُزهِرة، وأغلفة مخملية للمصاحف، وزجاجات صغيرة تمتلئ بدهن العود والعنبر والورد، ومكعّبات المسكِ الجاف. هناك أيضًا تلك النّكهة العتيقة الآتية من السِّجّادة الفارسية. لحظة خطا إلى عمقِ الصالون، التقط أنفهُ رائحة النفثالين القادمة من حمّام الضُّيوف، و"بخّاخ" العود المخلّط المنبعث من الوسائد، لكنه لم يجد أثرًا لرائحة سجائر أبيه، الأمر الذي جعله يرتاب، وتساءل للحظة إن كان قد مات كما يقولون. كل شيءٍ آخر كان في مكانه؛ الطاولة المستطيلة التي تتوسط الأرائك الترابيّة الباهتة. وسائد زيتية وعنّابية داكنة. أواني رخامية مرصوصة على المناضد، جهاز الريموت كنترول ونسخة من جريدة الأمس. على الجدران رأى اللوحات الثلاث للسُّوَر المعوذات، مكتوبة بالخطّ الديوانيّ المذهّب. وعلى الجدار الأيسر، كانت نسخةٌ من لوحةٍ لأيّوب حسين؛ سُفُنٌ شراعية تسترخي على المرسى، ونساء يغطّيهن السواد، يقفلن عائداتٍ إلى الشاطئ وعلى رؤوسهن تنكاتُ الماء العذبِ التي أتى بها "بوم الماء" من شطّ العرب. ما زالت أمّه تتحرّج من تعليق صُوَر ابنيها وحفيداتها على الجدران. تزيّن السُّطوح والمناضد بآنيةٍ فخارية ورخامية تملؤها بالفستق والزَّبيب المجفّفِ وأكياسِ العِلك البصري. أحسَّ بعاطفته تغلبه وهو يرى المكان الذي غادره يحتفظ بأدقّ تفاصيله. كل شيءٍ إلا منفضة السجائر، ورمادها.

اختلس نظرةً إلى المقعد الذي اعتاد والده الجلوس فيه، كل ليلةٍ، ليتابع أخبار الرَّبيع العربي، ويقرأ جريدة القبس، ويلفّ خيوط الصيد. ثمّ، عندما آلت الأمور إلى ما آلت إليه، تخلّص من كل عاداته، وتفرّغ لقراءة ما ينشره ولدهُ في مدوّنته. كان يسهر حتى الفجر، بدشداشته البيتية المخططة وشماغه الأحمر، يتحيّن عودته ليقذفه بنعله الطائرة، أو بجهاز الريموت كنترول، أو بمئاتٍ من قشور الفستق المتساقطة فوق رأسه. وحتى في تلك الأيّام، لم يكن يعرف إن كان والده يقذفه بكل تلك الأشياء خوفًا عليه، أم خوفًا منه. ويبدو أنه لن يعرف ذلك قط، أما بالنسبة له، فهو لم يعرف الخوف إلا عندما كفَّ والده عن قذفه بالأشياء.

خلال ساعات، سوف يغادر كل شيء مكانه. ستمتلئ الحُجُرات والممرّات بالكراسي المغلّفة بالساتان الأبيض، سترفع أواني الزبّيب والعلك البصري، لتمتلئ سُطوح المناضد والطاولات بأجزاءٍ من

المصحف، مقسومةً بين مقروءٍ وغير مقروء، وقناني المياه الصغيرة، وجِرار ماء زمزم، وكتيّبات الأذكار والأدعية التي طُبعت على نفقة المرحوم عبد المحسن براك العظيمي. سوف تصدحُ السمّاعات بسورة البقرة، مرّةً بعد أخرى. سيتصرّف الجميع كما لو أنَّ عبد المحسن برّاك العظيمي قد مات فعلًا. بدت له طقوس العزاء الإيمانية متنافرة مع حقيقة والدِه التي يعرفها. هل كان والده مؤمنًا في الأصل؟ لا يذكر أنه رآه يصلّي، يعرف أنه كان، مثله، يستخدم حمّام الضيوف للتدخين في رمضان. كان يتخلّص من سجائره برميها في المرحاض، وينساها طافية على السّطح. لم يسمعه يذكر الله إلا وهو يلعن الساعة التي أنجبه فيها.

ثلاثة أيّام. طمأنَ نفسه؛ ثلاثة أيّام يا جاسم. سأل نفسه إن كان مرتاحًا لموتِ أبيه، لولا أنّه يعرف أن والده لا يموت، أن عينيه الحمراوين الطافحتين مرارةً ستطاردانه إلى الأبد. إن عبد المحسن العظيمي هو فكرة أكثر منه رجُلًا. هذا ما كان يقوله لدانة. وليس في وسع جاسم أن يصدّق، ولا للحظة، أنَّ اليد التي قذفت وجهه بنعلٍ نجدية، بسبب مقالة، سوف توارى الثرى. سيظلُّ مشدودًا إلى أبيه دائمًا بذلك الحبل السّري المجدول من خيبةِ أمله، وليس في وسع الموت، أو الحياة، أن يفرّقا بين اثنين تربط بينهما علاقةٌ مثل هذه.

ثلاثة أيّام وتعود إلى لندن. آلاف الأميال ستفصل بينك وبين الرجل الذي كنته. ما لا يطبّبه الزمن سوف تعالجه الجغرافيا. تجلسُ على طرف الأريكة وتحاول أن تتذكّر آخر مرّة تحدّثت فيها مع والدك. تتذكّر برّاك متربّعًا في وسط الصالة، هنا، حيث تجلس بالضّبط، وأنت على شاشةِ الكمبيوتر تخترع له الأخبار لأنّك بلا أخبار. يمرّ والدك عابرًا في الشاشة؛ يبه هذا جاسم! شقيقك يناديه. ينظر إليك وتنظر إليه، بدشداشته البيتية وشماغهِ الأحمر. كان قد أهمل لحيته وشاربه، بدا وكأنّه قد شاخ عمرًا آخر. كانت تلك أوّل مرة ينظر فيها إلى عينيك مباشرة، منذ أربع سنوات. تساءلتَ يومها ما الذي يشقيه إلى هذا الحد، وقد تخلّص منك أخيرًا، يا «وِلْد السُّوْ؟». ضحك؛ يا وِلد السُّوْ! همس لنفسه مرة بعد مرّة، مقلدًا صوت أبيه.

تتذكر كيف ازدردت ريقك: «الله بالخير يبه!» كنتَ تحاول أن تبتسم، فهل ابتسمت؟ تذكرهُ رفع يده محيّيًا: «هلا يبه». كان ذلك سلامه الأخير. وكانت تلك هي المرة الأولى التي يناديك فيها: «يُبه». تذكر أن أطرافك قد أخذت في الارتعاش، أنَّ حجرًا ما تدحرج إلى حنجرتك وعلق هناك. سألك إن كانت النقود تنقصك. هززتَ رأسك نافيًا. مو قاصرني شي. أومأ وخطفَ من أمامك ثم غاب. لا هو يطيق النظر في عينيك ولا أنتَ.. شيءٌ ما انكسر بينكما بعد معركة المقالات التي خاضها واحدكما ضد الآخر. أيّكما خذل الآخر؟ وأيّكما خان نفسه؟ أمضيت السَّنوات الأربع الأخيرة وأنت تحاول حلّ الأحجية، وتخفِق.

تحاول أن تتذكّر؛ هل تحدّثت معه لثلاثين ثانية في السَّنوات الأربع الأخيرة؟ لا. تذكر وجه أمّك

لحظة ظهورهِ على الشاشة، تجلس إلى جانب أخيك. يبدو عليها التعب هي الأخرى.

– عسى ما شر يمّه؟

– ما شر يا حبيبي. ليش؟

– شكلك تعبانة؟

تلوّح بيدها مرّتين، كأنها تهشُّ على كلماتك لإبعادها.

– ما فيني إلا العافية.

وتعرفُ بأنَّ السؤال قادمٌ لا محالة.

– المهم.. لا تغيّر الموضوع.

– أي موضوع؟

– ما عزّمت تتزوج؟

– ما تملّين يمّه؟

– أخاف تزوّجت من وراي..

تبتسم. يلحُّ عليك الوجه الأسمرُ الصغير؛ دانة! يختلج وجهك وتحمرُّ أذناك. تفتعل سببًا لإنهاء المكالمة. لازم أروح يمّه. ايه انحاش انحاش.. هذا اللي فالح فيه. مع السلامة يمّه. تطوي شاشة اللاب توب.

تجلسُ شاخِصًا. تطمئن نفسك؛ ثلاثة أيّام وتعود. حتى هم، سيكونون سعداء برحيلك. لماذا تتذكر دانة طوال الوقت؟ أنت لا تقدر على التفكير في دانة الآن، أنتَ، على الأرجح، لن تقدر على ذلك قط. تتذكّر نفسك؛ جالسًا على الرّصيف، محمرّ العينين مجنونَ الأنفاس، بعد انفضاض الاشتباك. «عقالك» يطوّق عنقك ودشداشتك معفرة بالسُّخام وبقع من الدم. أزرارك مخلوعة، شماغك عُصابة حول رأسك. أنفك يتنشّق الدّخان وعرق الرّجال وبقايا الغاز الحارق؛ رائحة الفلفل التي لم تغادر أنفك للحظة. تتذكّر نداءات الأصحاب الذين فرّقهم الاشتباك. محاذاة الرّصيف ترى بقايا الغتر والشمغ والأحذية. علب سڤن أپ فارغة، طلقات مطاطية وعبوّات الغاز المسيل للدّموع. كان الهواء رطبًا وثخينًا. يمرُّ بك نايف ويناولك علبة سڤن أپ، تسكُبه على جبينك لتخفّف من حرقةِ الغاز على وجهك. يطلبُ منك أن تتحقق من هاتفك:

«دانة اتصلت تسأل عنك، تقول ما ترد عليها». تتحسّس جيبك. تفتح الهاتف وتقرأ رسالتها النصيّة: «طمنّي»، تبتسم. ترسل لها ردّك «حَديد». في تلك الأيام كنت تعتقد فعلًا أنك حديد، وكان بإمكانك أن تضحك على كل شيء؛ على السُّخام والدخان والهراوات ولعنات والدك. على الضرس المكسورةِ لنايف، على مانشيتات الجرائد، على القرارات، على صديقتك التي تستحيل، فجأة، حبيبة ثم تعود إلى طورها الأول. كان العالم نكتة كبيرة وكنت تكبر بقدر ما تضحك. تحسّك منيعًا، خارقًا، حديدًا. شيئًا يستعصي على الكسر. أين أنت الآن من ذلك الغرّ الذي حلم، بكل التهوّر الممكن، بوطنٍ وحبيبة؟ ها أنت تستوحشُ في الهزيمة، بلا وطنٍ ولا حبيبة.

ترفع يدك لتفتح زرّ قميصك، تحسّ بالهواء يغادرك. ثلاثة أيّام يا جاسم. تقومُ من مكانك صاعِدًا الدَّرج. ترى، أي قدرٍ من الذاكرة يمكن للمرءِ أن يواجهه في ثلاثةِ أيّام؟ فخاخ الماضي مشرّعة الأفواه، يسيلُ لعابها لقدميك، وأنت، يا جاسم، ما عدتَ حديدًا.

تقبضُ على الدرابزين وتصعد الدّرجات الأخيرة. تحسُّ بوهنٍ في ساقيك. أنت ثمِلٌ ومكسور، أفكارك دوائر ملعونة، رأسك يؤلمك وقلبك. سوف ترى أمّك خلال دقائق، منكبّة على سجادة صلاتها، تدعو لوالدك، عديم الإيمان، بالجنّة.

تسمّر أمام الباب، يستجمعُ أنفاسه. يريد أن ينجز الأمر بأسرعِ ما يمكن. بلع ريقه، طرقَ البابَ ثلاثًا. تعرف أمّه طريقته في طرقِ الباب. محالٌ أن تخطئه.. لماذا لم تجبه؟ انتظر أن تدعوه للدّخول، أن يسمع اسمه بصوتِها. كان يخشى، إن هو دخل بغتة، أن يتوقّف قلبها. انتظر ثوانٍ أخرى ثمّ ما عاد يطيق الصَّبر. فتح الباب شِبرًا وأطلَّ برأسه. كانت تسجدُ على سجّادتها المخملية المطرزة بالورد والأعمدة الرخامية، وجبينها يرتاحُ على صورةِ الكعبةِ. ثوبُ صلاتها بصليٌّ فاتح، وهواء الغرفة مزيجٌ من ضوع دهان «أبو فأس»، بخّاخ «عود مخلّط»، وبقية شاي الميرمية في قاع «الاستكانة». أحسَّ أن الغرفة قد تآلفت مع العتمة لوقتٍ طويل، وأن الشمس لم تمسّ مزيج الروائح التي تثقل هواء المكان، حتى تشّربتها السُّطوح والشراشف. السَّتائر مُسدلة، والسّرير مبعثرٌ في شقّه الأيمن، ومستوٍ في شقّه الأيسر. دخل وجِلًا، ملتصقًا بالجدار. على منضدة الزينة رأى السِّلال الصغيرة تمتلئ بمشابك الشّعر والدبابيس. أحسَّ بارتباكِ أمّه في صلاتها إثر دخوله. وفي اللحظة التي سلّمت فيها، خارجةً من صلاتِها، اغرورقتْ عيناه.

حدّقت فيه ذاهلة، واستطاع أن يرى، بوضوحٍ كامل، أنها تحسبه والده، رغم أنه، بزعمه، لا يشبهه في شيء.

– محسن؟

جثا على ركبتيه، احتضن كفّها، قبّل ظاهر يدِها:

– أنا جاسم يمّه، ما عرفتيني؟

3

لم يكن في نيّته أن ينام.

كان قد تمدّد على جنبه الأيمن، ينصتُ إلى أمّه تحدّثه عن السّاعة الأخيرة من حياةِ أبيه: "كان يقرا جريدته الظهر، قال بيقيّل سويعة، نام وما قام". لم تخلع ثوب صلاتها، ولم تطوِ سجّادتها. "أمرَ الله غالب يا يُمّه". تربّعت قريبة من رأسه، تبسملُ هامسة، وهي تتخلّل غرّته بأصابعها المكتنزة، الناعمة، التي تفوحُ منها رائحة دهان أبو فأس: "ترحّم على أبوك". "الله يرحمه". ابتسمت. أشارت إلى الشيْبِ في فوديه؛ "والله وكبرت يا حبيبي". وضعت راحتها على خدّه، متحسِّسةً خشونة ذقنه: "مو قادرة أصدّق إن أبوك راح.. أستغفر الله العظيم". ولا هو قادرٌ أن يصدّق حتى.. أن عبد المحسن العظيمي يمكنُ أن يموت. "الله يرحمه، ضاقت فيه الوسيعة من بعد ما تركت الديرة"، نظر إليها متعجبًا؛ "أنا يمّه؟" تبتسم؛ "مو مصدّقني؟" ابتسم؛ "لأ". تميل برأسها يمينًا وهي تنعم النظر في عينيه: "طول عمرك اللي براسك براسك" تبتسم وتضيف؛ "مثله الله يرحمه". أحس بعينيها تنفذان إلى أعماقه، أشاح ببصره. لا يمكن أن يكون "مثل أبيه" في شيء، فهذا أمرٌ، من حيث المبدأ، مرفوض.

يتذكر نفسه قبل سنوات، عندما كان يشكُّ في صواب الصواب وخطأ الخطأ. اليوم، صار يشكُّ في وجود الصَّواب والخطأ أصلًا، أي حقٍ يمتلكه لكي يثبت خطأ أمه؟ أومأ ولم يرد. "سبحان الله، هو راح وإنت جيت". أرخى رأسه على الوسادة وهو يتساءل بماذا تراها تهذي؟ هل تظنُّ فعلًا أنها قد استعادت ولدها بموتِ أبيه؟ "أنا راجع لندن يمّه، بعد الدّفان". ابتسمت؛ "خير إن شا الله، غمّض يا يمّه، خِذ لك غفوة، تلاقيك تعبان". كانت يدها صغيرة وناعمة. أحسَّ فيما هي تحتضن خدّه أن أحدًا لم يلمسه منذ زمنٍ طويل، رغم كل النساء اللواتي عبرنَ سريره في السنوات الماضية.

أغمض عينيه، انزلق في غفوةٍ سريعة، وحلم بمشهدٍ من ذاكرته، عندما ذهب مع دانة إلى سوق الجمعة، وسارا بين بسطات باعة الأنتيك، ليشتري لصديقته مكحلة قديمة. أرعبه، عندما فتح عينيه، أن يرى نفسه مُمدّدًا على الشقّ الأيسر من الفراش، بسروالٍ مبتلٍّ.

قفز من رقدَته وهو يسبُّ ويلعن. تلفَّت حوله. مسحَ بعينيه السَّتائر والجدران العارية. كيف نامَ هكذا؟ أين أمّه؟ ولماذا يحلمُ بدانة، نافرًا بشهوته، ممدّدًا في مكان أبيه؟

هرع خارجًا، عَبَرَ الممرّ إلى حجرةِ نومه. خطفَ إلى الحمّام وهو يفك سحّاب بنطلونه. خلعَ

ملابسه وقذف بها إلى سلّةِ الغسيل. فوجئ بسرعة تحرّكاته وتآلُف جسده مع المساحاتِ من حوله، وعرف أنه لم يفقِد إحساسه بالمكان رغم رحيله. فتح صنبور الاستحمام فاندفع الماء من الدّش، بُنيًّا، كدِرًا، تشوبهُ الحثرية، ثم مُصفرًّا، ثمّ صفوًا ورائقًا. تصاعد البخار الأبيض وتكثّف على السُّطوح حتى ما عاد قادرًا على رؤية وجهه. وقف شاخِصًا، متكئًا بمرفقيه على المغسلة، عاريًا، هزيلًا، وقد نتأت فقراتُ ظهره. استدار ووقف تحت رشّاش الماء. رفع رأسه إلى فوق وأحسّ بقطرات الماء تضرب جبينه وكتفيه، مثل إبرٍ تستحثُّ مكامِن ذاكرته. ترك الزخّات تضربُ عُريَه وأحسَّ بالرَّوْعِ يذهب عن قلبه. في غُضون دقائق صارت أقصى آماله أن يطبق جفنيهِ، ويهرع عائدًا إلى النوم، ليرى ساعدها الأسمر، ويسمع رنين الأساور في معصميها، ويتأمّل يدها الصغيرةِ وهي تتفحّص مكحلة قديمة، أو ساعة جيبٍ أوروبيّة، أو خواتم أفغانية، وكل الأشياء التي مرّرت أصابعها على سطوحها ولمستها في ذلك اليوم، حتى خيّل إليه أنها تلمسه هو، تداعبه هو، وأحسَّ أنَّ كل خلية في جسده قد أخذت في الارتعاش، ثمَّ شعر بزحف أصابعها يطلع صاعدًا من قاع قدميه إلى أعلاه. انتهى به الأمر مستيقظًا، مبتلًّا، وجائعًا في قلبِه.

أغلق رشّاش الماء واتكأ على الجدار. كلّ شيءٍ مسَّه بجلده العاري ترك أصداءً غريبة في أعماقه؛ جدار البورسلين البارد. الصابونة التي تلامس كعب قدمه. قطرات الماء العالقة بشحمتي أذنيه وأرنبة أنفه. كيف يمكن أن يستيقظ جِلده إلى هذا الحد؟ أطبق جفنيه، متحسّسًا امتداد رحيلها، كمن يمدُّ يدهُ في جرحهِ آملا أن يلامس قاعه ويُخفق. لم يكن غيابُها واسعًا، كان عَميقًا. وقد بات يدركُ أنَّ المكان الوحيد الذي يمكنهُ أن يراها فيه هو أحلامه. وعندما فكّر في الأمر أكثر، عرف أنَّ دانة لم تكفّ للحظة عن كونها حُلمًا، حتى عندما وقفت قريبة منه في ذلك اليوم، أمام طاولة بيع عدّة صيد، وتلامست أصابعهما من دون قصد، تاركة في أعماقه أصداءً بلا حد. كانت لمستها البريئة، غير المقصودة، في صباح يوم الجمعة ذاك.. تلك اللَّمسة التي استمرت لأقل من ثانية، قد دُمِغت على جلده إلى الأبد.

غادر الحوض، لفَّ وسطه بالمنشفة، ثم جلسَ على حافّة المرحاض ورأسه إلى الوراء، يتنشّقُ البخار الأبيض. صار قادرًا على تذكّر كل الأشياء؛ نظرة البائع الهندي، صوت الرَّجل الذي يصيح «على دينارين، على دينارين»، كحلها العربي، قرطيْها الفضيين الصغيرين، كنزتها الخضراء، والطريقة اللامبالية التي جمعت فيها شعرها في الجانب الأيسر، حتى يسعها أن تجرّب قرطًا جديدًا أمام مرآة ملطّخة بالبصمات. كان يتذكّر ضَوْع عطرها الشتويّ الثقيل؛ مزيج العنبر والورد، ويتذكّر رنين الأساور في معصميها كلما مدّت يدها لالتقاط شيءٍ من الطاولة أمامها. يتذكر تموّجات شعرها الأسود الذي يلامس كتفيها، والخاتم الفضي المعشّق بالفيروز الذي جرّبته أمام عَيني البائع، ويتذكر نظرات الرجال..

في صباح تلك الجُمعة، كان قد تسمّرَ أمام طاولة لبيع عدّة صيد السَّمك، ينتقي الخيوط والخطاطيف استعدادًا لرحلة «حداق» قادمة. في اللحظة التي مدَّ فيها يده إلى علبة مليئة بالخطاطيف،

تلامست يداهما صدفة، وأحسَّ بطراوة يدها تتسلّل إلى أصابعه، وتنتشرُ تحت جلده.

لم يكن أمرًا استثنائيًا أن يتلامسا. كان يمسك بها من كتفها لإبعادها عن الزحام. يمسح الرّمش الساقط على وجنتها، ويضع يده على ظهرها عند ركوبها سيّارتها. كانت تغلق أزرار قميصه السماويّ المرتخية، وكان يحبُّ قميصه السماوي. عندما يستبدُّ بها التعب، كانت تريح رأسها على كتفِهِ، وهما جالسيْن على أسكلة «الحدّاقة»، أمام مبنى البرلمان. حدث أيضًا أن احتضنها وعصرها بين أضلاعه، ليلة خروجه من السّجن، عند مدخل الكنيسة الإنجيلية. كان تلامُسًا واعيًا، مدروسًا، ومرسومًا في إطار الصداقة التي قرّراها لنفسيهما، الصداقة التي لم يصدّقها أحد، لا الأصدقاء ولا الخصوم.

لم يجد ما يبحث عنه. سأل البائع عن سُمكِ الخيط الذي يريد. فأشار إليه للذهاب إلى طرفِ الطاولة. نسيَ ما كان يبحث عنه أمام الأسماك المطاطية الملوّنة المثبتة على صفحةٍ من الخشب. نادته متململة: «ما خلصت؟» همهم: «شويّ بس». كان على وشك أن يسدّد للبائع حسابه عندما وجد أنها اختفت. داهمه ألمٌ في بطنه. ألقى بالكيس من يده وهرع سائرًا بين طاولات وبسطات الباعة، عابرًا خليط البضائع؛ عطورات فرنسية رخيصة، ساعات سويسرية مقلّدة، حقائب ديور وشانيل مستعملة. فيَلة من الرخام. فراشات مجففة مثبّتة على ألواح. لؤلؤ زراعي. حلي تركية. ثمّ حين وصل إلى بسطة الحليّ الأفغانية، عرف أنها ستكون هناك، تتفحّص خاتمًا فضيًا يعلوه فصٌ أزرق.

– وين رحتي؟

أشارت إلى الخاتم في يدها:

– شرايك؟

– غالي.

احتجّ البائع:

– بس إنتَ ما سألتِش تَمَنُه كام..

– غالي ولا يسوى بيزة.

جذبها من كمّها بعيدًا عن طاولة الحُلي. أراد العودة إلى عدّة "الحداق"، لكنّه وجدها تمشي، كالمسرنمة، بين البسطات وشعر بالألم يغور في بطنه. لماذا يخافُ كلما رآها تبتعد؟ أخبرها أنه لم يشترِ عدّة صيده بعد. ارتفع حاجباها؛ "صار لي ساعة أنطرك جاسم!" أحسَّ بعينيها تنفذان عميقًا في عينيه وتعرّيان ضعفه، أشاح بوجهه.

– خلاص ماكو سمك.

– أنا أصلًا ما آكل سمك.

– من متى بالله؟

– طول عمري، وألف مرة قلت، بس إنت ما تسمع.

قالت له ذلك مِرارًا؛ دانة لا تأكل السمك، إنها تأكل الربيان فقط، شريطة أن يُنتزع من قشرته. لم يصدّق للحظة أنها جادة، فلا يمكن لإنسانٍ عاقل ألا يهيم بمذاق البحر، إنها تقولُ ذلك لإغاظته. وهو يعرفُ أنها ستأكل السمك، إذا ما قام بنفسه بإزالة الحسكِ، وخلطه مع الأرز والدقّوس.

– ما تفهمين.

كان يكتفي بهذا الرّد، ويأخذ على نفسه عهدًا بأن يجعلها "تفهم". كان يعتقد أنَّ على المرأة أن تحبَّ بعض الأمور؛ دهن العود، الشعر الطويل، وأكل السّمك، وكان صعبًا عليه أن يرى دانة تتخلى عن أحد أضلاع ثالوث الأنوثة المقدّس الذي اخترعه في عقلِه. سار إلى جانبها، ضائقًا بنظرات الباعة. لعنها في سرِّهِ، وهو يرى كنزتها الخضراء تفضح تكوّر نهديْها. لماذا لم ترتدي سترتها السوداء الطويلة؟ تلك التي تخصِّصها لأماسي المزاج النكد وأسبوع دورتها الشهرية. رآها تدخل بين طاولات باعة الأنتيك. تبعها؛ ما الموضوع؟ سألها وهو يلتقط عددًا قديمًا من مجلة "العربي»؛ ما الذي أردتِ قوله؟ لكنها كانت قد نسيت الأمر تمامًا، بعد عثورها على أعداد من مجلة «لولو الصغيرة». بدت له وهي تتصفّح القصص المصوّرة؛ صغيرة وهشّة على نحوٍ لا يحتمل، ولم يستطع التخلّص من رغبته غير المفهومة بانتزاعها من السوق والعودة بها من حيث أتت. الآن، فيما هو يتذكّر صباح يوم الجمعة ذلك، ويشعر بعاديّة الأشياء الآمنة؛ جدالات مألوفة، أكشاك وبشر وخيوط صيد، صار بوسعه أن يرى إلى أي حدٍ قد استعصت عليه حياته.

كانت قد نسيت ما تريد إخباره به. سرحت أمام طاولات الأنتيك، تتفحّص قناني بيبسي وكراش الزجاجية الفارغة، أحذية وبذلات عسكرية، أنواط الشجاعة، هواتف بأزرارٍ دوّارة، مكاحل نحاسية، آلة خياطة سنجر، قبّعة إطفائي صفراء يزعم البائع أنها لرجلٍ شارك في إطفاء آخر بئرٍ نفطية كويتية بعد انسحاب القوات العراقية قبل عشرين عامًا.

وقفت تتأمّل حصّالة نقود على شكل زنجيّ، أحمر العينين والشفتين، يرتدي قبعة حمراء بحواف خضراء وبذلة حمراء، يبسط يده قريبة من فمِه ويبتسم ملء شدقيه، مظهرًا صفًّا من الأسنان النّاصعة. أشار جاسم إلى يده؛ تضعين العُملة المعدنية في يدِهِ، فيقوم بابتلاعها، يسمّونه؛ «بلّاع البيزة». نظرت إلى

الحصّالة شاردة وكأنّها تذكّرت أمرًا.

– شفيك؟

– ولا شي.

– لا والله دانة شفيك؟

وضعت قطعة معدنية في كفِّ الزنجي ورفعت ساعده. سمعت قرع سقوط العملة المعدنية في بطنِ الحصالة. زفرت. إنهم يكذبون كثيرًا. من؟ الجميع. لم يفهم. يكذبون بشأن ماذا؟ كل شيء. زفرت؛ «بلّاع البيزة» ليس رجلا أسود بملابس مدير سيرك من برودواي، بلاع البيزة في الغالب رجل أبيض، يرتدي بذلة أرماني أو دشداشة وغترة منشّاة من دنهل. ضحك، دانة لم تضحك. الجرائد تموجُ بأخبارٍ عن «إيداعات وتحويلات». أرصدة فلكية تودعُ في جيوب عدد من ممثلي الشعب. البرلمان مختطف، على الشعب أن يمثّل نفسه. لكن دانة لا تقرأ الجرائد، وما تضعه على صفحتها في تويتر هو في الغالب أشياء على شاكلة «مالي خلق أروح العرس»، أو «ليش الغدا سمك؟»، وروابط لأغاني «نوال الكويتية» على اليوتيوب. أغنيات لا تملُّ من سماعها لأيامٍ وأيام.

«شصاير دانة؟»، ليس من عادتها أن تغتمَّ لأمرٍ كهذا. تضجرها أخبار الجرائد وتقلقها المظاهرات. ولكن هو؟ لا. هو لم يكن خائفًا. كان حديدًا. قضى نهاراته معها ولياليه في الاعتصامات والندوات، تحت الهراوات والقنابل الدخانية، ملهَمًا بما يطرأ على خارطة المنطقة من تغيير؛ تونس، مصر، ليبيا، سوريا.. في تلك الأيّام تجرّع الجميع من كأسِ الأمل المغشوش. كلهم إلا والده. لكنه لا يريد أن يتذكر والده الآن، يريد أن يحلم بدانة. ما الذي تغيَّر؟ سألها، وهو يتفحّصها بعينين نافذتين. طأطأت؛ ثمة أمور لا أفهمها في العمل، لا أريد أن أضجرك بالتفاصيل، وعلى أي حال أحتاج أن أراجع بعض الأوراق. سارا بصمت، بعيدًا عن الطاولات والبسطات، تحت سقوف «الكيربي»، بين الأعمدة المعدنية المتعاقبة على الجانبين، ورتلين من باعة السجاد والستائر ومساند «السدو». أنا جائعة، قالتْ. توقّفا أمام البقالة واشترى لها كوبًا من الذرة وعلبة عصير.

يتذكّرها الآن، بعد أربع سنواتٍ من الغياب، متربّعًا على المرحاض ورأسه منكّسة بين كتفيه. يتذكّر كيف ارتشفت عصير الزبدة بالليمون من قاع كأس الذرة الفارغ. أنَّ كتفها قد لامس كتفه وهما يغادران من البوابة. أنه عندما أخرج علبة سجائره من جيبه انزعجت: «جاسم توّك مدخن ما مداك!». في تلك الأيام، لم تكن دانة تحب التدخين، ولم تكن قد تلوثت بالغضب بعد. مع كل خطوة خطاها باتجاه سيارته، كانت تكرّر عليه أن يهتم بصحّته، وهو، كان يستسلم لتلك الغبطة الصبيانية لأنها تخافُ عليه؛ من السجائر، من المظاهرات، من العالم. يتذكّر جاسم الآن تلك اللحظات المجانية، العادية، التي تنتشر مثل الدفء في

القلب. لماذا كان على الأمور أن تتغيّر إلى هذا الحد؟

«لحظة دانة!» قال يستمهلها قبل أن تصعد سيارتها مغادرة. «عندي لِك هديّة». يتذكّر كيف كركرت ضاحكة، وهو يعطيها غطاءً فارغًا لقنبلة دخانية، التقطها من الأرضِ في آخر مظاهرة.

– ألحين هذي هديّة؟

– إي شفيها القنبلة؟ أحسن من الورد. الورد يموت..

– والقنابل تموِّت.

– عن الدلع عاد! شويّة دخان ما يضِر..

في صباح اليوم التالي أرسلت لهُ صورة غطاء القنبلة الدخانية الفارغة، وقد حوّلتها إلى حافظة لأقلامها.

4

وقفَ أمام دولاب الملابس، نصف عارٍ، ويده على المقبض.

تخيّل جاسم كل الأشياء التي توشك أن تصير مرئية؛ الغتر والشمغ القديمة، قميصه السَّماوي، ودشداشة السجن، معلّقة على الجانب الأيمن، كما تركها قبل أربع سنوات. أبعد يده، شعر أنَّ الأمر أكبر منه. لو أنه فتح مصراعيْ الدولاب، بروائحه وألوانه، سيكون عليهم أن يَسحلوه إلى المقبرة سحلًا، وثمة جنازة عليه أن يحضرها، وأقارب ينبغي أن يحسن التصرّف أمامهم، وأسرة تعوّل على حضوره كثيرًا، لكي يَجُبَّ تاريخ عقوقه ويبرهن على كونه ولدًا صالحًا رغم كل ما حدث. ولكن لا أحد يستطيع مواجهة طوفان التفاصيل هذا. جلسَ على حافّة سريره، رأسه منكّسٌ بين ذراعيه.. لقد حاولتُ أن أخبركِ ولكنك لم تسمعيني. تمتم؛ لقد حاولتُ أن أخبركِ بما اكتشفتهُ هناك، في الانفرادي، أنَّ الحياة تصبحُ أسهل إذا اعترف كل واحدٍ منا بأنه عاجز. أنا آسف دانة، آسف.. اختنق وهو يفكّر في كل الأشياء التي لم يقلها. تمدّد على ظهره، التقط هاتفه ودخل صفحتها في الانستغرام. آخر صورةٍ أضيفت كانت قبل أكثر من سنة، كانت ترتدي بلوفر أسود، تدسُّ يدها في جيبيها، وتخبئ رأسها تحت القبعة. تجلسُ متربّعة على الفاصل الإسمنتي بين الممشى والشاطئ. جاسم يعرف هذا المكان، ذهبا إليه كثيرًا. شاطئ الشويخ. كان الفضول يعضّ قلبه؛ من الذي التقط هذه الصّورة؟ قرّب وجهه من الشاشة يتمعّن في ملامحها، لم تكن تبتسم. همس؛ ماذا حدث لكِ في غيابي؟ كانت المرَّة الأولى التي يشعر فيها أنه عاجز عن قراءتها. هو الذي يعرف مواعيد دورتها الشهرية، يستشفُّ مزاجها من تسريحة شعرها، ويقيس مؤشر حبها بالطريقة التي تلفظ فيها اسمه. لا أحد يعرفها كما يفعل، ومع ذلك ها هو ينظر إلى صورتها دون أن يفهم شيئًا. وضع الهاتف جانبًا، فهو لم يأتِ إلى هنا ليفكر في دانة. لقد قرّر، منذ البداية، أنّه لا يريد أن يعرف أكثر. عليه أن يجمّد ذاكرته في تلك اللحظة، عندما كانت الأشياء ما تزال ممكنة؛ مثل أن يعترف لها بحبّه، ويفرَّ بها خارجًا. لكنَّ تلك الانعطافة السِّحرية التي كان يمكن أن تحدث، لم تحدث قط.

غطى عينيه بساعده، ممعنًا في التفكير بكل ما لم يحدث، قائمة لا نهائية من الأشياء التي لم يقلها ولم يفعلها. ما كان ينبغي أن أعود. فكّر؛ ليس من بطولة في الأمر، بل حماقة محضة، أن تظن نفسك قادرًا على قضاء ثلاثة أيّام في ذاكرتك. عندما اتّصل براك وهو يجهش؛ «أبوي! أبوي راح!» لم يشعر أنه مخيّر في الأمر، فالمرء لا يستطيع اختراع حججٍ للتغيّب عن جنازة أبيه، إلا أن يكون ميتًا أو في السّجن. تمنى للحظةٍ لو أنه كان ميتًا، أو في السّجن. كان عليه أن يأتي، لكنه لا يدري لماذا. ألأنَّ

شقيقه أجهش؟ أم تراه أراد أن يتأكد من الأمر بنفسه.. هل يموت عبد المحسن العظيمي فعلًا؟ أغمض عينيه، وقرّر أن ينسى أمر الجنازة، وأن يغفو، ليحلم بمشهدٍ آخر من ذاكرته. ربما يستطيع أن يستحضر لقاءهما في حديقة الكنيسة بعد خروجه من السجن. خطر له أنه لو رآها ثانية، فسيكون قادرًا على حضور مراسم دفن أبيه. وبدلًا من أن يغفو، ويحلم.. صار يتذكّر ذلك اليوم، عندما جلس إلى جانبها في ساحة الكنيسة، ليخبرها أنه قرّر الرّحيل.

«حصلت على قبول من جامعة في لندن». نظرت إليه كأنّها لا تفهم، منذ متى وهو يفكر في الماجستير؟ أردف: «كلية الدراسات الاستشراقية، تخيّلي؟». الحقيقة أنَّه لم يفكّر في الأمر قط. لم يؤمن في حياته إلا بمدرسة الشارع، لكنَّ أسباب الرحيل تنقصه. كان غير مؤهل للتوظيف بسبب القيد الأمني. لكن هل هذا هو السبب فعلًا؟ السّبب الحقيقي أن شهرين مرّا على إطلاق سراحه دون أن يتبادل كلمة واحدة مع والده. أنه منذ الشهر تقريبًا يبيت في شقة نايف، أنه غادر السجن كافرًا بالرّمل والدم، بالأرض والناس. وفوق كل الأشياء التي كفر بها كان كافرًا بنفسه. كيف يشرح لدانة أنه خائن وجبان؟ منذ شهرين وهما يلتقيانِ في ساحة الكنيسة، كل ليلةٍ تقريبًا، وهو يفتّش في قلبه عن الأماني.. تلك التي استنبتها في قلبه طوال أشهر سجنه، ولا يجدها. كم مرة أقسم لنفسه أنه سوف يتزوجها ما إن يخرج من السجن؟

قالت: «جاسم إنت تدوّر حجة عشان تروح.. ترى ما تحتاج حجّة، على الأقل مو معاي» نكّس رأسه. «خايف تقول إنك بتهاجر؟» أحسَّ بأنفاسه تضيق. أشعل سيجارة وأشاح بعينيه. «وبعد الماجستير؟» سألته. «دكتوراه، وبعد الدكتوراه أشتغل هناك، ماني راجع». ما زالت لا تفهم: «من وين بتعيش؟ إنت محكوم بقضية أمن دولة، والدولة ما تعطيك بعثة». أراد أن يرد بحدّة، أنَّ البعثة حتى لو أعطيت له على طبقٍ من ذهب فهو يفضّل أن يسافر على حسابه. لكنه كان متعبًا جدًا، وقد قضى اليوم بطوله وهو يخوض النقاش ذاته مع أمه، ونايف، وبرّاك، و.. نظرت إليه بعينين تنضحان بالهزيمة: وأنا؟ طأطأ: «اللي صار أكبر منّي». هزت رأسها: «مفهوم». جلست ساكنة لدقيقة. أحسَّ بارتعاش أطرافها، ورأى عينيها تغرورقان، لكنه تظاهر بأنه لم يلحظ شيئًا، وعندما نهضت وسارت باتجاه البوابة، أحسَّ بأثقال الدنيا كلها تشده إلى مكانه.

تركها ترحل.

لو أنه تبعها، لو أنه قبض على معصمها، لو أنّه صرخ: لنرحل يا دانة! يالمِردم! هذه القطة تفترسُ صغارها وستأتي عليهم واحدًا، واحدًا. لن ينقذكِ أحد يا مجنونة، يا غبية! كل هذا العناء من أجل أوهام، مثاليات! سيتخلى عنكِ الجميع وينتهي بك الأمر في الانفرادي، تتحدّثين مع النمل وتجدّفين في حق كل فكرة نبيلة آمنتِ بها يومًا. لكنه لم يتحرك من مكانه، تركها تنسلُّ من حياته، ولطخة من الفراغ تتسع في قلبه. لماذا لم تفعل شيئًا؟ لُوح! ضرب رأسه بيدِه: طول عمرك لُوح! أثوَل! كانت الكلمات تخرج

من فمه بصوت أبيه. ردّد مقلدًا ذلك الصوت؛ مِردم!

سمع طرقات على بابه. نهض متثاقلًا، يجرجر خطاه، ليفتح الباب. جاسم أنا برّاك! كان شقيقه يناديه، كأنه لا يدري. فتح الباب، شَخَصَ في أخيه الذي وقف أمامه بعينين دامعتين وأنفٍ محمر. عدا ذلك، بدا كما رآه آخر مرة في زيارةٍ جاءت به إلى لندن، قبل عشرة أشهر. وإذا فكّر في الأمر، فهو لم يتغيّر عما كان عليه قبل أربع سنوات، باستثناء بعض الشعيرات البيضِ في ذقنه. تملى جاسم في شقيقه وفكّر؛ هذا إذًا هو اليُتم. احتضنه برّاك وأجهش؛ «عظّم الله أجرك ياخوي». كان يبكي كما لو أنّ والدهما قد مات اللحظة، رغم أنه، بحسب ما يعرف، قد توفي مساء الأمس. «الله جابك»، قال براك. احمرَّ وجهه عندما فطن إلى نظرات أخيه التي تلاحق عُريه الهزيل. أحسّ بوهنٍ غريب في ذراعيه، وهو يحاول احتضان أخيه، وأدرك متأخرًا أنّه لم يعلّق بكلمة واحدة. كل ما استطاع القيام به هو أن يسأل كالأبله «شلونك برّاك؟ شلون نورة والبنات؟». وعلى الجدار أمامه، كان خياله يرسم له خطوات دانة وهي تغادر حياته إلى الأبد.

نظر إليه شقيقه بعينين محتقنتين، وذقنٍ مرتجفة، فنكّس رأسه. كان يخشى أن ينظر في عينيه ولا يجد ما يبحث عنه؛ الحدّ الأدنى من الحزن المطلوب من ابنٍ محِب. يجب أن يبكي، كي يتخلّص من وصمة ولد السوء. وبدلًا من أن يبادل شقيقه الاحتضان، وجد نفسه يتمتمُ بغباء «ما عندي دشداشة». كان ذلك هو أقصى عذر يستطيع بلوغه ليبرهن على اتّصاله بالواقع؛ الدشداشة التي سيرتديها للجنازة. نشق برّاك ومسح عينيه. «تتدبّر»، قال مُجاريًا، وهو يفتح مصراعيّ الدولاب ويستخرج منه الدشاديش القديمة. تراجع جاسم خطوتين، جلس على حافّة سريره، متحاشيًا أن يرفع عينيه إلى الدولاب.

بدأ شقيقه يتفحّص الدشاديش، باحثًا عن واحدة بمقاس أخيه الذي أكله الهُزال. في يمين الدولاب، لمح جاسم الدشداشة المخططة التي اشتراها في السّجن. كانت ممزقة من جهة الظهر، بعد أن أزالوا عنها شعار المؤسسة الإصلاحية. أشاح بعينيه وطلب من أخيه أن يبحث عن واحدة من أيام الكلية، عندما كان وزنه مقاربًا لوزنه الحالي. أخرج جاسم واحدة وقرأ التاريخ المطبوع في مؤخرة العنق؛ هذي زينة. أومأ جاسم دون أن يعلّق. يريد أن يغلق باب الدولاب مرة ثانية. أخذ برّاك ينبش بين الغُتَر والشُّمُغ القديمة، يبحث عن شيء ملائم يعطيه للخادمة لتقوم بكيّه.. ترك الأمر لأخيه، أغمض عينيه وغطى نصفه العاري بغطاء السرير.

– شفيك؟

– تعبان..

– نسوّي لك قهوة؟

– لا.

– چاي وحليب؟

ابتسم. يعرفُ شقيقه بأنه يشتاق الشاي بالحليب، البيض المقلي وخبز التنور وكل الأشياء التي اختفت من حياته في السنوات الماضية. أي ثمنٍ دفعتَ للرحيل؟ كان عليك أن تتخلى عن كل التفاصيل، وعن حبيبةٍ كاملة.

ابتسم شقيقه:

– أبشِر بالرّيوق الزّين.

ثم استأذنه للانصراف، لأن عليه أن يشرف على العُمّال الذين يزيحون الأثاث، ويملأون الممرات والصّالات بالكراسي. كان صوتُ القارئ "العفاسي" قد بدأ يتناهى إليه عبر مكبّرات الصوت. وفكّر جاسم بأن الجريدة التي تركها والده على الطاولة في غرفة الجلوس سوف ترفع من مكانها، وتستخدم لتنظيف زجاج النوافذ غدًا، وأنَّ موته، في هذه الحالة، ربما كان حقيقيًا.

– وين أمّي؟

– تحت مع خالاتي..

فجأة تذكّر جاسم أن لديه ثلاث خالات، وتساءل إن كان سيبدو تصرّفًا غريبًا، أن يتسلّل من الباب الخلفيّ كي لا يضطر إلى معانقتهن.

الفصل الثاني

مقبرة الصُّلَيْبيخات

1

في الطريق إلى المقبرة، حاول جاسم أن يسترجعَ ذكرياته مع أبيه، لكنّه وجدَ نفسه يتذكّر المرة الأولى التي رأى فيها منصّة الإعدام.

كان جالسًا في الباص المخصص للسجناء، في طريقِهِ إلى السّجن، مُصَفَّد اليدين، عندما رأى المشنقة منتصبة بين أبنيةِ السّجون الثلاثة؛ السجن المركزي، السجن العمومي، وسجن الأحداث. تفصَّد العرق من جبينه وإبطيه، وأحسّ بجفافٍ مفاجئٍ في فمِه. كانت المشنقة معدنية، بيضاء، شاهقة، مزوّدة بمظلاتٍ من الصَّفيح، حبالها غليظة، متدلية وجائعة.

طوال أشهر سجنه، سيرى جاسم منصَّة الإعدام في كلّ مرّة يغادر فيها السِّجن ليمثلَ أمام المحكمة، سيحسُّ بها قريبة منه أكثر مما يطيق؛ متربّصة، شهوانية، هسيسها المعدنيُّ يخبره بأنَّ لا أحد، لا أحد على الإطلاق، في مأمنٍ منها؛ أنت قابلٌ للتصفية في أيّةِ لحظة، وعندما يقرّرون ذلك، ستكون المسوّغات كلّها مصفوفة على الطاولة، وجاهزة للاستعمال. أنت مجرّد كبشٍ لافتداء نظام الأشياء واستمراريّتها. وجودك على قيد الحياة، حتى اللحظة، هو مجرد مصادفة. ستجثمُ المشنقة على أفكارِ جاسم طوال السَّنوات المقبلة، حتى عندما لا يكون واعيًا بذلك. سيسمعُ همسها في أذنيه ليلًا ونهارًا، حتى إنه سيعتاده وينسى وجوده، وطوال السنوات التي سيقضيها في منفاه الاختياري، سوف يحلمُ بها تطوّق عنقه، لكن ليس بالصّرامة الكافية لقتلِه.

في الطريق إلى السِّجن، سيرى جاسم نفسه يصعدُ درجات منصّة الإعدام، مغيّبًا تحت القماشة السوداء، كي لا يرى العالم في عينيه فجيعة الرّحيل. سوف يسمع قرع نعلهِ على الدّرجات المعدنية الصَّدئة، ويحسُّ بقبضة الحرس المرافقِ على زنديه. سيكون الهواء قد بدأ ينضبُ في رئتيه، حتى قبل أن يطوّق الحبلُ عنقه. سوف يهوي في العتمةِ، مقيّد الأطراف، وقد شُدَّ ساعداه إلى ظهره بأحزمة جلدية سَوداء. ستسقط نعلهُ أولًا. ثمّ كل الأشياء؛ إيمانه، أحلامه، أوهامه، وأخيرًا روحه. سيرفسُ بقدميه، ويتبوّل على نفسه، أمام كاميرات الصُّحفيين، وأعين ضبّاط كتيبةِ الإعدام، وفريق الطبّ الشرعي. وقبل أن ينتهي الأمر تمامًا، سوف يقذِفُ للمرة الأخيرة من حياته، هاويًا في الرُّعب، ومن دون ذراعيْ امرأة.

في اليوم الذي رأى فيه جاسم المشنقة اكتشف أن قدر الإنسانية هو الوحدة. ربما كان قد قرأ ذلك في مكانٍ ما من قبل. ولكن الأمر بدا في رأسِهِ مثل لحظة إشراقٍ مظلمة؛ كانت وحدة مُحكَمة وغير قابلة

للدحض. عندما تصعد درجات منصّة الإعدام، أنت تصعد وحيدًا. عندما تهوي في الفراغ، وترفسُ بقدميك، أنت ترفس وحيدًا. عندما ينضب الأوكسيجين من دمك، أنت تختنق وحيدًا. عندما تصرخ في الهلع، أنت تهلع وحيدًا. عندما تموت، فأنت تموت وحيدًا، فكيف بوسعك للحظة أن تصدّق بأنك لست وحيدًا في حياتك؟ كان يستوحشُ في خيالاته، تحت القماشة السوداء، ولطخة البول والمنيّ الافتراضية تتسعُ على بنطلونه.

يتذكّر جاسم تلك اللحظات جيدًا، اللحظات التي رأى فيها المشنقة لأول مرة، ورأتهُ. كانت واحدة من المرات القليلة التي أحسَّ فيها بنفسه مفرّغًا من الآخرين.. حتى دانة، كانت بعيدة، في واقعٍ موازٍ، خلف الأسلاك الشائكة لسور السجن المركزي، في عالمٍ لا يمتُّ إلى الحقيقة بصلة.

منذها، أصبح وحيدًا على نحوٍ لا يمكن إصلاحه، لقد قتلته المشنقة. وصار يعرفُ بأن الحياة تصطفي بعض أبنائها؛ أبناء السوء، لتريهم الوجه الحقيقيّ منها؛ الذين يصعدون المشنقة، الذين يزجُّ بهم في الضوء الأبدي للسجن، الذين يخرجون من زنازين الانفراديّ وقد أصابتهم لوثة الشك، الذين يصابون إلى الأبد بعدم اليقين، الذين ينكسرون ولا يعودوا صالحين لغير السُّكْر أمام الشريط الإخباري. أجيالٌ وأجيال من المرادم التي تتخبّط في الجدران. الحياة تصطفي بعض أبناءها، أبناء السوء، إلى سراديب العالم السُّفلي، حيث الأمور كما هي فعلًا، وليست كما نتمنّى.

فكّر جاسم بأنه قد توغّل في ذاكرته أكثر مما ينبغي، وأنَّ المرء لا بد وأن يكون مخبولًا كي يظن نفسه قادرًا على مجابهة حقائقه. كان بحاجة للتشبّث بأي شيء يوجد خارجه، أن يخرج من نفسه، أن يصفّي دمه من دمه. راح يقرأ لافتات الشوارع على الطريق؛ نادي الصّيد والفروسية، مجمّع ميادين الرماية.. يجب أن تعزل الألم، قال لنفسه؛ يجب أن تعزل الألم وأن تبصق عليه. هذا ما كنت تردّده لنفسك طوال ساعات الانفرادي، قضيت تلك الأيّام وأنت تردّد؛ نملة، نملتان، ثلاث نملات.. ثمّ تساءلت إن كان في وسعك أن تطلق على كل نملة اسمًا. ثمَّ بكيت، هل تذكر أنك بكيت؟ بكيت وأنت تردّد ثانية؛ عليك أن تعزل الألم، أن تعزل الألم. ليس عندك نمالٌ تحصيها وتسمّيها و"تخاويها". ولكن يمكنك أن تخرج من صحراء الرمال الناعمة في ذاكرتك، وأن تبدأ في رؤية المكان من حولك. إنّهم يبنون ملاعب للتنس الأرضي، وهو لا يكترث للتنس الأرضي، ولكنه يريد شيئًا ينتشله من داخله. كانت المشنقة تفحُّ في أذنيه، مثل أفعى.

"شفيك ساكت؟"، سأله برّاك، وهو ينظر إليه متوجّسًا، يمناه على المقود. نظر إلى أخيه وكأنّه يراه للمرة الأولى. كان قد نسي وجوده. رغم أنه لم يكف عن الكلام عن جارتهم التي تكفّلت بغدائهم، ودهشته من عناقه البليد لخالاته، وعن ضرورة وضع لافتات في الشوارع تدلُّ النساء المعزيّات إلى البيت. تحدّث أيضًا عن برقية عزاء وصلتهم من الديوان الأميري، وعن إعلان النعي الذي نُشر في الصفحة الأولى من

الجرائد، وعمّن سمّاهم "رجالات الدولة" الذين اتَّصلوا به منذ ليلة أمس يعزّونه في رحيل أبيه ويثنون على مواقفه الوطنية منذ اعتصامات دواوين الاثنين وحتى الحراك المعارض الأخير. لم ينتبه جاسم لكل ما قاله أخوه، كان يفكّر في المشنقة.

نظر إليه شقيقه: "علامك؟" انتبه فجأة إلى ضرورة أن يبرهن على حضوره، لكنه منذ مجيئه يجد نفسه قادرًا على التفكير بكل الأشياء؛ دانة، السجن، المشنقة.. كل شيء إلا والده. تمتم "ماكو شي". عاود شقيقه سؤاله: "أكيد؟" يومئ. "تعب سفر". اكتفى برّاك بالصّمت، وتساءل جاسم إن كان شقيقه متضايقًا منه. لا سيما بعد الطريقة الخرقاء التي تصرّف بها في لقائهما الأوّل. ألقى نظرة على أخيه. كان شديد الشّبه بأمّه، ولعله السبب الذي جعله الابن "المفضل" لدى والده، بالإضافة إلى أسبابٍ أخرى، منها، على سبيل المثال، أنه فعل كلّ شيءٍ بالشكل الصحيح؛ لم يرفع صوته ضدّ أبيه. لم يتلوث بالسياسة. لم يكتب. لم يشارك في اعتصامات وتظاهرات. لم يسجن. لم يسكر. لم يدخن سيجارة حشيشٍ واحدة. إضافة إلى أنه كان يبرع في لعب "الدامة" وهذا في الحقيقة هو كل ما يلزم المرء لكي يجد طريقه إلى قلبِ عبد المحسن العظيمي. ثمة أمرٌ واحد فشل برّاك في تحقيقه، وهو صيد السمك، لكن والده كان مستعدًا للتغاضي عن هذا النقص البسيط في ظل وجود المميزات الأخرى. كان قد بلغت به النباهة حدَّ أن يبقي على لحيته قصيرة ومشذبة طوال الوقت، لأن والده أخبره مرّة أن اللحية القصيرة تناسبه. درس إدارة الأعمال تلبية لرغبة أبيه، اشتغل مديرًا للعلاقات العامة في شركة أعمامه، تزوّج امرأة اختارتها أمّه، سمّى كبرى بناته على أمه والثانية على أم زوجه، وقد ظل يحاول إنجاب ولدٍ ليسميه "عبد المحسن" لولا أنه حظي بابنتين أخريين. قبل بضعة أشهر، اتصل به براك وأخبره أن نورة حامل، ولعل مجيء "عبد المحسن براك عبد المحسن براك العظيمي" قد حان فعلًا، لأن لعبة استنساخ الأبناء لآبائهم هي اللعبة المفضلة للجميع، وشقيقه بارعٌ فيها على ما يبدو.

الحقيقة أن جاسم لم يفهم الأمر قط. هل يمكن أن يبرع المرء إلى هذه الدرجة في الامتثال للآخرين، أم أنَّ الأمر يتطلّب جهدًا من قبله؟ هل كان يحقق كل تلك النجاحات بسهولة، أم ضدّ رغبته؟ تمنى جاسم في قرارته أن يكتشف في أخيه حقيقة مظلمة، مثل أنه يسكر في نهايات الأسبوع، أنَّ له حبيبة لم يتزوّجها كي لا يُغضب العائلة، أنّه يود لو يحلق ذقنه، ويتمنى لو أنه درس الآداب بدلًا من إدارة الأعمال. لكنّ الحقيقة أنه فعل كل شيءٍ بسهولة جعلت من حياة جاسم جحيمًا. وعلى عكسه، لم يكن لديه أي رأيٍ سياسي، أو اهتمام بالشأن العام. الشيء الوحيد الذي كان يقوله، عن الاعتصامات، أنها تجلب الفوضى، وأن العالم في غنى عن كل هذه الخسائر.

في المرآة اليمنى للسيارة، رأى جاسم نفسه بدشداشته الشتوية الكحلية، وشماغه الأبيض. لم يرَ نفسه في هذه الهيئة منذ سنواتٍ، أحسَّ نفسه غريبًا، لا يشبهه، «مقاسات وبعد الصورة في المرآة غير

حقيقية». لكنه على الأقل لا يشبه والده. لا يشبهه! أخذ براك يحدّثه عن الأمور التي فاتته. أشار إلى الأبنية والأعمال الإنشائية على جانبيّ الشارع، سأله؛ تغيّرت الكويت؟ هز رأسه نفيًا. الكويت لا تتغيّر. كانت ذاكرته تتطابق مع ما رآه؛ «منطقة الضَّجيج» إلى يسارِه. إلى اليمين تتعاقبُ الفِلل السكنية ذات الأدوار الثلاثة، يسكنها الكويتيون، وإلى اليسار ترى عمارات متهالكة، على شرفاتها شُدّت حبال الغسيل، وعلى الحبال تدلّت السراويل الكالحة، يسكنها المقيمون. شارعٌ واحد، بأربع حاراتٍ، يفصل بين عالميْن؛ مواطن ومقيم، كويتي ووافد، عالمٌ وعالم. في السّابق كان يظنُّ أن البلاد لأبنائها فقط، الآن بات يعرفُ بأنَّ البلاد ليست لأحد.

انعطفت السيّارة يمينًا، أمام الإضاءة الحمراء لإشارة المرور لمح جاسم السّور الخارجي لمبنى السجن المركزي، وأبراج المراقبة العالية، بنوافذها العاكسة، وعيون المراقبة المزروعة في الجدران.. رفع يده إلى ياقته وفتح زرَّ ياقته، كأن الهواء يستعصي.

دقائق وأشار برّاك إلى سور المقبرة. سورٌ واطئٌ من الطُّوب، يعقبهُ صفٌ من أشجار الكوناكاربس. انعطفت السيّارة تتبع لافتة «إلى المقبرة» وقطعت الشارع الذي يفصل مقبرة السُّنّةِ عن المقبرة الجعفرية. أوقف برّاك السيّارة لحظةً أمام البوابة، حتى يتسنى له قراءة الدعاء على اللافتة عن يسارِه؛ السلامُ عليكم أهل الديار.. كان شقيقه يهمسُ. أنتم السابقون ونحن.. من السّابق ومن اللاحق؟ عندما وقف جاسم بصدرٍ مفتوحٍ في اعتصامات ساحة الإرادة كان يظن نفسه على دربِ أبيه. عندما طالب بحكومة منتخبة كان يظنُّ نفسه على درب أبيه. وحتى في تلك الأيام، كان عبد المحسن العظيمي فكرة أكثر من كونِه رجلًا. لكنه كان فكرة خارقة، لا تخلو من فكاهة، لرجلٍ عملاق، يلفُّ غترته على رأسه كيفما اتفق، يشمّر كميّه، ويكتب المقالات التي ينتظر الآلاف قراءتها كل صباح.

كان يحملُ في رأسِهِ ذاكرة والده، وقد أنصت إليه مرارًا، وهو يقصُّ عليه ما حدث في أيامهِ، حل المجلس وتعطيل بعض مواد الدستور، رقابة مسبقة على الصُّحف. «قلنا البلد ضاعت!»، كان يقول.. عندما عُطِّل البرلمان اجتمعنا في الدواوين كل يوم إثنين، مئات وآلاف الرجال والنساء. كل أسبوع في ديوان. الحكومة طوّقت المناطق، أرسلوا لنا القوات الخاصة والشرطة والحرس الوطني لمنع التجمّعات، ضربونا بالهراوات، استخدموا القنابل الصوتية، احتجزونا في المخافِر.. كان والده يلهب مخيّلته بتلك التفاصيل، وقد تمنّى مرارًا لو أنه كان جزءًا من ذلك المشهد الملحميّ. مع أول ضربة تلقاها بصدره من هراوةِ الأمن، امتلأ بنشوةٍ غير مفهومة. لقد تحقّقت أمنيته، لكنه لم يفهم. لماذا كفَّ والده عن ذِكر دواوين الإثنين بعد الحراك الأخير؟ وكيف صار يلعنُ معارضة اليوم، ويتحسّر على معارضة أمس؟

نسأل الله لنا ولكم العافية، سمع شقيقه يهمس.

أوقف برّاك السيارة في مركن السيارات القريب من مبنى «المغيسل»، أطفأ المحرّك ثمّ نظر في عين أخيه. للمرةِ الثانية سأله؛ أمورك تمام؟ أومأ بالإيجاب. أزعجه أن تكون هشاشته مرئية لهذهِ الدّرجة، وأراحه أن شقيقه قد قرّر التواطؤ مع أكاذيبه. لكنَّ تساؤلاته لم تكف؛ هل كان عبد المحسن العظيمي بطلًا أم طاغية؟ وهل يمكن أن يكون المرء الاثنين معًا؟

ترجّل الاثنان. سارا بين سيارات نقل الموتى المركونة في المساحة الظليلة باتجاه المغيسل. خلال الدقائق اللاحقة وصلت سيّارات الأعمام والأخوال والأصدقاء وأبنائهم. شخص بعينيه وهو يرى نفسَهُ مخطوفًا في أحضانهم. كلما بزغ وجهٌ أمامه أحسَّ بلسانِه يثقل وهو يحاول أن يسترجع العلاقة والاسم. لم يتصوّر بأنّه قد انسلخ عن عالمِه إلى هذه الدّرجة. عندما احتضنه أحدُ أعمامه مردّدًا «البقا براسك يا يبه»، كان جاسم ينظر إلى زرزورٍ خطف في سمائِه. كان قد أخفى قلبه عميقًا، عميقًا مثل سِر. سمع البعض يتهامسون بأنّه «في حالة صدمة» ولم يزعجه الأمر. كان كل ما يريده هو أن يخطو خارج المغيسل، نحو استراحة المشيّعين، وأن يجلس وحيدًا على المقعد الخشبي أمام المدخل، ويشعل سيجارة.

بحث بين الرِّجال عن شقيقهِ، وصار أعمامه ينادونه للانضمام إليهم للمشاركة في غسلِ والدِه. ثلاثة أيام وتنتهي هذه الملهاة. لا تسقط أمامهم الآن! خطا نحو أعمامه وعيناه غائمتان. أحاطه عمّه بذراعه، وسار معه باتجاه مصاطب الغسل. امتلأ أنفه برائحة الكافور والسّدر والبخور والرطوبة. زفر عميقًا. لقد صار مستعدًّا لرؤية الرجل الميّت الذي لا يشبه والده في شيء. سوف يرى الجثمان الذي يزعمون أنه لأبيه، رغم أنه يعرف أنَّ عبد المحسن العظيمي لا يمكن أن..

دخلَ غرفة الغسل ووجد الجميع في انتظاره. كان الجثمان المسجى على المصطبة مغطّى بالكامل، والميّت في داخله أكثر ضآلة مما ينبغي ليكون والده. كنتُ أعرفُ أن والدي لا يموت.. كُشِف الغطاء. امتلأ الهواء بالبسملات والتهاليل والتسابيح. هوى شقيقه على ركبتيهِ، دافنًا وجهه في شماغه. ربّت أبناء العمومة على كتفيه. لقد حاز برّاك على البكاء كلّه لنفسه، مثل إرث، مثل حظوة، مثل حقيقة لا تقبل الدحض، بكونه الابن الوحيد لعبد المحسن العظيمي. أما بالنسبة إليه، فقد عرف لحظتها أنّ مكانه يقع خارج دائرة المرضيّ عليهم، وأنه موصومٌ بعقوقه إلى الأبد.

أراد أن يذرف دمعة. دمعة واحدة فقط، ليس من أجلهم، بل من أجله هو، كي لا يصدّق أنه عاش بلا أب، أنّه مات إلى هذا الحد، أن المشنقة قد قتلته تمامًا، وأنَّ الصَّدع السَّحيق بينه وبين أبيه قد ابتلع كل شيء. أنَّ البلاد لم تقف بينهما مثل جدار مستحيل. وأنّ ما زال في وسعه أن يعثر على لحظة خالصة مصفّاة، يكون فيها مجرّد ابن، ويكون والده مجرّد أب.. أنَّ عبد المحسن العظيمي قد مات فعلًا.

اقترب جاسم خطوة، ليصبح في مواجهةٍ مباشرة مع الوجه الذي كابد ليفرَّ منه طويلًا. لقد كان هو،

هو بعينه، رغم أنه بدا هزيلًا، مخضرًّا، بتلك الهيئة النائية للموتى، العصيّة على التفسير. لم يكن يشبه نفسه، ربّما لأن الجفنين قد أرخيا على العينين الحمراوين الطافحتين مرارة. وربّما لأنّ والده لا يترك فمه مرتخيًا بهذا الشكل. ربما لأنه لم يكن يصرخ «يا ولد السّو»..

– يُبه؟

همس جاسم، وهو يقترب من الجثمان العاري..

لقد كان هو فعلًا، الوجه الذي يطبق على قلبه، الوجه الذي لا يستطيع المرء استحضاره، إلا وهو يتحسّس عنقه.

2

لا يحتاج المرء إلى معرفة كل هذه الأمور.

فكّر جاسم، وهو يرمق السَّطل البلاستيكي المليء برغوة السّدر، تخضّه يدا الرَّجل ثم تنهل منه، لتدعك به رأس والده وذقنه. عندما أدخل المغسّلُ إصبعيه المبتلّتين بين شفتيّ أبيه المرتخيتين، وصار يجوس بهما على أسنانه ولثّته، شعر جاسم بمعدته تتقلّب. وكاد يطبق على فمِهِ براحته ويشيح بعينيه، لكنه بذل جهدًا مُضنيًا للحفاظ على تماسكه.

كان برّاك يمسكُ بخرطوم الغسل، متأهبًا لصبِّ الماء على الجثمان، والمغسّل يذكّره بوجوب غسل نصفه الأيمن ثلاثًا، ثم الأيسر ثلاثًا، ثم.. أحسَّ جاسم بأنفاسه تضطرب. لم يدرِ ما الذي يفترضُ به أن يفعله، ففي الوقت الذي فارت فيه حموضة معدته، وصارت رئتاه تطالبانه بسيجارة، وقلبه يرفس كحيوانٍ ذبيح، كان يتساءل عن مدى إمكانية أن يشارك في هذا الطّقس ليصير جزءًا من الكل. هل يعود الطرزان إلى الحظيرة؟ سمّر عينيه على الجثمان، يترقّب تلك اللحظة التي ينهض فيها الميت من موته، لينظر إليه بعينيه العظيمتين ويصرخ؛ "الله يلعن الساعة اللي جبتك فيها يا ولد السّوْ!" وتساءل، لو حدث ذلك فعلًا، هل سيكون عليه أن يهرع إليه ويحتضنه، أم أنّ عليه أن يعضَّ على طرف دشداشته وينفذ بجلده؟ كان يعرف أنه موجود في المكان الخطأ، مثل دخيل، أنّه ما جاء إلى الجنازة إلا بصفته بَصّاصًا، لأنَّه يعتقد أنَّ عبد المحسن العظيمي لا يمكن أن.. أحسَّ في تلك اللحظة أن أمره على وشك أن يُفتضح. كانت رائحة "الرجل الغريب" تفوح من مسامات جلدِه، وتنتشرُ في المكان.

اقترب منه أحد أعمامه.

– إنت زين يا يبه؟

– لأ.

هذه المرة لم يجهد نفسه لإخفاء الأمر؛ هو ليس بخير. لا جدوى من إخفاء ما لا يمكن إخفاءه. يريد سيجارة. إنه لم يكن قط، ولن يكون أبدًا، واحدًا منهم. الطرزان لن يغادر غابته، وهذه الحقيقة تؤلمه في جميع جسده. يريد أن يقيء، لولا أنّه لا يستطيع أن يتخيّل إهانة أكبر لجنازة عبد المحسن العظيمي، من لطخة قيء على مصطبة الغسل، رذاذها ينتشر على وجه الميت. بوسع حادثٍ عارض، مثل معدة

تخرج عن طورها، أن يدنّس قداسة لحظةٍ كهذه إلى الأبد. تراجع خطوتين. عليه أن ينسحب، فهو لا يضمن نفسه؛ لا معدته، ولا دموعه. لقد فعل كل شيءٍ بالشكل الخطأ وعليه أن يهرب الآن. "أنا طالع عمّي". همهم وأزاح الستارة خارجًا. اخترق حشد الأعمام والأخوال الواقفين عند المدخل. سار بعيدًا. "جاسم!" أحدهم يناديه. "خلّوه يشم هوا". عمّه يفسح له مجالا للمغادرة.

تسمّر أمام بوابة غرفة المشيّعين. استلَّ سيجارة من العلبة في جيبه، كسر نصف القطف. أشعلها وعبَّ دخانًا ثقيلًا. أحسَّ بدوارٍ خفيفٍ فاستند إلى الجدار، وأغمض. هل مات عبد المحسن العظيمي كما يقول الجميع؟ لماذا إذًا، لا يرتخي الحبل اللعين حول عنقه؟

تذكّر جاسم المرة الثانية التي رآى فيها منصة الإعدام. كان خارجًا من السِّجن لحضور جلسته الأولى في المحكمة. ثبّت عينيه على قدميه، والسَّلاسل فيهما، كي لا يضطر إلى تخيّل عملية شنقه مرّة أخرى. كان قد مرَّ شهرٌ على حبسه، دون صدور حكم. في الليلة الماضية لخروجه، رأى أحد الحرس يقف عند باب الزنزانة يردّد "محاكم! محاكم يا شباب!"، ثم نودي اسمه. "جاسم عبد المحسن". في البداية لم يتبيّن أنه المقصود. "جاسم عبد المحسن العظيمي!" فزَّ من مكانه: "موجود!" أبلغه الحارس: "حدّدوا جلسة لقضيتك، عندك جلسة بكرة". أومأ وهو يبلع ريقه. عاد إلى سريرهِ وهو يحسُّ وهنًا في ركبتيه. بعد مضيّ شهرٍ من الطفو في الفراغ، كانت الأشياء قد أخذت في الحدوث أخيرًا؛ أنا جاسم عبد المحسن العظيمي، كاتب ابتلعه نفق الحبس الاحتياطي، متّهمٌ بقلب نظام الحكم، وازدراء الأديان، وإشاعة الأخبار الكاذبة، وتُهمٌ أخرى تتعلق بالتحريض والتقويض وهدم هيبة الدولة وأشياء لم أظن نفسي للحظة.. قادرًا على اجتراحها. تربع على سريرهِ واستند إلى الجدار وسرح بأفكاره؛ سيمثل أمام المحكمة، سيرى أمه، وبرّاك، ونايف.. هل سيحضر أبوه يا ترى؟ هل سيحضر لأجل أن يشمت بهِ على الأقل؟ ليذكّره بكل ما رفض تصديقه؛ "راح أذكرك". كان يقول؛ سيتخلى عنك هؤلاء الكلاب في اللحظة التي تقتضي فيها مصالحهم ذلك، وسيكونون على حق إذا فعلوا، وحدك ستدفع الثمن. الشيء الوحيد الذي يجعلكَ مهمًا هو أنّك ابن عبد المحسن العظيمي، قيمتك الحقيقية تأتي من أبيك الذي يعارض كل ما تدعو إليه، و"راح أذكرك".. في وسعه الآن أن يقول: "ما قلت لك؟" لقد تحقّقت النبوءة؛ المردم دخل القفص بجناحيه. المردم صاحَ حتى اكتشف الجميع مكانه. لا يريد أن يرى وجه أبيه في المحكمة. لا يريد أن يرى وجه هزيمته، لا في المحكمة ولا خارجها. لا أريد أن أراه، لا أريد أن أراه.. كان يردّد، لكنه في مكانٍ سحيق العمق بداخله، كان يتخيّل والده، وهو يتصدّعُ من الألم. يتخيّله يقتربُ من قفص الاتهام ويخبره أنه أوكل محاميًا ممتازًا لإخراجه من هذه الورطة، ويقسم له أنه لن يترك ولده يتعفّن في عنابر أمن الدولة، وأن الكلابَ سيلقون جزاءهم، وأنَّ كل شيء سيكون على ما يرام.

عندما خرج إلى المحكمة في صباح اليوم التالي، كانت الأصفاد تحتكُّ بكاحليه وتؤلمه مع كل

خطوة. في البداية أوقفوه مع بقية السجناء، ثم فُصِل عنهم في باصٍ خصّصوه لمعتقلي أمن الدولة. أخذه الباص إلى مبنى قريب من بوابة السجن، تسارعت ضربات قلبه وهو يرى فرقةً خاصة مدججة بالسلاح تأتي لتولي عملية نقله إلى قصر العدل. لم يكن جاسم يشعرُ بخطورته، ولم يفهم، حاجتهم إلى كل هؤلاء الأفراد الملثّمين، بتلك الرشاشات، من أصحاب الرُّتب. اقتربَ منه مسؤول الفرقة يسأله:

– شلونك زين؟

– زين.

– متعوّر؟

– لأ.

– افتح حلجك.

يفتحُ فمه. ينظر الرجل فيه ثم يومئ. يضع الأصفاد في يديهِ ويقوده إلى عربة يوكن تركنُ قريبة. وجد نفسه يمشي محاصرًا بفرقة من القوات الخاصّة؛ واحد يقود، الآخر على يمين السائق. اثنين على جانبيه، والأخير خلفه. أحصاهم في رأسه؛ خمسة أفراد، أربعة رشاشات، وسجينٌ واحد. بعد لحظاتٍ انطلقت السيارة إلى قصر العدل، وفوجئ جاسم بالموكب المرافق؛ سيارتي يوكن، مدرّعة، ودورية شرطة. هل ترعبهم الكتابة إلى هذه الدرجة؟ حاول ألا يفكّر في الرجال الملثمين وأن يركّز في الجلسة القادمة. في الوجوه التي سيراها بين الحضور؛ هل سيرى دانة؟ مرَّ شهرٌ دون أن يراها. يكاد قلبه ينخلع من مكانه.

عندما أدخل إلى قاعة المحكمة، في الطريق إلى القفص، كانت عيناه تفتّشان الوجوه. لمح أمّه، براك، وصاحبه نايف. مسح الوجوه مرارًا يفتّش عن والده ولم.. ثمَّ رآها تجلس في الصفِّ الأخير، عيناها مثبتتان على وجهه، شاحبة، منطفئة، وتبتسمُ من أجله. كانت ترتدي معطفها الأسود الذي تخصصه لأيام المزاج النكد وأسبوع دورتها الشهرية، تعقصُ شعرها في كعكة كبيرة، نظاراتها الشمسية مثبتة على رأسها، ويداها الصغيرتان تقبضان على حقيبة يدها الخضراء، ورغم أنه لم يلمح ركبتيها إلا أنه عرف أنهما ترتجفان. ابتسم. لقد رآها ورأته، وأحسَّ بدموعها تترقرق في عينيه، وقرّر أن أول شيء سيفعله بعد إطلاق سراحه هو أن يتقدم لخطبتها، حتى لو اضطر لأن يطرق بابها وحيدًا.

دقائق ورأى شقيقه وأعمامه يغادرون مبنى المغيسل، باتجاه سياراتهم. أشار إليه برّاك ليركب معه. ألقى بسيجارته وتبعهم خببًا، شاعرًا بضرورة أن يكون شاهدًا على كلّ ما سيأتي. ترى، هل ستصدّق الأمر الآن؟ عندما تضع جثة والدك في اللَّحد، وتغلق عليه بالطوب، وتلقي عليه بالرَّمل والحصى، وترشَّ الماء على سطح قبره.. هل ستصدّق رحيله؟ عندما تدفنه بنفسك وتدفن معه الصوت المستحيل الذي ما فتئ

يردّد بأن عبد المحسن العظيمي لا يمكن أن يموت، هل سيموت؟ كنت تريد دفنه كما لو كنت تريد قتله. ركبت السيارة إلى جانب أخيك ونظرت إليه، إلى عينيه الحمراوين وأنفه المتورّم. كأنّه لا يكتفي من البكاء. الابن البار، الكامِل في جميع وجوهه، بفضله يبدو عقوقك استثنائيًا. برّاك أيضًا هو فكرة أكثر منه رجلًا، فكرة يجلدون بها ظهرك على الدوام.

طبطبَ جاسم بيده على كتف شقيقه، وفكّر في كل الكلمات التي يمكن للمرء قولها في موقفٍ كهذا، ولم يجد. عوضًا عن ذلك سمع شقيقه يسأله:

– إنت زين؟

ضحك جاسم..

– ما في خيارات؟

أحسَّ بيد شقيقه تضغط على كتفه، زمّ شفتيه وهزَّ رأسه:

– ربّك كريم.

سارت السيارة خلف عربة نقل الموتى، تحمل جثمان أبيه إلى قبره. وبدلًا من أن يفكّر جاسم في المشنقة، بزغت في أعماقه ذكرى قديمة، صافية، زرقاء، ليوم صيفي انقضى منذ عشرين عامًا، عندما كان والده يعلّمه صيد السمك لأول مرة. كان في تاسعته، يقطّع مصران الدجاج بسكّينه ويزرعها في الخطاف ويلقي بها في الخليج، أمام عيني والده؛ الحدّاق العتيد الذي يمسكُ خيط الصَّيد بيده، والسيجارة في فمه، ويدندن مع عالية حسين؛ يا شِراعًا يتهادى.. الذكرى التي كان يأمل العثور عليها منذ بلغه خبر الوفاة، التي فتّش عنها طوال ساعات سفره بالطائرة، الذكرى التي بحث عنها في غرفة نوم والديه، وتحت رشاش الماء الساخن في الحمام، وأمام دولاب الملابس العتيق. الذكرى التي كان يتمنّى، من صميم قلبه، أن يجد لها أثرًا، تفجّرت في أعماق عينيه، وصار جسده كله يختضُّ من فرطِ النشيج.

3

عندما اصطفَّ الرِّجال لصلاة الجنازة، وقف جاسم إلى يمين برّاك وأدّى التكبيرات على أتمّ وجه. عدا ذلك، لم تكن لديه أدنى فكرة عما ينبغي قوله بين التكبيرة والأخرى، ولم يجد ذلك مهمًا. فالمهم هو المحافظة على الشَّكل الناصع لجنازة عميد عائلة العظيمي. إلى جانب ذلك، فقد بدأ الشكّ يراوده، وهو يتذكّر يد والده تزرع الطُّعم في خطّاف الصيد، وتلقي به في البحر. ترى؛ هل ما زال يريد دفن أبيه، كما لو أنّه يريد قتله؟

تناهت إليه همساتُ برّاك بعد التكبيرةِ الثالثة؛ اللهم اغفر لحيّنا وميّتنا وشاهدنا وغائبنا، فأحسَّ بوهنٍ في قلبه وثقلٍ في لسانه. حاول أن يتذكّر آخر مرّة ابتهل فيها، ووجد أنّه يتذكّر الأمر على نحوٍ محدّد. كان ذلك في السِّجن، وتحديدًا، قبل الحبس الانفرادي؛ في "الصَّاجة" كما تُدعى. منذ ذلك اليوم، أصبحت هناك لحظة فارقة في حياته؛ لحظة ما قبل الصاجة، ولحظة ما بعد الصاجة. أما لحظة الصاجة ذاتها، لحظة الصدق، فهو يفضّل أن يتصرّف وكأنّها لم تحدث قط.. كأنّه لم يفقد عقله تقريبًا، بين خيوط النمل، وسط كل ذلك الصّمت. أحسَّ وقتها أن الكلمات التي تخرج من فمه، تسقط بين قدميه. رآها تهتز وتلفظ أنفاسها الأخيرة، مثل صيصان الزرازير التي تهوي من أعشاشها. ترتطمُ بالأرض وتنزف من مناقيرها الصّغيرة حتى الموت. كان ذلك في اليوم الخامس من الحبس الانفرادي، عندما فقد قدرته على الدّعاء، وكأنَّ إعاقةً أبدية قد لحقت به. ورغم كل الشكوك التي ضجَّ بها قلبه، إلا أنه لم يشك للحظة، بأن الرّب في السماء لن يتدخل لإنقاذه. منذ ذلك اليوم لم يبتهل، لئلا ينفق صوصٌ بين قدميه.

سلّم المصلّون بعد التكبيرة الرابعة، ثم ساروا متوجّهين للقبر. تبع شقيقه وأعمامه ليشارك في حمل النعش. كان قلبه يدوّي، لكنّه فكّر بأنّها فرصته الوحيدة لقتلِ أبيه، وأنه إذا ما فرّط بها الآن، فسيبقى مطوّقًا بحبل المشنقة إلى الأبد. عليهِ أن يقف في المقدمة، أن يرصفَ الطوب ويكيل الرّمل ويرشّ الماء. عليه أن يقود عملية الدّفن بنفسه. حمل النّعش مع شقيقهِ وأعمامه، وساروا بين عددٍ من القبور المفتوحة، وصولًا إلى القبرِ الصّحيح. هذا هو. أشار الدّفان. نزل برّاك إلى القبر، فأحسَّ جاسم بالوهن يداهمه، كأنَّ مفاصله ستنخلع من جسده. كان يطبق قبضتيه على قدميّ الجثمان، ليتسنى لأخيه إنزاله إلى القبر.

مدّد برّاك الجثمان في اللّحد، على جنبه الأيمن، وأرخى عنه أربطة الكفن. «اكشف وجهه يا يبه». نادى أحد أعمامه. جثا برّاك عند رأس الميت وكشف وجهه، أراح خده على التراب. كان شاحبًا، ميّالًا إلى الاخضرار، مرتخيًا بشكلٍ لا يشبهه؛ لا يشبه مقالاته ولا نوبات غضبه ولا جبينه المعقود لحظة يثبّت

الطعم بالخطّاف. وفكّر جاسم أنَّ الحي والميت شخصان مختلفان. قبّل براك جبين والده للمرة الأخيرة، ثمّ رفع عينيه إلى أخيه يدعوه ليفعل مثله. أحسَّ بيدِ عمه تحطُّ على كتفه؛ «ودّع أبوك يا يبه». نظر إلى عمّه ذاهلًا؛ هذا ما لم يحسب حسابه، أن ينزل إلى القبر ليقبّل جبين الجثة. لا يستطيع إتيان ذلك، فهو يعرف ما يستطيعه وما لا يستطيعه. بوسعه أن يحمل اللَّبنات، أن يلطَخَ الطين، أن يكيل التراب، ويرشَّ الماء. يستطيع، ويريد، أن يفعل كل ما ينبغي فعله ليتأكد من بقاء الجثة في قبرها إلى الأبد. لكن ليس أن ينزل إلى ذلك القبر، وأن يقبّل ذلك الجبين. تشنّجت قدماه. أخذت يد عمّه تدفعه برفق. انزل إلى القبر وقبّل رأس أبيك. أنت ابنه مهما حدث. هل هذا صحيح؟ لماذا لم يأتِ لزيارتي في السجن، ولا حتى مرة واحدة، مرة واحدة لكي يشتمني ويشمت بي على الأقل؟ لماذا صمت لأربع سنوات؟ لماذا لا يسعهم أن يفهموا الوضع كما هو؟ لا يستطيع المرء أن يقبّل جبين إنسانٍ يتمنّى موته. لا يستطيع المرء أن يقبّل جرحه الخاص. أحسَّ بأعينهم مصوّبة نحوه. أعين كثيرة، بليغة، مشرّعة على الإدانة؛ ها أنتَ مرة أخرى.. ابن السوء، الذي لطّخ جبين والده بالعار. ولد العظيمي الذي صار ابنًا للشوارع. الكاتب الوقح، الذي ينتقد السلطة ويزدري الأديان ويقوّض هيبة الدولة، وأسوأ؛ يخوض حربًا مقالية ضد أبيه. لقد أسأت لأبيك بما يكفي في حياته، فهل تهينه في موته أيضًا؟ كن ولدًا عاقلًا لمرة واحدة يا جاسم، انزل إلى القبر، قبّل جبين أبيك، واعتذر منه على كلّ ما فعلت. أنت مدينٌ له، ولنا، باعتذاراتٍ كثيرة، وإذا أردنا الكفَّ عن تلطيف الحقائق، فأنت تعرف أنك قد كسرت قلبه، ولعلّك أيضًا قتلته. أنت تعرف أن عبد المحسن العظيمي ما عاد عبد المحسن العظيمي منذ اقترفت ذلك الشيء الفاضح الذي يسمونه الكتابة. أنه ما عاد يصيد السمك، ولا يكتب المقالات عن خفافيش الظلام وسرّاق الوطن وأطفال السياسة، ولا يكرّب البرحية. كانت الأعينُ كلّها مصوّبة إليه، فأخذ جسده يرتعد، وهو يسمع أصواتهم تسيل تحت جلده، تهدرُ بالإدانة. نظر إلى عمّه، فرأى في عينيه نفاد صبره. لقد أثبت عدم جدواه. لكنه إذا تراجع الآن، إذا لم يقدّم دلائل البرّ والطاعة، كيف سيتمكن من المشاركة في دفنه؟ سيكون عليه أن يقفَ في الصَّفِّ الخلفي، ليراقب الأمر من بعيد، ولن يتسنى له أن يدفن جثة الرجل الذي يتمنى قتله، وهو لا يثق بهذه الجثة، فلا أحد يعرف عبد المحسن العظيمي مثله، وهو على ثقة أنه، عندما يقرر ذلك، سوف ينهض من موته ويعود إلى الحياة، كأنَّ شيئًا لم يكن. لا، يجب أن ينجز الأمر بنفسه، أن يتأكّد بأن هذا الجسد المسجى في اللحد، بعينين مغمضتين وشفتين مرتخيتين، سوف يبقى تحت الأرض. حاول عمّه أن يزيحه من أمامه برفق ليتمكن من النزول، أبعد يد عمّه عن كتفه، مدَّ يده إلى شقيقه يسحبهُ خارجًا. وبقدمٍ مرتجفة نزل إلى القبر. قرّب وجهه من الميّت. ولأوّل مرة وجد نفسه يسأل؛ ما الذي فعلتهُ بي، وما الذي فعلتهُ بك؟ انظر إلينا يا أبي. نحن حطام. حاول أن يسترجع تلك الذكرى الزرقاء التي تفجّرت في أعماقه قبل قليل؛ ذكرى اليد التي تغرس الطعم في خطّاف الصيد وتلقي به في الخليج. بدت لحظة نائية، كأنّها حدثت لشخصٍ آخر. كان مقتنعًا أنّها لا تخصّه. حاول أن يقترب من جبين الميت، لولا تلك الفكرة التي صارت تقرع طبولها في

رأسه. طبولٌ مدوية، ملحّة؛ ليست هذه هي الجنازة التي يفترض بك حضورها، وليس هذا هو الميّت الذي تريد أن تبكيه.

نكّس رأسه، وبكى.

بكى من كلّ قلبه..

بكى ميّتًا آخر.

تلثّم بغترته وراح ينشج، كتفاه يهتزّان طويلًا ونحيبه يتعالى. «خلاص يا يبه». عمّه يناديه. أعمامه أحاطوا بالقبر. يمدّون إليه أياديهم لانتشاله. «تعال يا يبه». لم يعد أحد يطالبه بتلك القبلة. لقد نشج على نحوٍ جيد، وبرهن على صلاحهِ.

عندما بدأ المشيّعون في رصف اللبن على اللَّحد، كان جاسم في المقدمة. حتى إنه عاود النزول إلى القبر ليرصف اللّبنات. لم يشعر بنفسه وهو ينادي، بصوتٍ جهور؛ عطوني طين! كان العرقُ يسحُّ من جلده وكانت الدشداشة قد تلطّخت بالماء والرّمل. عندما جلبوا له الطّين، أخذ يقذفه بقوّة على الشقوق بين اللبنات. يسدُّ جميع الفُرج التي يمكن أن يتسلل منها الهواء إلى اللحد، ومنه إلى رئة الميت، ليعيده إلى الحياة.

كان قابضًا على الطين بيديه، متأهّبًا للطخِهِ على اللبنة الأخيرة، عندما رفع عينيه إلى أعلى، ولمح بين وجوه المشيّعين وجهًا يعرفه. هل تخيّل الأمر أم أن هذا فعلًا.. نايف؟ تسمّر في مكانه والطين في راحتيه، يرمق صاحبه غير مصدّق. كان نايف يقفُ في آخر الصف، يراقبه بعينين ضاحكتين، هل تخيّل الأمر، أم أن نايف فعلًا قد ابتسم؟ في تلك اللحظة أحسَّ أنّ من بين عشرات المشيّعين من الأهل والأقارب، ثمة رجل واحد يرى الأمر على حقيقته؛ ابنٌ يحاول قتل أبيه. وعلى نحوٍ أخرق، ينمُّ عن غباء سياسي مؤكد، ابتسم جاسم، ولَطَخَ كتلتيّ الطين على اللبنة الأخيرة، ثم خرج من قبر أبيه كالخارج من الموت، واحتضن صاحبه..

4

يقف جاسم إلى يمين برّاك، بدشداشة معفّرة بالتراب، وغترة ألقاها على كتفه، ليتلقّى تعازي الرّجال الذين توافدوا إلى صالة المشيّعين في المقبرة، وملأوا المكان حتى أطرافه. القاعة فسيحة، مسقوفة، تعاقبت في أطرافها المقاعد الخشبية، وأرفف حمّالة لكتيّبات الأذكار، ومنشوراتٍ آداب الجنازة وعذاب القبر. على الشاشة الإلكترونية السوداء أعلى طابور المعزّين، كان اسم الراحل يضيء. اختلطت الروائح في هواء المكان؛ دهن العود والعرق والغبار العالق بالشُّمْغِ والغُتَر لمن حضر الدّفن. هناك أيضًا آثار التدخين في الأنفاس، وهناك دائمًا رائحة الموت.

عندما امتلأت صالة المشيّعين بالرّجال حتى آخرها، ولم يعد بمقدور جاسم أن يرى آخر الصّف، أحسَّ أنَّ في الأمر خطأ؛ لماذا جاء كلّ هؤلاء؟ هل يعرفون جنازة مَنْ هذه؟ أرسل عينيه في الوجوه، باحثًا عن صاحبه، وخمّن أنّه واقف عند مدخل القاعة، يدخّن السيجارة الرّابعة. أو الخامسة، أو لعله، الوغد، قد بلغ السادسة، غير مكترثٍ بنظرات الاستنكارِ من المعزّين. يريد أن ينضمَّ إلى نايف، مكانه ليس هنا، خاصّة عندما امتلأت القاعة بكبار الشخصيات. يريد أن يخرج، فهو يعرف نفسه جيدًا؛ سليل التجّار وابن الأرصفة، «ولد لِعظيمي» الذي يحمل في دمه لوثة الصعاليك. شقيقه يلكزه؛ وزير النفط.. يعرف جاسم هذا الوزير، يعرفهم جميعًا، الوزراء، نواب البرلمان، رؤساء الصحف، التجّار. لقد كتب عنهم مقالات رنّانة حتى قرّروا سَجنه. «راعي أصول». تمتمَ ساخرًا. كيف يتبيّن المرء الخط الفاصل بين الأصول والنفاق؟ فحتّى عندما كان والده في قمة اصطفافه مع الحكومة، كان يكره هؤلاء فردًا فردًا؛ فلماذا جاؤوا؟

تراه هو الذي لا يعرف والده، أم أنّه الوحيد الذي يعرفه؟ من بين كل الوجوه التي رآها ورأته، رأى الذين تحوّلوا، في فمِ أبيه، إلى مهرّجين وخونة وأبناء عاهرات. الذين سمع والده يهينهم في شرف أخواتهم، ويطعنهم في رجولتهم. كانوا كلهم، بحسب أبيه، قوّادين وأوغادًا وأبناء زنا، مع فروقات فردية في الرّتبة. توافدوا من كل مكان، لحضور عزاء الرّجل الذي طالما كنَّ لهم عميق الاحتقار.

وجد جاسم الأمر مسليًا، وصار يحاول، كلما رأى وجهًا، أن يتذكّر اللقب الذي أطلقه والده عليه؛ الحرامي، المهرِّب، الطَّرطور.. ولأول مرة، ومنذ سنواتٍ طويلة، وجد نفسه يتّفق مع أبيه في أمرٍ ما، لقد كان يحتقرهم أيضًا.

بعد أربع سنواتٍ من الانقطاع عن الكتابة، لم يتوقع أحد أن تضجّ المقبرة بكل هؤلاء. لقد نسي

الجميع عبد المحسن العظيمي طوال أربع سنوات، وتذكّروه عندما مات. لم يعد أحدٌ يستحضر مقالاته، وكلماته الرنّانة عن «البلد المختطف» و»خفافيش الظلام»، و»الخريف العربي»و «رعاع ساحة الإرادة» و»أطفال السياسة».. بقدر ما يتذكر الجميع مقالة الولد السيء التي دمّرت كل شيء، المقالة التي كسرت قلب أبيهِ، وقلمه. أربع سنواتٍ من الصّمت، والمنطقة في غليانٍ سياسي، وعبد المحسن العظيمي لا يكتب. من كان يتوقع أن يكون فقيدًا إلى هذا الحد؟ عظم الله أجرك، يردد المعزون لأخيه. أجرنا وأجرك. رحمة الله عليه. ينظرون إلى جاسم، عينان ناضحتان بالتذكّر، يمدُّون أياديهم في مصافحةٍ باهتة، ثم يتجاوزونه إلى أعمامه.

يتذكّر جاسم الألقاب التي حصدها والده في سنوات كتابته؛ القَلم العَلم. صوت الحقيقة. عميد الكتّاب. الكاتب المسطرة، الذي «يسمّي الأشياء بأسمائها». هذا ما يقوله الجميع، رغم أن جاسم متأكّد أن للأشياء أسماء أخرى، ولكن الذي يسبق الآخر في التسمية هو الذي يفوز على ما يبدو.

كثيرًا ما سمع والده يردّد أنَّ مهمّة الكاتب هي أن يقول ما لا يحبّ النّاس سماعه، أن يكتب لكي يُزعِج. وهو.. افتُتن بالأمر تمامًا. لكنه على عكس أبيه، كتب كي يعرّي الأشياء من أسمائها، وكان عبد المحسن العظيمي هو أول المنزعجين. كلّ النعال واللعنات التي تساقطت على رأسه، وأجهزة الريموت كنترول وقشور الفستق.. كلّها لأجل ماذا؟ لقد قام بالأمر كما ينبغي؛ لقد كتب ما لا يُقال. ما زال يذكر لحظات وقوفه أمام وكيل النيابة وهو يتلو عليه جملة التهم المنسوبة إليه؛ «أنك متّهم بالتحريض علنًا عن طريق الكتابة على قلب نظام الحكم». حتى هو لم يتوقع أن يكون قادرًا على ذلك. وفكّر يومها، ماثلًا أمام المحقق، بأنه لا بدَّ وأن يكون قد كتب مقالاتٍ جيدة، لكي ينتهي به الأمر مصفّد اليدين، في عنابر أمن الدولة. وتساءل في قرارته، إن كان والده في أعماقه، فخورًا به؟

وفيما وكيل النيابة يتلو عليه التّهم المنسوبة إليه، وجد أن الأمر يصعب تصديقه. «تجيك التهايم وانت نايم»، فكّر. شبه نائم في الحقيقة، كان في طريقه إلى «المصبغة» القريبة لاستلام «غترته» مكوية ومنشاة، عندما تردّد في الفضاء نباح صلبوخ. تلفّت جاسم حوله ليجد نفسه أمام موكب سيارات أمن الدولة؛ كامري، أربع سيارات يوكن، وسيارة أخرى لا يذكرها. لقد جاؤوا من أجله أخيرًا. ما زال يذكر الهيئة التي كان عليها لحظة اعتقاله؛ نعل مطاطية زرقاء، بنطلون رياضي أسود، وبلوزة برتقالية كتب عليها بالإنجليزية؛ «قد أكون على خطأ، ولكنني أشك في الأمر». لم تكن تلك هي الهيئة المثالية للاعتقال. وفكّر وقتها أن على المرء أن يكون دائمًا بكامل أناقته، فهو لا يعرف بالضبط متى سيتم إلقاء القبض عليه. كان أوّل ما تبادر إلى ذهنه ما إن رأى المركبة أن يحذف المحاورات النصية من جهازه، وأن يرسل تغريدة تفيد اعتقاله على تويتر، لكن الوقت لم يسعفه إلا لحذف محادثته مع دانة. عندما طوقوه، طلبوا منه تسليم نفسه، ونزعوا منه أشياءه؛ محفظته، هاتفه النقال، علبة سجائره وقدّاحته. فيما هم ينتزعون منه كل

تلك التفاصيل أحسَّ بالهشاشة تعتريه، وشعرَ بعريٍ غريب. رفع يديه فوق رأسه محاطًا بالمسلّحين. خرجت أمّه تولولُ، بثوب صلاتها، إلى عرض الشارع؛ «لا تخافين يمّه»، طمأنها: «ماكو إلا العافية». فُتِح باب البيت ورأى والده يخرج إلى الحوش، يقف أعلى الدرج، أمام المدخل، لينظر إلى الأصفاد في يديه، بعينين حمراوينِ شاسعتين. كان قد توقع أشياء كثيرة في موقفٍ كهذا، كأن يذكّره بكلامه، أن يردّد عليه «ما قلت لك؟» وأن يشمت به «خل ربعك ينفعونك ألحين». كانت هناك احتمالات كثيرة لرد فعل أبيه، ربما من بينها يقبع ذلك الاحتمال الضئيل بأنَّ قلبه سيرق، وأنه سيقترب من قوات أمن الدولة ويحاول معالجة الموقف. لكن شيئًا من ذلك لم يحدث. كانت عيناه الحمراوان، الفارغتان، هي آخر شيء رآه جاسم عندما غطت عينيه العُصابة السوداء، وجذبوه إلى داخل المركبة. عينان حمراوان مشرّعتان على الفراغ، في وسع المرءِ أن يهوي فيهما إلى الأبد.

كيف اختلفا إذن؟ يتذكّر خلافهما الأوّل على نحوٍ ضبابي، كانا جالسيْن على طاولة الغداء، حين راح والده يسخر من بيان إحدى التجمّعات؛ «يقولك الحكومة تعدّت على الحريات وصادرت الرأي».. ينخر؛ «ما بقى إلا هالأشكال تعلّمنا الحرية». كانت أمّه تضع في صحنه قشرة «حكّوكة» الأرز التي يحبّها، وتسكب له، فوق «العيش المحمّر» كثيرًا من مرق السَّمك الثخين. ومع الماء والتّمر، وأواني المهلّبية المزينة بالفستق المبشور، لم يشعر برغبة في محاورته. ربّما لا يصح أن يسمّي ذلك الموقف «خلافهما الأوّل»، إذ اكتفى يومها بأن يخالف أبيه داخل رأسه، حتى لا يفسد على نفسه متعة الغداء، وخطر له أنه قد لا يضطر إلى محاورته أبدًا؛ في وسع الأشخاص الذين يختلفون فيما بينهم أن يعيشوا بسلامٍ تحت سقفٍ واحد. سوف يحتفظ بأفكاره داخل رأسه، ويكتب والده أفكاره في الجريدة، وينعم الجميع بلحظاتِ أكل المحمّر مع مرق السمك بسلام. فهذا بلدٌ ديموقراطي، أو شبه ديموقراطي، وفي وسع المرءِ ألا يلوّث حياته العائلية بالسياسة.

احتدم الخلاف بينهما عندما بدأ جاسم في الكتابة. عندما دشّن مدونة «طرزان» ووضع ثقله كله في صفِّ الحراك المناهض للسلطة. في تلك الأيام، كانت السياسة تزحفُ إلى كلّ الكلام، وصار والده يستغلُّ وجوده على طاولة الغداء لتبدأ المناظرة، التي تنتهي غالبًا بصراخ الاثنين، مغادرة أمّه باكرًا، وبشيءٍ يقذف على وجهه. في البداية، كان الحوارُ يتسم بحدٍ ملموس من العقلانية؛ إذا صبَّت مصالحنا مرحليًا مع مصلحة السلطة فيجب ألا نخجل من ذلك. لم يكن يفهم كيف يمكن لعبد المحسن العظيمي أن يقول شيئًا كهذا. «إنت تقول چذي يبه؟ غيرك شيقول؟» يردّ والده؛ الموقف السياسي براغماتي، مرحلي.. إذا اعتبرنا مصلحة الوطن غاية فإنَّ الشيء الصحيح فعله هو أن تصطف مع السلطة. السلطة؟ يصرخ؛ «نسيت مواقف السلطة؟ نسيت دواوين الاثنين؟ نسيت حل البرلمان؟ نسيت تعطيل الدستور؟ نسيت مراقبة الصُّحف؟» يزفر أبوه بضيق؛ الأحكام السياسية هي دائمًا أحكام مقارنة. يهز رأسه؛ كيف يمكنك أن تقول

أمرًا كهذا، أنتَ من بين الجميع، أنتَ الذي كتب عن الديموقراطية الناقصة، والتآمر ضد الدستور، أنت الذي طالبتَ بالمشاركة السياسية، أنت الذي اعتقلتَ وضُربتَ بالهراوات أيام الدواوين، أنت ال.. يلقي والده بالملعقة من يده؛ يجب أن تفهم أن البديل الذي تحارب من أجله أسوأ ألف مرة من كل شيءٍ حاربنا ضدّه. يقاطع والده؛ أليست هذه هي الديموقراطية؟ يعلو صوت أبيه؛ لا يمكنك أن تنتزع الديموقراطية من سياق الحرية. و»ربعك الهيلق» اختزلوا الديموقراطية في صندوق انتخاب. ماذا عن الحريات الخاصة؟ حقوق الأقليات؟ يقاطع والده؛ ومتى كانت السلطة هي حامي الحرية؟ ها؟ يدفع كرسيه إلى الوراء، ينهض؛ تحالف مع السّلطة إذن، تحالف مع الطرف الذي ضخ أموال الفساد، الطرف الذي يسعى لتغيير قانون الانتخاب.. يقاطعه؛ السلطة رفضت قانون إعدام المسيء. السلطة عارضت الاتفاقية الأمنية الموحدة. السلطة دعمت حقوق المرأة.. السلطة! انظر لنفسك، يقول مشيرًا إلى أبيه؛ العم عبد المحسن العظيمي، لقد أصبحت كاتب بلاط! في تلك اللحظة قذف والده الكأس المليء بالماء، انكسر الكأس على الجدار خلفه، وانكسرت معه كل الأشياء.

يتذكّر جاسم الآن. في مساء ذلك اليوم اتصل بدانة وهو يشهق؛ لا تسمحي لي للحظة بأن أتحوّل إلى أبي. إيّاك أن تسمحي بذلك. جاسم شصاير؟ كانت ترى دموعه في صوتِه. أنتِ لا تفهمين، قال لها؛ لقد خان نفسه.

نظر إلى برّاك، مستقبلًا التعازي في مقدّمة الصف، والحزنُ ينضحُ من عينيه. أجرنا وأجرك. كان يردّد بوجهٍ مصفرٍّ، مكروب، وهو يستقبل طبطبات المعزّين على كتفيه. لم يربّت أحد على كتفِ جاسم، لقد اكتفى الجميع بمصافحةٍ باردة، ونظرة مرتابة. أحسَّ جاسم بأنهم قادرون على رؤيته كما هو؛ قاتل أبيه الذي جاء ليمشي في جنازته. أحسَّ بنفسه يختنق، عاجزًا عن التصدّي لهذا الحشد الذي لا يكفُّ عن التواتر. لمح صاحبه يدلف القاعة من مخرج المعزّين، تلاقت أعين الاثنين، وحرصا هذه المرّة ألا يبتسما. اقترب منه نايف وهمس؛ أنا رايح، بس تخلّص أمورك اتّصل. أومأ جاسم:

– تم.

الفصل الثالث

عنبر الإيرا د

1

ملأ جاسم رئتيهِ بالهواء البارد، عندما وجدَ نفسَهُ جالسًا على الرّمل، أمام البحرِ، على يمينِ صاحبه. السّاعة تجاوزت العاشرة والنِّصف ليلًا، وصار في وسعه أخيرًا أن يتخفّف من عيني أخيه، نداءات أعمامه، ودموع أمّه. كانت الكويتُ تطوّق عنقه، وكان كلما أغمض، تراءت له تلك الهيئة النائية، الرَّمادية، للرَّجل الذي ارتخى فكّه واختفت الغضونُ من جبينه؛ الرَّجل الذي يزعمون أنهُ والده، لولا أنه وحده يعرفُ، على ما يبدو، أن الحيَّ والميت شخصان مختلفان. لا يمكن لأبيه أن يسمح لأحد بأن يدسَّ أصبعهُ في منخريه، ولا يمكن لأبيه أيضًا أن يسمحَ له بأن يقبّل جبينه، حتى لو أرادَ ذلك.

كانت أضواء المدينة الصَّفراء تترقرق على ليل الماء، وكان بإمكانه أن يرى الأنوار الخافتة لمراكِب الصَّيد، توهّجات النجوم، ونصف قمر. أشار نايف إلى إحدى النجمات وأخبره أنَّ هذه.. هذه هناك، هل تراها؟ هذه هي الشِّعرى اليمانية. وابتسم جاسم، لأن معرفة أسماء النجوم لا تعني شيئًا، ولا أحد في يومنا هذا، يستدلُّ على طريقِهِ في الأرض، بالنظر إلى السماء. لقد افترقَ العالمانِ إلى الأبد، وصار على البشر الذين يملؤون الأرض كالقمل والبراغيث، أن ينظروا إلى تحت.. دائمًا تحت. إن كان ثمة إجابة، فهي تحت. وهو لم يفهم قط، هوس البشرية في حفظ الأسماء، وإطلاق التسميات؛ تسمية الأشياء بأسمائها، وضع النقاط على الحروف، وكل هذه الترهات. من أجل أي شيء؟ يظنون أنك إذا سمّيت الشيءَ سيصبحُ له معنى. ما معنى كل هذا الرّكض وراء المعنى؟ لا يفهم. لا والدهُ الذي كتب ليسمّي خصومه "خفافيش الظلام" و"أطفال السياسة" و"الطارئين على الأرض"، ولا دانة التي تحاكم صمته وصيصانه التي تنفق بين قدميه، ولا صاحبه الذي يحفظ أسماء النجوم. وفكّر لحظتها بأنه لو كانت هناك جنة، فهي، بكل تأكيد، عالمٌ بلا أسماء.

كان البرد ينفذُ عميقًا، من مسامِ الجلد وحتى أعمق أخدودٍ في القلب. نايف يرتجف تحت عباءة الصُّوف، يعيد لفَّ رأسِهِ بشماغه الأحمر. دسَّ يديه في جيبي سترته، وغطى رأسه بقبّعة السترة. صار معتادًا على البرد، في القلبِ وفي العالم. نايف يفركُ يديه ببعضهما، يهمهمُ أنَّ هذا الشتاء أبرد من سابقه، وأن كل شتاءٍ بات يجيء أبرد من سابقه، وبالمثل فإنَّ كل صيفٍ يجيء أشد قيظًا مما قبله، وهو الأمر الذي جعله يصلُ إلى استنتاجٍ عامٍ مفاده؛ أنّ العالم إلى هاوية. قال ذلك وهو يدفنُ عقب سيجارته في الرّمل، إلى جانبِ عقبٍ آخر. رسم قوسًا أسفل العقبين وصار على الرّمل وجه يبتسم، رغم أنَّ العالم إلى هاوية. جاسم أيضًا ابتسم. تذكّر شتاءات لندن، أرصفتها المبتلة، شوارعها الرمادية التي تمتصّه وتبتلعه،

جلوسه الطويل أمام بحيرة الهايد بارك، ومشيهُ العبثيُّ بين محالِّ الأنتيك في شارع بورتبيلو. لقد نسي كيف يكون شتاء الكويت. عبَّ نفسًا عميقًا. امتلأ صدره برائحة الملح، والرّمل، والأصداف.. وفكّر بأن هذه، على الأرجح، هي الرائحة التي تحوي في داخلها كلّ العالم؛ رائحة البحر، رائحة المرأة التي تتهيأ للحُب.

تذكّر نفسه. عندما كان الشوق يغلبه إلى الخليج، كان يذهب إلى الكامدن لوك، ويجلسُ على طرفِ النّهر، وفي يدهِ علبة مليئة بالفلافل والشطَّة الحارّة والجبنة البيضاء. سلطة فلافل، مع زجاجة بيرة، والسماعتان في أذنيه لكي تغني له عالية حسين الأغنيات القديمة التي يحبّها. متربّعًا على الضِّفة، يراقب عبور المراكب وحفيف الصَّفصافة على الجسر المقابل. في مكانه ذاك، كان يشتاق رائحة البحر، رائحة المرأة التي تتهيأ للحُب؛ كان يشتاق إلى دانة.

"غنّى لچ البحّار بعيون ولهانة

قال الصّدر محّار وكويتنا الدانة".

كان يدندنُ مع عالية.

يتذكّر اتصالها بعد لقاء الكنيسة الأخير. يتذكر كل كلمة؛ أنتَ تتصرّف وكأنّك الوحيد الذي دفع الثمن. كانت تقول. زَفَرَ؛ دانة، لا تجعلي الأمر أصعب عليّ. ولماذا تجعله أصعب عليَّ جاسم؟ أسئلتها تطوّقه. ما الذي تريدينه؟ خرج صوتها مشروخًا؛ أعرفُ أن الجميع خذلك، ولكن أنا لم.. أنا لم أقل ذلك. أنتَ لم تقل شيئًا. تُرى، ما الذي كانت تنتظر أن يقوله؟ هل يمكن أن تكون الكلمة ذاتها، الكلمة الكسيحة، التي يخاف إن قالها أن تسقط بين قدميه، مثل جثةِ صوصٍ نافق؟ أحسَّ بنبضات قلبه تتسارع؛ ما الذي تريدين مني قوله؟ زفرت. صمتكَ يُدينك جاسم، مثل كلامك. ضحك؛ أنتِ أسوأ من المباحث. وأنتَ أسوأ من الحكومة! دانة إللي صار أكبر منّي. أليست هذه كلمات أبيه؟ وهي، لم تجد ما تقوله. صمتت، وكان صمتها يشبه حاقّة الأشياء. هذا زمن الإنترنت دانة، في الكويت، في لندن، سنكون معًا. لا! ردّت بحدّة؛ أنا لن أراك على شاشة كمبيوتر، ولن أعيش معك في تطبيق ذكي، أنا لن أقضي عُمري بين أجهزة لعينة أتحسّس أخبارك وأرى صورك وأتساءل لماذا توجد بيننا كل هذه الأميال. ما الذي تريدينه؟ اكتسى صوتها بثقلٍ مفاجئ؛ لا شيء.

كان يأمل أن تضعف، أن يغلبها الشوق وتضعف، ولكنها صمتت بشكلٍ مطبق طوال سنتين، ثم أرسلت له تلك الرسالة. لكنه لا يريد أن يتذكّر. أشعل سيجارته. كان صاحبه مستغرقًا في الصمت بدوره. شغّل أغنية في هاتفه؛ يا روح روحي من يسلّي الروح. كان يسمع هذه الأغنية طوال عُمره. متى حفظها؟ في تاسعته؟ أم قبل ذلك؟ أغمض عينيه ودندن. كان يقطّب جبينه كأنَّ ألمًا يعتصره. ابتسم نايف:

– تصدّق.. آخر مرّة سمعت هالأغنية كنت معاك؟

أومأ؛

– أذكر. كنّا طالعين بحَر. الخور العمي، والماية سَجي.

– ولهت ع الحداق؟

– حيل..

– أهل لندن ما يحدقون؟

– مو مثلنا.

تمتم صاحبه؛ لا بدَّ وأن يكون المرء مخبولا ليترك لندن ويعود إلى هذا المكان. نظر إلى نايف يتفحّصه؛ ما زلتَ ممنوعًا من السفر؟ هزّ كتفيه. "مسألة وقت". ثم نظر إلى البحر وأردف؛ "الله كريم". يعرفُ جاسم أن صاحبه قد ذاق الحبس الاحتياطي من بعده، صدرت في حقه العديد من مُنوعات السَّفر. لكنه لم يفهم لماذا لا يبدو نايف غاضبًا مثله، ولماذا لم يفعل السّجن فعله فيه.

– شكلك اشتقت للدّيرة.

– لأ.

– لا تكابِر.

اعتدل جاسم جالسًا ودفن عقب سيجارته في الرَّمل، لم يعلّق.

– متابع الأخبار؟

– لأ.

– يكون زعلان يعني؟

– ما يهمني.

ضحك.

– والله إنّك بزِر.

.. أطفال السياسة، أفضل واحد فيهم يرتدي حفاظة بامبرز. وجدَ نفسه يقهقه. انتقلت عدوى الضحك إلى صاحِبه. "مِنت صاحي"، علّق نايف.. أحسَّ بخفة أفكاره، وتذكّر أنه لم ينم إلا نصف ساعة، في سرير والديْه، وأنه خرج من حلمه مبتلًّا بشهوته، وجائعًا في قلبه. وفي لحظةٍ تحوّلت موجات الضحك إلى رغبة في البكاء. ها قد عاد إلى الكويت، فأين هي دانة؟

– علامك سكتّ؟

– ماكو شي.

أشاح بوجهه، سمّر عينيه إلى البحر. أطفأ الأغنية، أحسَّ بها تفضحه.

– سمعت ألبوم نوال الجديد؟

– لأ.

– طيّب إسمع..

همَّ نايف بتشغيل أغنية في هاتفه. انتزع جاسم الهاتف من يدِ صاحبهِ وأوقف الأغنية.

– علامك؟

– ماكو شي. شخبار الدّيرة؟

– صارت أخبار الديرة تهمّك ألحين؟

– بتسولف ولا شلون؟

ضحك صاحبه، ثم شرع في الكلام. بدت أفكاره مرتّبة على نحوٍ مفاجئ، كأنه اعتاد على سردها بهذا الشكل طوال السّنوات الماضية؛ بعد سفرك بقليل، دشنت الحكومة سلسلة مبادرات للتواصل مع الشباب. اجتمع الوزراء مع مدوّنين وناشطين على الإنترنت و..

قاطعه:

– حضرت؟

– لا طبعًا.

– زعلان؟

يضحك. يسمع في رأسه صوت والده؛ أطفال السياسة، حفاظات بامبرز. شكّلوا وزارة الشباب لاحتواء شباب الحراك. هزَّ جاسم رأسه ومطّ شفتيه يتصنّع الاهتمام. ثمّ أطلق الديوان الأميري حملة "الكويت تسمع" وكل هذه الأمور. صعّر خذه؛ وهل سمِعَت؟ في الوقت نفسه، أردف نايف؛ مرَّرت الحكومة قوانين تقيّد وسائل الإعلام الجديد. إنّهم يراقبون تويتر.. اعتقلوا واتهموا عشرات الناشطين، يمنعون عشرات الكتب كل سنة، وهكذا أصبحنا نلهث وراء الدّفوع، وانتقلت المعركة من الشوارع إلى قاعات المحكمة.

– قصّتك بايخة.

برطمَ جاسم. طيّب شغّل شي ثاني نسمعه، قال نايف. شغّل ألبوم نوال. يهز رأسه؛ مابي! نايف يلح؛ إنزين أي شي، مو شرط عالية حسين ترى. ما تعرف غيرها؟ همهم جاسم؛ مالي مزاج. ثمّ، من يفهمه مثل عالية؟ من رافق طفولته مثل عالية؟ من التي غنت معه حتى غلظ صوته واخشوشن، خانه صوته وفقد الطبقات العالية التي يحبّها ولكن عالية.. عالية ما زالت تغنّي معه، تغني له، رغم أنه يعرفُ أنها ما عادت تغنّي.

– وين شباب الحراك؟

– على حسب.

– شلون يعني؟

– منهم اللي باع، ومنهم اللي ترك، ومنهم اللي ما زال يدفع الثمن؛ في تركيا، في لندن، في بيروت، في السّجن..

وتساءل لحظتها أيهم هو، في عين صاحبه؟ هل باع القضية، وقَبِل أن يتم تدجينه بالكامل عندما حصل على فرصة للدراسة في لندن، أم تراهُ من الذين ما زالوا يدفعون الثمن. أتدري أين المشكلة؟ صار فجأة راغبًا في الحديث؛ نحن أغبياء سياسيًا، أفضل واحدٍ فينا يرتدي حفاظة بامبرز. هل توصّلت إلى هذا الاستنتاج العبقري في لندن؟ لأ. فرقع لسانه؛ في الصّاجة. لا تكذِب، هذه كلمات أبيك. الكويت كلها تعرف أن هذه كلمات أبيك. أشاح بعينيه؛ كان على حق. زَفَرَ نايف: "اسمع يا حمار، تراني مطوّف لك هالكلام لأن اليوم دفان أبوك بس".. رفع حاجبه ساخرًا؛ بعد كل ما حدث، هل ما زلت تشكّ في كونه على حق؟ أخذ صوت صاحبه يعلو؛ أي حق؟ كان أبوك في صفّ الحكومة لأنها الحامي الأضمن للحريات. لأن الحراك "متخلّف ورجعي وظلامي"، لأن الحراك "قبلي وإسلامي في الصميم"، أليس هذا ما قاله؟ الحكومة انتصرت، المسيرات توقفت، المطالبات خرست تمامًا، فأين هي الحريات؟ إنهم يسحقوننا

كل يوم بتلك القرارات.. خلاص! صاح جاسم؛ غيّر الموضوع وفِضها سيرة. أحسَّ بعيني نايف تحاصرانه. ليه رجعت، جاسم؟ السؤال الذي يكوي قلبه. ما أدري. صدره يضيق. لا يريد الحديث عن الكويت، ولا عن أبيه. يريد أن يدخّن ويسمع عالية حسين ويشمّ البحر. يشمُّ رائحة المرأة التي..

– جد.. ليه رجعت؟

– خلاص نايف! اسكت عنّي شوي.

– ماني ساكت، ليه ألحين؟

نظر إليه كأنّه لا يفهم. ألم تكن المناسبة واضحة تمامًا؟

– أبوي توفى يا جَحش.

– أدري.

قال بخفوت:

– بس وينك قبل سنتين؟

لم يكن يتوقع هذا السؤال. أين كان؟ كان ثملًا وممددًا على أريكته الجلدية أمام الشريط الإخباري. وكان يحلمُ بها. هذا ما يبرعُ به على أيِّ حال، أن يحوّلها من حقيقة إلى حُلم. لماذا لم تعد إلى الكويت يومها؟ اغرورقت عينا جاسم، زمَّ شفتيه. ألقى بالسيجارة من يده ونهض ماشيًا باتجاه الشارع. ما الذي يريده نايف، بعد كل هذا الوقت؟ يريد تقييده إلى كرسي الاعتراف واستجواب جرحه؟ لا أحد يملك حق محاسبته، لا أحد! سمع صاحبه يناديه؛ تعال! وين رايح؟! التفت وصاح به؛ أدوّر تكسي. نهض نايف من مكانه وتبعه؛ أنا أوصلك. مابيك توصّلني. أمسك نايف بساعده، دفعه بعيدًا؛ ولا أبي أشوف وجهك! قبض على سترته وجذبه قريبًا من صدره؛ اِعقل جاسم. ماني عاقِل! اعقل أحسن لك! وخّر زين! نايف يجذبه من ساعده. جاسم يدفعه عنه. أقولّك وخّر! وخّر إيدك! ماشي، أنا أربّيك يا ابن الكلب! اشتبك الاثنان، تدافعا، تصارعا، لفَّ نايف ساقه على ساق جاسم فسقط أرضًا، سقط الآخر فوقه، قبض على يديه وثبّتهما على الأرض. اذلف عن وجهي. صرخ جاسم، تطاير الرذاذ من فمه، سحّت دموعه وسال أنفه.

– جاوبني..

– مو شغلك!

– والله ما أخلّيك لين تجاوِب. وينك قبل سنتين؟

– مو شغلك!

– ليه ما رجعت؟

– أرجع ليش؟

– ليه رجعت اليوم؟

– أبوي مات..

– ودانة؟

بزغ وجهها في داخله، وجهها الدامع الصغير يسأله؛ "وأنا جاسم؟ وأنا؟" أخذ ينتحب فجأة، بقبضتين مثبّتتين على الأرض، صدره يهتزُّ وصاحبه جاسمٌ فوقه.

2

استيقظ قرابة السّابعة صباحًا، لا لضوء ولا لصوت. لقد أيقظته الرائحة.

عندما فتح عينيه، ورأى الثريا الكرستالية من فوقه، عرفَ أنَّه أمضى الليلة في غرفة الضيوف. كان قد قرّر، بمجرد عودته إلى البيت، أنه لا يستطيع قطع المسافة إلى سريره. فكرة صعود الدرج، وقطع الممر إلى غرفته، بدت مستحيلة. الألم مسافة. كانت تلك آخر فكرة داعبته قبل أن يهوي في النوم؛ الفقد أيضًا مسافة، وهو سيكفُّ عن المشي، لأنه متأكّدٌ بأن ما مِن وصولٍ على الإطلاق. أغمض ونام على الأريكة، ومن حوله عشرات الكراسي المغطاة بالسّاتان الأبيض. بين أجزاء المصحف التي تنقسم بين مقروءٍ وغير مقروء، وبواقي قناني ماء زمزم. رأى في المنام أنّه يمشي في الفراغ، وصل إلى جدار، كان جدارًا أبديًا، زجاجيًا، عاكسًا، وصار يتحسّسه بيديه وينادي دون أن يسمع صوته.

من الذي غطّاه في نومه؟ مرة أخرى، تذكّر الرائحة. قديمة وكثيفة القوام، يسيلُ لها الرّيق. اعتدل جالسًا، يدعك عينيه. ثاني أيام العزاء، سيمتلئ البيتُ بالمعزيات عمّا قريب ويجدر به أن يتأهّب للحضور في ديوان العائلة. كلُّ جسده يؤلمه؛ تقلّباتٌ في المعدة ورضّةٌ بليغةٌ في القلب. تراه شجار الأمس على الشاطئ؟ أم المشي في الحلم؟ أم أنه الفقد وحسب؟ إنه لن يعرف ذلك أبدًا، ولن يفكّر في الأمر حتى. ثمّ، من أين تأتي هذه الرائحة؟ نهض من مكانه وسار إلى المطبخ. رأى أمّه تكسر البيض بسطحِ الطاولة وتلقي به في المقلاة. كانت الزبدة تبقبقُ وقد تضوّعت في الهواء رائحتها الناعمة. يمّه؟ التفتت إليه وابتسمت؛ هلا حبيبي. عندما ابتسمت أحسَّ بها تصغر، مثل طفلةٍ هشة وقابلة للكسر.

خطا داخلًا وقبّل رأسها، كان جبينها متعرّقًا، ينضح برائحة دهان أبو فأس، فعرف أن الصداع ما انفك يلازمها. شعرها معقوص، ظهر الشيبُ في منابته. مفرقٌ عريضٌ يقسمه قسمين، وقد بدت بشرة رأسها وردية، متعرّقة، ولامعة. جلسَ إلى الطاولة يتأمّلها. كانت ترتدي قميصًا بيتيًا من القطنِ المشجّر، نعلًا قماشية سوداء، وقد تغاضت عن ارتداء حمّالة صدرها، حتى راح نهداها يتأرجحان في كل مرّة تدور فيها حول نفسها، لتبحث عن المملحة. لو كان والده حيًا، لما كانت هذه هيئتها.

بدت وكأنّها قد انتظرت هذه اللحظة لسنوات. لقد خطّطت لكل شيء؛ بيض عيون، خبز تنور، شرائح خيار وطماطم وزيتون أخضر، وكوب شاي بالحليب. كانت تنتظر، طوال أربع سنوات، يومًا كهذا، تستيقظ فيه قبل الجميع لتعدّ لجاسم فطوره المفضّل. رتّبت الأشياء على المائدة، ثمَّ انتزعت قطعة من

الخبز، وفقأت بها صفار البيضِ حتى غمر الصّحن كلّه. غمست قطعة الخبز في السّائل الأصفر الثخين وقرّبتها من فمِه:

– بسم الله.

ابتسم.

– توكليني يمّه؟

– أدري فيك ما كَلت من أمس. يالله بسم الله.. شنو تستحي؟

– لأ.

كان جائعًا، إلى فطوره المفضل وإلى أمّه. نمت زين؟ هزَّ رأسه إيجابًا وهو يرتشف الشاي بالحليبِ. أدري فيك ما ردّيت إلا وجه الفجر. قالت. رحت البحر مع نايِف. ارتفع حاجباها؛ نايف ما غيره؟ أومأ وفمه ممتلئ بالطعام.

– شخباره؟

– بخير.

– ما تزوّج؟

– وانتي ما عندچ سالفة ثانية يمّه؟

– تزوّج يعني؟

– لأ.

– شالوا عنّه منع السِّفر ولا بعد؟

– لا بعد.

– عدِل، وينه وين الزواج؟

– شفيچ ع الولد يمّه؟

– أبوك ما كان يحبّه.

– أبوي ما كان يحب أحد.

تختنق بدموعها.

– شفيچ يمّه؟

– كلمة "أبوي" منّك تشلع القلب. الله يرحمه ويغمّد روحه الجنة..

تُنكّس رأسها لحظة ثم تردف:

– بس مهما كان.. أبوك كان عنده نظر، لولا هالأشكال اللي ما أدري من وين لفت علينا چان..

– چان شنو؟

– أستغفر الله بس. خلاص إكِل يا يمّه، لا يبرِد الخبز.

نظر إلى صحنها الفارغ. لماذا لم تملأه بالبيض والخبز والجبن؟

– وانتي ليش ما تاكلين؟

– ألحين آكل..

اقتطعت من الخبزة قطعة صغيرة ووضعتها في فمها. ارتفع حاجباه؛ تقصّين عليّ يمّه؟ لا والله يا يمّه أكلت قبل لا تصحى. اقتطع بالخبزة جزءًا من البيضة وغمسهُ في الصَّفار السائل. قرّب اللُّقمة من فمِها. اغرورقت عيناها وارتجف ذقنها، كأنّها كانت تنتظر هذه اللحظة أيضًا. فتحت فمها؛ والله يا حبيبي شبعان..ة. دسَّ اللقمة في فمها وألحقها بأخرى. مع اللقمة الثالثة أبعدت يدَهُ بيدِها؛ والله ماقدر. ليش ما تقدرين؟ زمّت شفتيها. بس مو قادرة. ليش يمه؟ تعبانة؟ أوديك الطبيب؟ لا، لا.. نهضت من مكانها وتشاغلت بغسل الصحون. ماكو شي. ترى والله أتصل على برّاك وأقولّه. لا يا حبيبي. قعدي تريّقي معاي. قالَها بصيغة أمر. جفَّفَت يديها بالمنشفة القريبة وعادت تجلس إلى الطاولة. بمجرد أن قرّب اللُّقمة من فمها فاضت دموعها؛ ما تعوّدت آكل قبل أبوك. لم يدرِ بماذا يعلّق، أحسَّ بحماقة سؤاله، وحماقة حزنها أيضًا. قرّب كرسيّه منها وأخذ يمسح برفقٍ على ظهرها، فيما هي تغالب بكاءها. إنه لم يفكّر في الأمر حتى. ما معنى موت أبيه بالنسبة لأمّه، وكيف ستتدبّر حياتها من دونه؟ كيف سيبدو يومها إن لم تقضهِ في تلك العادات الصغيرة التي تشعرها بوجودها؛ إعداد الشاي الأخضر، عمل المهلبية بالفستق، شراء البُن المطحون، متابعة صادر ووارد الغتر والدشاديش من وإلى المصبغة، دهن كعب قدميه بالڤازلين، وتقليم أظافره. كيف ستعيش أيامها الآن؟ وهل عليهِ، بعد أربع سنواتٍ من الرحيل، أن يقلق

بشأن الذين تركهم خلفه؟ صرفَ الفكرة من رأسه؛ طيّب شربي چاي. قرّب إليها الكوب؛ إكلي معاي شويّ عشان أعرف آكل. هزت رأسها موافقة. نشقت ومسحت دموعها. جلسا يرتشفان الشاي بالحليب بصمت. تأمّلها مليًا. كانت تصغر عندما تبتسم وتشيخ عندما تبكي. وتساءل، كم عمرها الحقيقي؟ تذكّر لحظة جاءت لرؤيته بعد اعتقاله، في أروقةِ النيابة. صور لا تفارق ذاكرته؛ صورتها في "سكايب" وهي تسأله؛ ما ودّك تتزوج؟ صورتها وهي تجلس في مكتب الاختصاصي الاجتماعي إثر شكوى تقدّمت بها المدرسة ضده يوم قذف صلعة مدرّس الرياضيات بالممحاة. صورتها وهي تنتظر عودته إلى البيت بعد إطلاق سراحه، وحدها في الحوش، تحت النخلة، تلف رأسها بوشاحٍ أبيض. كانت الصّور تتعاقب تترى، وهو يتملى في الغضون الحزينة التي فاضت على جلدها. نبتت في زاوية فمها ابتسامة:

– علامك سرحت فيني؟

كان يحدّقُ فيها فعلًا. ابتسم.

– مشتاق لِچ بَس.

رفع كوب الشاي بالحليبِ إلى فمه وأفرغه كاملًا، ثم عاد ينتفُ الخبز ويغمسه في الصّفار السائل، ويرشّ فوقه الكثير من الفلفل الأسود. ابتسمت أمّه؛ "هذي حركة أبوك". ارتفع حاجباه؛ "أي حركة؟". "هذي". أشارت إلى اللقمة في يدِه. إلى خبزة منقوعة في صفار البيض وعلى سَطحها نمشٌ أسود. أحسَّ بيدهِ تتجمّد في طريقها إلى فمِه. اتسعت ابتسامتها أكثر؛ "تدري إنك تشابهه؟" بدأت معدته تضطرب. "يتهيأ لچ يمّه". أشارت إلى الطريقة التي ثنى بها ركبته فوق الكرسي، إلى حدبة ظهره، إلى طريقته في المضغ، وإلى الخطوط في جبينه وحول عينيه؛ "والله إنك نسخة أبوك". دفع بالصحن بعيدًا. "الحمد لله شبعت". مالت برأسها يمينًا، تنظر عميقًا في عينيه:

– مو مصدّقني؟

– لأ.

نهضت من مكانها وهي تجمع الصحون؛ "طول عمرك اللي براسك براسك".. وأضافت؛ "مثله الله يرحمه!" شرعت تغطّي الأطباق بورق النايلون.

– وين الخدم يمه؟

– يصحون بعد شوي.

– أساعدك؟

– لا استريح واللي يعافيك..

برطمت وتمتمت؛ "أنا بعدي بقوّتي". أحسَّ بألمٍ غريب في رأسه؛ لقد كانا مختلفًا عن أبيه، مختلفًا مع أبيه. لا أحد يستطيع محو حقيقةٍ كهذه. ولكنه إذا بقي في مكانه دقيقة أخرى فسوف تلعب أمه بعقله. يجب أن يغادر بسرعة.

نهض وقبّل رأسها؛ "أكرمچ الله يمه". هذه المرة ابتسمت أيضًا، وبدت مثل طفلة هشة، قابلة للكسر. ابتسامتها الصغيرة جعلت قلبه يجفل، وصار يصعد الدَّرجات خببًا، يهربُ مما لا يدري.

3

بقي يومان، يومان فقط! سوف تغادر هذه المدينة الفخ. الأمر أكبر منك، أليس هذا ما قلته لدانة؟ أليس هذا ما قاله والدك؟ مِردم يا جاسم، مِردم يلقي بنفسه في التهلكة.

دخل غرفته وأقفلَ الباب. كان قلبهُ يضربُ بجنون، ولم يفهم لماذا تضيء تلك الكهرباء الغريبة داخل رأسه، وتأتيه بكل تلك الصور، هو الذي قرَّر أن يكفَّ عن حماقة التذكّر. المشنقة، الأسلاك الشائكة، الوجه الرمادي للرجل في قبرِهِ و.. إنه لم، ولن، يشبه والده. لقد اتخذ قراره بهذا الشأن منذ سنوات، مذ كتب عبد المحسن العظيمي تلك المقالة التي أراد فيها، أكثرَ من أيِّ شيءٍ آخر، أن يُدمِّرَ ولده. وهو يعرفُ أنه لا يريد أن يشبه نفسه، لا في الصاجة، ولا في العالم، ولا في كوابيسه بجدرانها. لكنه، على الأقل، لن يشبه والده. أحسَّ أنه مشدودٌ إلى سلكٍ من الكهرباء، ينتهي في مكانٍ ما في الجحيم، المكان المخصَّص لضخِّ الذاكرة في الدّم. أرعبه الأمر، أن ذكرياته ما عادت صورًا وكلمات، إنها محض دمِهِ. أسند ظهره إلى باب غرفتهِ وهو بالكاد يلتقط أنفاسه. ما الذي فعلتهُ به أمّه؟ كان متأكدًا من أنها عثرت على الزّر الذي يوقظ الماضي، وضغطته بإبهامها المكتنز، ثم عادت تغسل الصحون وأن شيئًا لم يحدث.

ألقى بجسده على سريره وأغمض. كان يعرفُ أنه تحت رحمة عقلهِ، ويعرفُ أن عقله جلّاد. سوف يُغمض. ينام. يختلس ساعة نومٍ أخرى ويستيقظ وقد نسي أمر الزرّ اللعين، وبيض العيون والفلفل الأسود وابتسامة أمه التي يجفل لها القلب. لكنّه عوضًا عن ذلك وجد نفسه يرتجف كما ارتجف في ذلك اليوم. جاسم يعرف هذه الارتجافات جيدًا. لقد جرّبها قبل أربع سنوات، وها هي الآن تعود كما عهِدها؛ آثمة، صريحة، لا يمكن قهرها.

في ذلك اليوم، كما هو الآن، أحسَّ أن جسده يخونه، ليقول كل ما لا يمكنُ قوله، عن الخوفِ والحبِّ وما بينهما.

– علامك ترجف؟

تذكّر الضّابط يسألهُ، ضاحكًا، وهو يأخذه إلى زنزانته لأوّل مرة. يردُّ مكابرًا: "بردان!" كان الضابط يقبض على زنده، وكان يمشي معصوب العينين، في ممرات مباحث أمن الدولة. بردان، رغم أن بقع العرق تتسع في ظهره، وتحت إبطيه. رغم العُصابة على عينيه، كان يستطيع رؤية قدميه تخطوان إلى

الزنزانة. الضابط يخبره أن يصعد الدرجات. الذاكرة مقصلة. لو كان في لندن، لكان في وسعهِ أن يفرَّ إلى أقرب حانة، وأن يطفئ عقله. لكنه الآن عارٍ والتفاصيل تجرحه، مثل مليون قَطْعٍ رقيق أحدثته حافة ورقة. تذكر الحافة السُّفلية للأبواب الحديدية للزنازين. بابٌ جديد يُفتح في هذا العالم؛ بابٌ يفضي إلى لا نهائية الجدران. في تلك اللحظة أصبح المجاز والحقيقة شيئًا واحدًا. لقد كان على حقٍ في عدم بحثه عن المعنى.

اقتربَ بخطواتٍ ثقيلة من مرآته وأجفل. لوهلةٍ، كان يشبه شخصًا آخر؛ "مِن انت؟"، وأدهشه أنه يتكلم كالسكران. وجد نفسه يحدث الرَّجل في المرآة؛ "عفوًا قلت شي؟" ضحك. ثم راح يضربُ على صدره بقبضته وهو يهمس؛ "ليش ما تكلّمني؟" لقد انتهى الكلام عندما ابتدأت الكتابة، هذا هو ما حدث بالضبط، ويكاد لا يتذكّر آخر مرّةٍ تبادل فيها مع أبيه أكثر من عشر كلمات. ربما كان ذلك بعد فوز المعارضة في الانتخابات. كان والده يقرأ في الجريدة عن نوّاب يطالبون بتأسيس جهاز للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. قدماه ممدودتان أمامه، وأظافره مقلّمة حديثًا. يتذكر أمه تغادر غرفة الجلوس وبين يديها محرمة ورقية تضمُّ أظافر أبيه. خطف سريعًا صاعدًا إلى غرفته عندما سمع والده يصيحُ به:

– بعد ما أقرّوا قانون إعدام المسيء وجهاز الأخلاق الدّور عليكم!

كانت البلاد كلها مشغولة بالقرارات التي أقرّها البرلمان الجديد؛ قانون إعدام المسيء إلى المقدّسات، جهاز للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر. رفض تدخل "هيومن رايتس"، تحركات لأسلمة مواد الدستور، مساعي حقيقية للتحوّل إلى دولة دينية. كان والده يغلي من الغضب؛ "باكر بتعرِف".. قال؛ "راح أذكرك!" توقف جاسم مكانه والتفتَ إلى أبيه:

– عفوًا قلت شي؟

– لا أكلّم الطوفة، على الأقل الطوفة تسمع.

– عن إذنك.

أدار له ظهره فسمع والده يصيح به ثانية:

– مو هذيل اللي حاربت عشانهم؟!

– وهذا أنا أحارب ضدهم.

– عقب ما طاح الفاس بالرّاس! ضيّعتوا البلد وضيّعتوا كل اللي تعبنا عليه..

– تدري شلون يُبه؟

أولى ظهره لأبيه ثانية:

– إذا عندك شي تقوله اكتب مقالة.

ولم يخطر بباله أنه سيكتبُ تلك المقالة فعلًا، ولم يخطر بباله أيضًا أنه سيردُّ على مقالة أبيه، أنه سيكسر قلب أبيه وقلمه، وأن الصَّدع سيكون أكبر من الجِدار.

يغمضُ عينيه أمام المرآة لكنه ما زال يرى. يرى أكثر مما يريد. يخترقُ حُجب الزمن ويعودُ إلى تلك اللحظة، عندما رفعوا العُصابة عن عينيه. لماذا يحتفظ في عقله بكل هذه التفاصيل؟ دكّة إسمنتية تعلوها فرشة، نسخة من المصحف، كاميرا المراقبة إلى اليمين، دش استحمام، مرحاضٌ عربي وإبريق بلاستيكي. الباب الحديدي مزوّد بفتحتين؛ واحدة لعين الضابط المناوب، الثانية لدفع صينية الطّعام. لقد صار يعرف، حرفيًا، معنى أن يكون المرء تحت المراقبة. مكشوف المؤخرة، على المرحاض، والكاميرا فوق رأسه.

.. خلع ملابسه وتوجّه إلى الحمام. يتذكر ما قاله لدانة تلك الأيام؛ أكثر شيءٍ يفتقده المرء في السجن ليس الحرية، بل الخصوصية. ولكن هذه أشياء سوف يكتشفها في السجن العمومي والمركزي، وذاكرته الآن ما تزال في عنابر أمن الدولة. يتذكّر صوت إغلاق الباب عليه للمرة الأولى، صوت مغادرة الضابط والوحشة التي تتنزل على القلب باردة ومعتمة. جلس على الدَّكة الإسمنتية، مثنيَّ الركبتين ورأسه بين يديه. هذا ليس كابوسًا، رغم أن الأمر لا يُصدق. رفع رأسه إلى كاميرا المراقبة من فوقهِ وأحسَّ بالدماء تفور في عروقه. إنّهم يراقبونك الآن. لقد كنتَ محظوظًا طوال الفترة الماضية لأنّهم كانوا مستعدّين لتكبّد تكلفة نسيانك، ولكن ليس بعد اليوم. كانت أطرافه ما تزالُ ترتجف. نهض من مكانه وراح يجول في الزنزانة الضيقة. صرخ بكل صوته:

– جاسم ما قال شي، جاسم قال راي!

4

وقفَ أمام المرآةِ في الحمّام، يحدّق في وجهه، متكئًا على المغسلة. عليهِ أن يستحمّ ويتهيأ للمثول في ديوان العائلة، لولا أن الذاكرة تسحبهُ من قدميهِ، إلى جحيمها.

كان يتملى في وجهه كأنّه يعيد اكتشافه. لم يكن يفهم، لماذا تخلو السُّجون من المرايا؟ وما معنى أن ينظر المرءِ إلى وجهه ولا يتعرّف إليه؟ عندما يصبح المرءِ غريبًا عن نفسه بالكامل، ينتصرُ النظام. خطرت هذه الفكرة في رأسه، وقرّر أن يكتبها بعد إطلاق سراحه، لكنه لم يفعل. تسمّر مكانه، يحدّق في مرآة غرفة الخدمة الاجتماعية في السِّجن العمومي. يتذكّر جاسم ذلك اليوم جيدًا، يتذكّر المرة الأولى التي نظر فيها إلى نفسه واكتشف أنه أصبح شخصًا آخر. في لحظةٍ ما تنظر إلى وجهك ثم ترى فيه وجه الرّجل الغريب، وتصير الأجنبيّ الذي تلمحه في ناصية الشارع، ولا تملك حتى المبررات اللازمة لتحيّته. سوف يمرُّ أحدكما بجانب الآخر دون أن ينظر في عينيه، ويذهب كل واحد منكما في اتجاه معاكس، ويغيبُ في الزحام، وفي تلك اللحظة لن تعود الشخص نفسه أبدًا.

بعد مرور شهرين في السّجن سوف تعرفُ حقيقة الأمر؛ ما يؤلمنا ليس الماضي، بل المستقبل الذي لن يحدث. كل الاحتمالات المهدرة لذلك الشخص الذي كان بإمكانك أن تكونه، لو لم تنظر إلى وجهك في المرآة وتكتشف أنك لا تعرفك. عينان غائرتان، خدٌّ مقعرٌ من فرط الهزال، رأسٌ حليق بالكامل، طبقات وطبقات من الغضبِ المُر. تخيّل لو أنك لم تصطدم بالغريب في داخلك، أنك لم تكن الشخص الغريب، أن الغريب بقي غريبًا، من تراك ستكون؟ هل ستكبر لترتدي الدشداشة البيتية المخططة والشماغ الأحمر، وتمضي سنوات التقاعد في تكريب النخل وصيد السّمك؟ هل كنت لتصبح زوجًا وأبًا لثلاثة أطفال يتعلمون في مدرسة أمريكية ويزورون بيت جدهم في نهاية الأسبوع؟ هل كنت لتصبح أكثر جدية في الكتابة، وتصدر كتابًا يضمّ مجموعة مقالاتك، أو ربما تؤلف رواياتٍ عن ترويض الطرزان ليصبح مواطنًا صالحًا، أو حتى عن الرجل الغريب الذي يلتقيه المرءِ في المرآة. من يدري؟ ربما تكتب رواية خيال علمي، عن الزمن الذي ينقطع فيهِ النفط لتصبح الصحراء محمية طبيعية للضّبان والجرابيع، للعرفج والإثل. ينقطع النفط عن البلاد كما ينقطع الحيض عن المرأة. تصبح الأرض عقيمًا ويبدأ الجميع في التساؤل عن المعنى الحقيقي لكلمة وطن.

غسل وجهه مرارًا. سار بتثاقل إلى دولاب ملابسه وفتح الباب. كانت دشداشة السّجن ما تزال معلّقة إلى الجانب الأيمن. رنَّ هاتفه. برّاك يتأكد من سلامة وضعه؛ «جاهز؟ عشر دقايق وأوصل». لكنَّ

الوقت يسيلُ بطئيًا.. يخلع ثيابه ويرتدي دشداشة مناسبة للعزاء. يتذكّر أولى ساعات وصوله إلى العمومي، عندما خيّروه بين الزيّ البني والزيّ البيج. بين أن يحلقوا رأسه على رقم (1) أو رقم (2). فكّر وقتها أنَّ الحرية الوحيدة المتاحة لك هي أن تختار «نوع المرق الذي سيطبخونك فيه».

يومه الأول في السجن العمومي؛ كانوا يحلقون له رأسه وهو يجادل الحرس؛ «أنا سجين فئة (أ)»، ولكن كل ثقافته القانونية لم تنفعه في شيء. سجين فئة (أ)، أنا غير محكوم، لا يجوز حلق رأس السجين إلا إذا كان شعره مفرط الطول، وأنا شعري.. الحقيقة أن أحدًا لا يكترث. حلقوا رأسه بالكامل وأجروا عليه فحوصاتهم الطبية، أخذوا له صورةً فوتوغرافية وهو يحمل لوحة سوداء. كان المصوّر، الأحمق، يبحلق في وجهه ويأمره: «لا تِبتسم!». كان يريد أن يبتسم نكايةً، لكنه لم يقدر، ليس بعد خمسة أيامٍ قضاها في عنابر أمن الدولة، مُضربًا عن الطعام، مرتديًا الملابس نفسها من ساعة اعتقاله؛ قد أكونُ على خطأ ولكنني أشكُّ في الأمر. يبدو أن أول شيءٍ يتعلمه المرء في أمن الدولة هو الشّك. في تلك الأيام، فكّر أن الزنزانة تشبه بطن الحوت، لكنه بدلًا من أن يخرج منه نبيًا، خرج كافرًا بكلّ الأشياء. تخيّلَ أن يجد نفسه وحيدًا، في الظلام، يذوب في أحماض معدة العملاق البحري الهائل، على فرض أنه تدبّر أمره جيدًا دون هواء، وربّما اصطنع لنفسه طوّافة، قارب صيدٍ صغير، حكاية حبٍ لم يتدبّر أمرها جيدًا. شيئًا يتشبّث به المرء في الظلام، رغم أن ظلامَ السجن مجازيٌ جدًا، والأضواء اللعينة تبدو وكأنها معلقة داخل رأسه.

الهاتف يرن. رسالة نصيّة من نايف هذه المرة؛ «الليلة أمرّك». بعد شجار ليلة أمس، ورشقات الشتائم التي تبادلها الاثنان، لم يتوقع أن يطلب صاحبه رؤيته بهذه السرعة.

في اليوم الخامس في عنابر أمن الدولة، أيقظه الضابط المناوب ليأكل فطوره.

– قوم رِيوق.

شبك يديه خلف رأسه وتمدد على ظهره:

– أنا مضُرب عن الطعام.

– أفا، ليه يا ولد؟

– مابي أكل. عندك زقاير؟ أبي زقارة.

– كِل لِك لقمة وأعطيك زقارة.

– إنت تساوِمني؟! خلاص مابي لا أكل ولا زقارة.

ابتسم الضابط:

– عزَّت عليك روحك يا اِبعدي؟

وأحسَّ جاسم بتلك الغصة تنبتُ في حلقه. أشاح وجهه كي لا يلحظ الرجل ارتباكه. مدَّ الضابط يده بسيجارة. "خِذ". تلقّفها جاسم بلهفةٍ وهو يقرّب شفتيه من قدّاحة الرّجل. سحب نفسًا مدوّخًا. أغمض عينيه، وأسند رأسه إلى الجدار وراءه. ترك الدخان يتوغّل في صدره. كانت تلك أشهى سيجارة دخّنها في حياته. وفيما هو يزفرُ الدخان من منخريه أخبره الضابط أنهم سيأخذونه بعد قليل للمثول أمام النائب العام.

ارتعد جسده بعد أن أزالوا العُصابة عن عينيه. كان يعيد اكتشاف اتساع العالم؛ الضوء والظل، الأشياء والأسماء. لكن أكثر شيءٍ استحوذ على اهتمامه هو الأصوات. ضوضاء بلا معنى تنتشرُ في جميع الجهات. وكلما وجّهوا له أمرًا أو سؤالًا أدهشه الثقل في لسانه، كأنَّ جدارًا نبت بينه وبين اللغة، وصار يقلب لسانهُ في فمِه، يذكّر نفسه بما ينبغي عليه قوله؛ غير مذنب، غير مذنب، غير مذنب.

من أمن الدولة إلى النيابة. جلسَ محاصرًا بالحرس، واحد عن يمينه وآخر عن شماله، والثالث يجلس قبالته يتسلّى بهاتفه. تساءل إن كانت ثمة طريقة يستميل فيها الضابط الثالث ليسمح له، على الأقل، بأن يقرأ ما كُتب عن اعتقاله في تويتر. كان جائعًا إلى أي شكلٍ من أشكال المؤازرة، ويعرف أنه لو عثر على وسم #الحرية_لجاسم_العظيمي لما كان مثوله أمام ضابط المباحث بتلك الصعوبة. سبق للضابط نفسه أن أعطاه سيجارة، ولاطفه ليأكل، من يدري ربّما يسمح له باختلاس نظرة إلى العالم، لولا أنه بوغتَ بأمّه تدخل غرفة الانتظار، واضعة عباءتها السوداء فوق رأسها، تشدّها إلى ذقنها، وتشهق لرؤيته. كانت شاحبة ومفجوعة. خلال لحظاتٍ تبعها شقيقه، تسمّر الاثنان مكانهما واقفين، ينظرانِ إلى الأصفاد في يديه. دسَّ يديه بين فخذيه وأشاح بوجهه كي لا تلحظ أمه ارتجاف شفتيه. أشار برأسه خارجًا؛ «نطريني برّا يمّه».. اغرورقت عيناها «جاسم!». نظر إلى شقيقه؛ برّاك! إخذ أمّك.. ولم يكن في حاجة أن يقول أكثر. قبض براك على ساعدها واقتادها خارجًا، سمعها تنشج، وسمع شقيقه يهدئ خاطرها؛ «شفتيه؟ مافيه إلا العافية، تطمنتي ألحين؟» كان بكاؤها يعلو؛ «أبي أشوفه!» وكان يردّ؛ «ألحين.. ألحين تشوفينه، شوي بس». وكان هو، إلى الجانب الآخر من الجدار، يدفن وجهه بين كفّيه.

نظر إليه الضابط بطرفِ عينه؛ «أفأ!» هزَّ رأسه أسفًا؛ «تطرد أمّك؟ مو عيب عليك؟!» مدَّ إليه يديه المقيّدتين؛ «هذي أمّي، تبيها تشوفني مقيّد؟». سبق وأخبرها، لحظة اعتقالهِ، أن كلّ شيءٍ سيكون على ما يرام، وحتى تصير الأمور فعلًا على ما يرام، لن يسمح لها برؤيته. أومأ الضابط متفهّمًا؛ «فكّوا عنه الكلبچات على مسؤوليتي». قال لرفيقيه. «خلّوه يسلّم على أمّه». حرّروا يديه من الأصفاد، وصار في وسعه أن يسلم على أمه. ما زال يتذكّر هيئتها، أنفها المحمرّ وعينيها الدامعتين، بين لحظةٍ وأخرى

كانت تحوقلُ وهي تمسح على خدّيه براحتيها. أمسك يدها يسألها؛ «شلونچ يمّه؟»، وفوجئ بنفسه يسأل؛ «وشلون أبوي؟». كان الفضول يأكله لمعرفة أخبار أبيه، وآخر عهده به تلكما العينين الحمراوين المشرّعتين على الفراغ، من فرط قدرتهما على ضخ المعنى، لا تفضيان إلى شي. لكنه يحتاج إلى تلك التفاصيل؛ هل ينامُ الليل؟ هل يفكّر في ولده طوال الوقت؟ هل يشمتُ به؟ هل يضحك على المردم الذي اصطاد نفسه بنفسه؟ أيشعر بالانتصار، أم بالهزيمة؟ «أبوك تعبان، قلبه ياكله عليك». يسمع كلماتها ويبتسم. بودّه أن يصدّق ما تقول، ولكن؛ أنت تخاف الوهم، ما عدت تملك ترف تصديق ما لا تراه. وأنت لا تراه يأتي لرؤيتك، ولا تراه يتّصل بأصدقائه المحامين للدفاع عنك، ولن تراه بين حضور جلساتك في المحكمة، ولن تراه في استقبالك بعد خروجك من السّجن.

يودّعُ أمّه. يعود إلى الضابط في غرفةِ الانتظار، مادًّا إليه يديه بامتنان، ليعيد إليه أصفاده.

في مكتب وكيل النيابة، وقف جاسم أمام الرّجل الذي وجّه إليه الاتّهام؛ «هذا وقد بدا المتّهم أمامنا: شابٌ في العقد الثالث، أسمر البشرة، له شارب ولحية خفيفة، يتمتّع بصحة جيّدة وليس عليه آثار تعذيبٍ أو ضرب»، ثمَّ وجّه إليه التّهم:

– أنتَ متّهم بالتحريض علنًا عن طريق الكتابة على قلب نظام الحكم القائم وذلك بحثِّك عن التغيير بطريقة غير مشروعة.

– غير صحيح.

– كما أنّك متهم بالدعوة عن طريق الكتابة إلى اعتناق مذاهب ترمي إلى هدم النظم الأساسية في الكويت والانقضاض بالقوة على النظام القائم فيها.

– غير صحيح.

– كما أنّك متهم بازدراء الأديان وإهانة المقدّسات عن طريق الكتابة، وذلك بالتطاول على النصوص الدينية بالسخرية والتجريح.

– غير صحيح.

كانت أكثر كلمة تردّدت في رأسه في تلك اللحظات هي "عن طريق الكتابة" وشعر برغبة في الابتسام. عن طريق الكتابة يا أبي! عن طريق الكتابة! يسأل وكيل النيابة؛ هل لديك سوابق؟ لا. هل لديك أقوال أخرى؟ لا. يأمر وكيل النيابة بحبسه احتياطيًا على ذمّة التحقيق. بعد خمسة أيّام في زنازين أمن الدولة، تقرّر نقله إلى السّجن العمومي.

في الطريق إلى السّجن، أحسَّ جاسم أنّه يغادر قوانين العالم التي يعرفها، ويدخلُ في لعبةٍ مختلفة. أتراه العالم نفسه، تساءل؛ ولكنك لم تكتشف هذا الجانب من وجهه بعد؟ كنت تعرف حقوقك جيّدًا. تعرف النظام، تعرف الخصم، لكن ما جدوى ذلك؟ قبل خمسة أيام كنت تردّد؛ أنا سجين رأي! ونسيت أن البلاد كلها صارت معتقلًا للآراء. الشكوى التي صدرت ضدّك جاءت من عناصر في المعارضة، ضاقوا ذرعًا بمقالاتك التي تسخرُ، كل يوم، من "خطواتهم التصحيحية". ليس هذا وقت توجيه الانتقاد. قالوا؛ يجب أن نوحّد الصفّوف. لكنك كنت عنيدًا؛ كل وقتٍ هو وقت توجيه الانتقاد. كنت ترى البلاد ذاهبة إلى الخراب، وكان الخوف يملأ قلبك. إذا كانت المعارضة تضيق ذرعًا بالنقد، فما الذي نتوقعه من الحكومة؟ كنتَ تردّد. سخرتَ منهم واحدًا واحدًا، أولئك الذين حاربتَ في صفوفهم. يجب أن نحافظ على حقّنا في السخرية! كنت تقول لنايف، المشغول في لفِّ سيجارة حشيش. كنتما في شقّته في السالمية. وحده الخراب ينتظرُ البلاد التي تطاردُ النكات وتعتقل الكلمات. شتمهم نايف وهو يناولك اللُّفافة. انتهى بكما الأمر إلى السُّقوط في نوبة ضحك. من كان يظنُّ أنهم سيأتون من أجلك بعد يومين؟ لقد حذرك والدك، ليس محبة، بل لإثبات تفوّقه الأبدي على ولده المردم الذي شرع في الصياح حتى انتبه الجميع إلى وجوده. ظننتَ بأنك تكفيك؛ كاتب وناشط، وأكثر من ذلك؛ "ولد لِعظيمي"، لديك كل ما يحتاجه المرء لكي ينجو. الثقافة القانونية، صنعة الكتابة، واسم العائلة الصحيح. فما بالك ترتجف؟

كانت ركبته ترتجف وهو يُقتاد إلى غرفةِ التفتيش. يقفُ أمام شرطي يرتدي قفازات نايلون، يشير له بذقنه؛ "إخلع!" يخلع قميصه، بنطلونه، يبقى بالسروال الداخلي، هزيلًا يرتجف. الشرطي يفتّش ملابسه، ثم يبدأ في تفتيش فمه. يطلب منه أن يجلس ويقف بشكلٍ متكرّر ليتأكد بأن مؤخرته ليست محشوة بالممنوعات. "تكسي رقّاع"، كان يسمّي الحركة، وهو يريه كيف يقبض على ركبتيه المثنيتين بيديه ليقف ويقعي مرارًا أمام أعينهم. وفيما هو يعاود الحركة مرارًا فكّر أن هذا، على الأرجح، مجرد كابوس آخر، لأنه أسوأ حتى من المرة التي أجبره فيها مدرس الرياضيات على الوقوف على ساقٍ واحدة، بعد أن ضربه بالممحاة على صلعته.

بعد أن اتضح لهم أنه ليس محشوًا بالمخدرات والمتفجرات، اقتادوه إلى مدخل السّجن. انفتح بابٌ بمزلاج، انعطفوا يسارًا. رجل عسكريٌّ يجلس وراء المكتب يسأله؛ ما اسمك؟ هل تعاني من أي أمراض؟ ما اسم أقرب شخص نتّصل به إذا حدث لك شيء؟ كان متهيّأً لتلك الأسئلة، يحفظ أجوبته جيدًا، وقد خطّط أن يذكر اسم برّاك، لكنه عوضًا عن ذلك، دون أن يدري كيف، ذكر اسم دانة. كيف فعل ذلك؟ كيف قبِل أن يأتي بها إلى السجن، بين الحرس والسجناء! الأمر برمّته خاطئ، وغير لائق، وليس من الرجولة في شيء، لكنه مع ذلك ذكر اسمها. اسمها هي؛ إذا حدث شيء لي، اتصلوا بدانة داود.

5

الهاتف يرن. شقيقك ينتظرك في الخارج، يأتيك صوته: "وصلت". تلقي على نفسك نظرة أخيرة، الدشداشة و"نسفة" الشماغ، ودهن العود الذي يتضوّع من عنقك. في اليوم الثاني من عودتك، ما عدت تحسّك غريبًا في ثيابك، كأنّك لم تخلعها قط.

– أنا ماشي يمّه.

– أمانة الله حبيبي.

ما لك تتصرّف وكأنك عشتَ هنا طوال عُمرك؟

برّاك ينتظر في السيارة. يُخفي عينيه خلف نظارتين سوداوين، وينصتُ لسورة الرحمن. تركبُ إلى جانبه، يغتصبُ ابتسامة من أجلك: "عسى نمت؟" تهزّ رأسك. تنطلق السيارة على مهلٍ إلى الديوان، تكادُ لا تصدّق أنك ستقفُ اليوم أيضًا، في ديوان آل العظيمي، وتتلقى مُصافحات وطبطباتِ المعزّين مثل أيّ فردٍ من العائلة. لقد أخفقتَ بشكلٍ ذريع في التخلّصِ من اسمك الأخير، وربما لم ترغب بذلك قط. ربّما، لهذا السبب، كتبتَ مليًا دون أن تخاف؟ كنتَ تظنُّ نفسك محميًا، لأنك "ولد لِعظيمي؟" تسأل شقيقك بدورك: "وإنت؟ عسى نمت؟" يهزّ رأسه ولا يعلّق. شقيقك يأخذ قضيّة يُتمه بجديّة. إنه يفتقد والدك فعلًا وليس مضطرًا، مثلك، لاصطناع ذلك.

– جاسم.

يستدعيك من أفكارك.

– هلا؟

– ممكن تأجل رجعتك لندن شوي؟

تشيح بوجهك. غير ممكن. يومٌ آخر في هذا المكان وتفقد صوابك. كل شيء تلمسه، كل رائحة كل لون كل أغنية.. كل شيء يؤلم.

– جاسم أمّي تحتاج أحد معاها.

ورغم أنك أخفقت مرارًا في اختبارات البرِ والطاعة، إلا أنه ما زال يعوّل عليك. يستطرد:

– أمي تحتاج أحد، وأنا لاهي مع الشغل والعيال، نورة على وشك ولادة، خايف على أمّي..

– بس..

ازدردت ريقك.

– والدراسة؟ بعد أسبوع عندي اختبارات!

ينظر إليك كأنّه لا يصدّق. لا أحد يصدّق أن غيابك مرتبط بالدراسة أصلًا. الجامعة مجرد حجة، وأنت اجتهدت بشكلٍ لافت كي تعزّز غيابك بالأسباب؛ بعد الماجستير بدأت التحضير للدكتوراه، تكدُّ للحصول على وظيفة في جامعة بريطانية بعد التخرج لئلا تجد نفسك، يومًا، مجردًا من أسباب غيابك، ومن قدرتك عليه. شقيقك يزمُّ شفتيه، كان يجاهد لئلا يقول الكلمات التي يرغب بقولها فعلًا:

– جاسم ممكن الاختبارات تتأجل كم أسبوع عادي، عندك حالة وفاة، وممكن بعد توقّف قيدك الدراسي، وتكون مع أمي هالفترة.

تضع يدك على كتفه: برّاك. كأنك توقظه من وهم:

– ما أقدر.

يوقفُ السيارة أمام مبنى الديوان. يبدو مستاءً ومخذولًا. يطفئ المحرك ويدفن المفتاح في جيبه:

– نكمّل بعدين.

يترجّل من السيارة، يسبقك إلى مبنى الديوان. على المدخل ترى أعمامك وقوفًا، في انتظار وصولكما. تحسُّ ضعفًا مفاجئًا في ساقيك، وأنت تخطو باتجاه ديوان العظيمي. هل خلتَ حقًّا أنك تستطيع التنصّل من اسمك؟ ها أنتَ عالقٌ في الأمر تمامًا، وكل ما يريده برّاك، ببساطة، هو أن يعيد الشَّعرة إلى العجين.

في زيارته لك في لندن، فوجئ برّاك بما صارت إليه حياتك الجديدة. الحياة في سكن الطلبة الرخيص. العمل في مكتبة الكلية. المعطف المطري المثقوب. كنتَ تكدحُ من أجل التفوّق، آملًا الحصول على منحة، لأن الدراسة كانت تقضي على البقية الباقية من أموالك. أموالك التي أعطاها إياك شقيقك أصلًا. دراسة وعمل وتاريخ مجهول، كان ذلك هو كلّ ما تحتاجه لتستمر في العيش يومًا آخر، لكنّ براك لم يفهم، ما الذي قاله لك يومها؟ أنت لستَ مضطرًا لكل هذا. ولكنك في الحقيقة مضطر. أنتَ مضطر

ألا تعود، مضطر ألا تقبض دينارًا من أبيك، مضطر أن ترفض الذين رفضوك طوال عمرك؛ الأب والوطن معًا، والحقيقة أنك محظوظ، فلولا شقيقك لما تمكنت من الفرار، ولبقيتَ طوال السنوات الأربع الماضية تحت رحمة الحصار المفروض على المحكومين بقضايا أمن الدولة، حاملًا وصمة "غير قابل للتوظيف" إلى الأبد؛ أن تتضوّر وسط الوليمة. لا، أنت مضطر. فالنفط لم يعد يدلّلك بحنانه، وعليك أن تعمل. أمعنتَ في تحويل نفسك إلى آلة. كنتَ تدفنُ نفسك في الحياةِ بشكلٍ منهجي، آملًا الوصول إلى ذلك اليوم الذي تفقد فيه حتى القدرة على النّدم. ولكن إذا عدتَ الآن، إذا عدتَ إلى الكويت، فسيتحوّل كل ما حقّقته إلى هباء.

– حياكم الله يُبه..

عمّك يحييك وشقيقك. يُفتحُ باب الديوان وتتذكّر بابًا آخر؛ بابًا بمزلاج. الوصول إلى السجن العمومي. تتذكّر جسدك يرتجف وأنت تمشي بين الممرات. تمرُّ بمكتب المناوبة، تُقاد إلى غرفة الحلاقة. لماذا يذكّرك ديوان العائلة، اليوم، بعنبر الإيراد؟ جلسة عربية تمتدّ من الجدار إلى الجدار، وعلى كلّ جدارٍ لوحة لأحد أجدادك، ترى البشوت والصديريات تتعاقبُ على الصُّدور كلما عدت في الزَّمن أكثر. سوف يضعون خلال الأيّام القادمة صورة لأبيك، ليصبحَ، بشكلٍ رسمي، فكرة أكثر من كونه رجلًا.

كان الهواءُ مشبّعًا بالبخور. الثرياتُ مضاءة رغم أنكم في أوّل ساعات الصباح، نظرتَ خارجًا، إلى البرحيّة المنتصبة عند المدخل. كانت في صحّةٍ جيدة، عذوقها صفراء وسعفها أخضر وجذعها نظيف. صبيُّ الديوان، شابٌ بنغالي في بدايات العشرين، يرتدي دشداشة نظيفة ونعلًا جلدية، يقدّم القهوة لأعمامك وأقاربك المبكّرين قبل قدوم المعزّين، ثم يعود إلى مقعده إلى جانب البوابة التي تبقى أبدًا، وكما تقتضي نواميس الكون الخالدة، مشرّعة على العالم. عمّك يشير لك لتقف إلى جانب أخيك، بدأ المعزّون في التوافد. كنتَ السّابع في الترتيب، بعد أعمامك وشقيقك. كنتَ الشعرة التي تعادُ إلى العجين.

تمدُّ يدك إلى الغرباء، تصافحهم آليًا وتتلقى طبطباتهم على كتفيك المتعبين. هل جُنَّ شقيقك ليطلب منك البقاء؟ الثريات الكريستالية والأرض الرخامية والباب الخشبيُّ الذي يفيض بالزّخارف، كل شيءٍ يذكّرك، على نحوٍ غير مفهوم، بعنبر الإيراد. التفاصيل تملؤك؛ تتذكر بابًا معدنيًا أزرق، على سطحه بصماتٌ من الأيدي. تتذكّر السَّجين الواقف أمام الباب، على خلافك يرتدي زيًّا أخضر. وقفتَ في منتصف العنبر تتفحّص المكان؛ صالة مظلمة، تحتوي قرابة خمس وعشرين سجينًا. السجناء جثثٌ ملقاة على الأسرّة، بالكادِ يلتفتُ واحدهم حوله ليرى ما يحدث. تسمّرت في مكانك لا تدري ماذا تفعل. لمحت أحد النزلاءِ يشير لك لتنضمَّ إليه؛ "حياك يالأخو، استريح استريح". كان السرير إلى يمينه فارغًا، جلست متفحّصًا وجه الرّجل الغريب؛ تجاعيد تنتشر على جانبيّ عينيه، شيبٌ يزحف على فوديه، أنفٌ طويل.

سألك إن كنت تدخّن، أومأت بالإيجاب. أعطاك سيجارة وقدّاحة. يسألك: "چاي؟" يسألك. هززتَ رأسك إيجابًا؛ "إي والله". "أبشر". تراه يمدُّ يده إلى قنينة بيبسي ضخمة، مليئة بالشاي الساخن. يبتسم وهو يصبُّ لك القليل في كوبٍ ورقي؛ "بعده حار ما برَد". تتلقى الكوب بامتنان، ترتشفُ شايك وتشعر أنّك قد استعدت جزءًا منك، الجزء الذي بتروه أثناء تفتيش فمك ومؤخرتك وحلق رأسك. جلستَ ساهمًا، تمسح الوجوه بناظريك. كنتَ محبوسًا في مكانٍ يجمع القتلة ومروّجي المخدّرات والإرهابيين. جارك يسألك:

– شنو جريمتك؟

– قلب نظام..

يضحك.

– سجين سياسي!

كأنَّ الأمر يستدعي الاحتفال. يُفتحُ الباب الأزرق ثانية ويدخل نزيلٌ جديد، يبدو على وشك الانهيار. تلمح ثيابَ حارس البوابة الخضراء، لماذا خيّروك بين البني والبيج فقط؟ تسأل جارك عن الأمر، يجيبك؛ "أصحاب الملابس الخضراء يساعدون الشرطة على إدارة السجن، يقيمون في عنبر الأمن". تبدو مأخوذًا بالفكرة، أن يتمَّ تطويعك لتصبح، دون أن تشعر، ترسًا في الآلة التي تحاول تفكيكها. لماذا؟ يبدو سؤالك غريبًا. يجيبك؛ لأن السّجن ممل، ولأنهم يحصلون على تسهيلات، ويرتدون اللون الأخضر. تبدو أسبابًا مقنعة. يسألك إن كنت قد اشتريت حاجاتك. تهز رأسك نفيًا. ينهض من مكانه باتجاه البوابة المعدنية، يطرقها، يفتح لهُ السَّجين ذو الملابس الخضراء، يلقّنه مشترياتك؛ فرشاة، شامبو، صابون، دشداشة، سروال.. هز الآخر رأسه مثل خادم. تنتبه أن سحنته هندية. يعود جارك إلى سريره ويجلس. تسأله؛ "هذا هندي؟" يجيبك؛ "أكثرهم هنود". وأدهشك أنَّ الأمور لا تتغيّر كثيرًا داخل السجن. يقترب منك أكثر؛ "هذا عنبر الإيراد، يسمّونه عنبر زيرو، شويّ كريه، بس إذا دخلنا العنابر يصير الوضع أحسن، هناك في تلفزيون، ومطبخ، و..."، تنظر إلى الرّجل متعجبًا. من أين له كلّ هذه الدِّراية؟ يضحك من التعبير على وجهك؛ "هذي سجنتي الثالثة". يخبرك، وكأنَّ الأمر مدعاة للفخر. تسأله؛ والتهمة؟ يبتسم بزهو؛ تاجر حشيش.

6

كان تاجر الحشيش على حق. ما إن يغادر المرء عنبر الإيراد حتى تبدأ الأمور في التحسّن. أمضى جاسم ستة أيّام هناك، لحين ظهور نتائج تحليلاته الطبيّة. في اليوم الخامس غصَّ المكان بالنزلاء حتى إن سبعة منهم لم يجدوا أسرّة شاغرة، ولا أغطية، ولا وسائد للنوم. عمل بعضهم على نتفِ جزءٍ من إسفنج فرشة السَّرير لتوسّدها ليلًا، وفي نهاية المطاف، الذين نجحوا في اختراق بوابات الأرق الصعبة، وهم قلة، وصلوا إلى النوم ممدَّدين على أجنابهم، فوق الأرض القاسية، وإسفنجة صغيرة تحت أعناقهم.

جاسم لم ينم. أمضى تلك الأيام وهو ينعمُ النّظر في المكان؛ الباب المعدنيّ بلطخات الأيدي، المغاسل القذرة، الشاي البارد في قناني الببيسي العائلية، علب السجائر شبه الفارغة، الأكواب الورقية نصف الممتلئة بالماء والسجائر والرماد، والأهم كان ساعة المكالمات؛ تلك الساعة التي يسمحون فيها بإدخال هاتف أرضي لتمريره على السّجناء، ليقوم كل واحد منهم بالاتصال الوحيد المسموح بهِ ليومٍ كامل.. اتصالٌ واحد، وحيد، بالعالم خارج السّجن. خلال تلك السّاعة، كان جاسم يحسُّ أن العنبر، بكل نزلائه، يعود ليلتحم بالوجود. وبمجردِ أن تنقضي ساعة الهاتف، يعود إلى حالة الانفصال. وفكّر جاسم أن السّجن يبدو مثل حيوان خرافي، يطفو في العدم. وهو، وكل نزلاء العنبر، مجرد طفيليات على جلدِه. راودتهُ هذه الأفكار في ليلته الرّابعة، وقرّر أنه، بعد أن يخرج من السّجن، سوف يكتبُ عن الحيوان الخرافي العجيب. وفي ذلك اليوم حدّث دانة عن خططه، لكنه عندما غادر السّجن بعد ستة أشهر، لم يكتب كلمة واحدة، رغم احتشاده بملايين التفاصيل الجارحة.

ساعة واحدة للجميع. حسبها مرّة؛ إذا قسّمت ستّين دقيقة على خمسة وعشرين نزيلًا، فإن للنزيل الواحد دقيقتان ونصف بالكاد. رغم أن بعضهم يطيب له أن يختلس نصف دقيقة من حِصَّةِ غيره. أولى جاسم كامل اهتمامه لاحتساب الوقت، وكان يفعل ذلك بالنقر على طرف السرير بإيقاعٍ ثابتٍ ثمَّ يُحصي عدد الثواني، ومن ثمَّ الدقائق، وعرفَ أنّ ضباط الأمن لا يلتزمون تمامًا بالستين دقيقة. ويمكن أن يبقى الهاتف في العنبر نصف ساعةٍ أخرى، وربما ساعة، ويحصل كل سجين على خمس دقائق كاملة. ولكن ماذا عساه يفعل بخمس دقائق؟ "إذا طلعت من الإيراد تقدر تشتري نقّال". أخبره تاجر الحشيش. نظر جاسم إلى الرّجل مندهشًا. "شلون؟" مطّ الآخر شفتيه وكأنَّ الأمر عادي. من الذي يهرّب الأجهزة؟ ابتسم الرجل: "وش لِك بكل هالأسئلة؟". تاجر الحشيش على حق. "بكم؟" فرد تاجر الحشيش أصابعه وهزّ يده؛ "يعتمد". "كم تقريبًا؟". "ثلاثة أضعاف السعر خارج السجن، غير الشاحن طبعًا، يعني إذا تبي جهاز

آيفون جديد مع شاحن ممكن تدفع ألف دينار". أراد أن يحتج؛ هذا استغلال! لكنه وجد احتجاجه مضحكًا، فهو في الوضع المثالي تمامًا ليتم استغلاله. ولكن لمَ لا؟ إذا حصل على هاتف نقال سيتمكن من الاتصال بدانة، وهذا كلّ ما يحتاجه الآن. شخصٌ ينتمي إلى العالم الخارجي يخبره أنه ما زال موجودًا، أنَّه لم يُنسَ بالكامِل.

منذ وصوله، وهو يخصِّصُ يومًا للاتصال بأمه، ويومًا للاتصال بدانة. عندما يتّصل بأمّه يكون حديدًا، وعندما يتّصل بدانة، يشرع في التصدّع. كان، بكل تأكيد، يفضّل المكالمات التي لا يضطر معها إلى التظاهر بالقوّة. ومع كل اتّصال، كانت تبدو وكأنّها تنتظره، لتسأله سؤالها المعتاد؛ "طمنّي؟" على ماذا يطمئنها؟ أنه يشمُّ رائحة الأقدام ويشرب الشاي البارد بقنينة بيبسي عملاقة؟ أخبرها أنَّه يفتقد نباح صلبوخ، وأن أظرف صحبة متاحة له حاليًا هي صحبة تاجر الحشيش. أنَّ رائحة الرجال الممددين في جنبات المكان، على الأرض والأسرّة، تشبه رائحة النكد الآسن، وأن الرائحة تصبح أسوأ عندما ينامون، وهو ليس بحاجة لقول المزيد بهذا الشأن، لأنها في نهاية الأمر "بنت" ويجب احترام ذلك. كان يضمُّ السماعة قريبًا من فمه موليًا ظهرهُ إلى بقية النزلاء، يحاول التصدّي لجماح فضولهم وهم يسترقون السمع إلى كلماته. عندما كان يبلغ بأحاديثه، هذا المبلغ، يكون النزيل الذي ينتظر عن يمينه قد بدأ ينظر إليه بغِل. فهو أيضًا يريد حصّته من الكلام، وهو أيضًا له أم، وأب على الأرجح لم يتبرأ منه تمامًا، وربما حبيبة يريدُ أن يلمس في بحة صوتها حجم اشتياقها. يستغرق جاسمُ في التفاصيل حتى ينتهي الوقت دون أن يخبرها أنه اشتاقها، أنها الشيء الوحيد الذي يجعل هذه الزريبة محتملة. يبدأ زميله بالإشارة إلى يدهِ، رغم خلوّها من ساعة المعصم، ليخبره أن دوره قد انتهى. دانة؟ هلا. لازم أسكّر التليفون، أكلمك عقب باچر. انتبه لنفسك. وانتي بعد. في كل مرة يغلق فيها الهاتفُ، ينتابه الشك بأنها، على نحوٍ ما، ستقضي الساعات القادمة في البكاء. ليس فقط بسبب سجنه، بل لأنه حتى بعد أن رمت به الحياة في قاعها، لا يستطيع أن يبوح لها بحبه. سوف ينتظر يومًا ونصف ليحظى بخمس دقائق أخرى معها، وبدلًا من أن يخبرها أنه لا يريد أن يكذب على نفسهِ أكثر، سوف يطوّع الفجيعة بالنكتة، ويحدّثها عن فرشته الإسفنجية التي تآكلت لأنه في كل مرة يذهب فيها إلى الحمام، يعمل النزلاءُ على اقتطاع جزءٍ منها.

في إحدى الليالي كان، بطبيعة الحال، عاجزًا عن النوم، وأمضى الليلة يستمع إلى تاجر الحشيش وهو يقصُّ عليه، كيف يستوردُ الحشيش الأفغاني ويهرّبه إلى البلاد بقوارب الحدّاقة. قاربٌ يلقي بالبضاعة في الماء، قاربٌ آخر لاستخراجها. يتركون البضاعة في قاع البحر. أحسَّ جاسم بالشوق يأخذه إلى صنانير صيد السمك ورائحة المرأة التي تتهيأ للحُب. في تلك الليلة، حدثه تاجر الحشيش عن العنابر؛ عنبر الجُنَح، عنبر المتشبّهين بالنساء، عنبر 2 لقضايا الشيكات والناس "الكبيرة"، وعنبر مخدرات و.. ماذا يفعلون بسجناء الرأي؟ سأل جاسم. ابتسم الرجل؛ "والله إن قلبي مرتاح لك، وإنك رجّالٍ طيب، ولو الله

كتب وجابوك عنبر المخدرات لا ألِف لك أحلى سيجارة". ضحك جاسم. سيكون ذلك رائعًا، في وسعه بالتأكيد أن يتملّص لساعة أو ساعتين من قبضة الواقع، مثل حيوانٍ خرافي يمتلئ جلده بالبراغيث. لكن ذلك لم يحدث. في الصباح التالي، أخبروه أنَّ فحوصاته الطبية قد صدرت أخيرًا، وأحالوه إلى عنبر "قضايا الشيكات والناس الكبيرة"، كما سمّاه الرّجُل، أو "عنبر 2"، كما سمّاه الأمن.

كان الأمر بالضَّبط كما وصفه له تاجر الحشيش. مطبخ يعدُّ فيه النزلاء وجباتهم، جهاز تلفزيون يعرض تغطية عن الانتخابات الرئاسية في مصر، وأسرّة من طابقين، كل ثلاثة أسرّة تصنع حرف U ويسميها النزلاء "عزبة". يُفصل بين العزبة والأخرى بحبلٍ مصنوعٍ من أكياس النايلون، يستخدم لتعليق الكراتين والشراشف. مناشف معلقة من بداية السرير إلى نهايته لتوفير شيء من الخصوصية بين سُكّان العزبة الواحدة. عرف جاسم وقتها، أن الأمر المروّع في السجن هو غياب الحق في العزلة. تمنى أن يحصل على سريرٍ سُفلي، لكنها كانت مشغولة كلها، واضطر أن يبيت في السرير العلوي، وفوق رأسه تلك اللمبة الملعونة التي لا تُطفأ أبدًا.

صعد إلى سريره، تمدد على ظهره وقرّر أن ينام حتى ينتهي الكابوس. لكنه لم ينم. وامتلأ حتى صدره بعصير الكتابة، لكنه لم يكتب. لو أنه كتبَ، لكان على الأرجح سيكتبُ عن الطرزان الذي حُبس في قفصٍ في سيرك، لأجل تحويله إلى فرجة. هذا ما يحدث للكاتب الذي يزعج السلطة، إنه يتحول إلى موعظة؛ أنت لا تستطيع، مهما فعلت، أن تفلت من النظام. كل شيء تفعله يمنحُ الشرعية لخصمك، خصمك أكبر منك، هذه اللعبة أكبر منك وأنت، مثل أطفال السياسة إياهم. لو أنه كتب شيئًا يومها، لكان كتب عن الآلة الصماء التي تسحق القلب، الآلة التي وجد نفسه أحد تروسها. لو أنه كتب لاعترفَ بالأمر ببساطة؛ لا يوجد أبطال، وكلّنا تروس.

الفصل الرّابع

المباركيّة؛ السّوق الداخلي

1

الكويت لا تتغيّر. هذا ما قالهُ في الطريق إلى المقبرة، رغمَ أن كلَّ شيء بدا له مختلفًا يومها. لكن ليس الليلة، ليس هنا. المباركية بدت كما عرفها دائمًا؛ المكان الذي يضربُ جذوره في أحشاء الحكاية، نقطة الارتكاز، النطفة التي صارت نواةَ الأرض وتخلّقت من حولها المدارات.

سار وصاحبه في الممرِّ الطويلِ المفضي إلى السوق، إلى يمينهما السقّالات وجدران الصّفيح، إلى يسارهما دكاكين لبيعِ العطور. كان الليلُ قد هبطَ على وجهِ المكان، وقد أضيئت الفوانيس المعلّقة من السَّقفِ الخشبيّ الممتدّ بطول الممر. مرّا بين الدكاكين؛ بنادق صيد هوائية، أكسسوارات شعر، عطور.. تسمّر أمام عِصِيّ الخيزران، كان في الدُّكان بضائع أخرى؛ زعفران، بخور، مفرقعات، مباخر خشبية، أشياء لا تجمع بينها إلا الصدفة، لكنَّ الشيء الوحيد الذي كان يهمّه وقتها هو العصيّ، التي عادت به إلى أبيه، عندما كان يخطر له أن يقوم بدوره في تلك العملية المعقّدة التي يسمّونها "التربية". تذكّر نفسه وهو ابن تسعِ سنواتٍ، عندما قلبَ غرفة الجلوس رأسًا على عقب، لأنه احتاج أن يجعلها أدغالًا، أراد أشجارًا وكهوفًا وجبالًا، لكنه عوضًا عن ذلك حصلَ على ضرباتٍ بالعصا على مؤخرته، وأحسَّ بخيطِ الألمِ الكاوي يسيل من عصعصهِ وحتى أمشاط قدميه. كان ذلك صيفًا، أثناء الإجازة المدرسية، وكانت درجة الحرارة تناهز الخمسين. بعد أن حصلَ على عشر ضرباتٍ لاسعة على مؤخرته الهزيلة على نحوٍ مثير للشفقة، خرج إلى الحوش، والجوع يعضُّ قلبه. أين يطلق صرخاته؟ ولماذا لا يُسمح له أن يتعرّى، ويضربُ على صدرهِ؟ ولماذا تنتأ عظام صدره على هذا النّحو الذي يدعو للرّثاء؟ وكيف عساهُ أن يوجد في عالمِ القوانين التي تفرّخ قوانين، أبناء قوانين وأحفاد قوانين، أجيال وأجيال من الممنوعات والمحظورات والمحرّمات ما فتئت تفقسُ من ملايين البيوض كالنمل والبعوض وأسماك الزُّوري. كان يريد أن يبكي، لكنه رأى البرحية الوحيدة المنتصبة في صدر الحوش وأذعنَ للفكرةِ الطارئة في رأسه. تعلّقَ بالسّعف الجاف، حاول أن يتمرجح، لولا أنه ارتطم بجذعها وسقط أرضًا. كان الغضبُ والعرقُ ينضحان من مسامِه. وكان لا يفهم، لماذا ولد في مدينة الجدران الأبدية هذه؟ لماذا لم يكن محظوظًا بما يكفي لكي تربّيه الذئاب، أو القرود حتى؟ وثبَ يضرب على صدره بيديه، تناول حجرًا وقذفَ به البيت، بيت الهدام الذي لم يُهدم ولم يرمّم قط. انكسر مربّع الزجاج الأخضر في البلكونة. دبَّ الذعر في أطرافه، وفي لحظاتٍ كان يركضُ في الشارع، حافيًا، على لسانِ الإسفلتِ، والأرض تشوي قاع قدميه. كان قد أمضى الساعات التالية مختبئًا خلفَ مبنى محوّل الكهرباء القريب، مخافة أن يهوي والده بعصاه على مؤخرته ثانية. يتذكّر نفسه الآن،

صبيًا في التاسعة، يرتجفُ من الخوفِ والحر، خلف محوّل الكهرباء، في ظهيرة قائظة من أغسطس.

– شفيك سرحت؟

يسأله نايف. يبتسم، يواصل السّير في الممرّ الهزيل، تحت الفوانيس المضاءة، بين الكراتين المرمية على الجانبين. اللافتة فوق رأسيهما تشير إلى جميع الجهات؛ سوق الذهب، سوق الحدادة، سوق السلاح.. ابتسم؛ الكويت لا تتغيّر. أحيانًا يحبُّ ثباتها هذا، وأحيانًا يكرهه. يحبُّ، مثلًا، أنَّ الروائح ما زالت كما هي، وأنَّ أسماء الأسواق القديمة لم تستبدل أسوة بكل الأمكنة التي تنصّلت من ذاكرتها. يحبُّ أن المكان يغصُّ بالنساء والرّجال والأطفال كما كان قبل ثلاثمئة عام. يحبُّ رؤية الشيبان يرتشفون الشاي على المقاعد المغطاة بمفارش السدو. يحبُّ الرسّوخ هنا، ويكرهه في كلّ شيءٍ آخر.

تقدّما خطواتٍ أخرى إلى الأمام، وامتلأ الهواء بخليطٍ من الروائح؛ هيل، بخور، بُن، وسمك. عبرا سكّة سوق السلاح وسكّة سوق الخبابيز، دون أن يصادِفا متجر أسلحة أو مخبزًا. كان متجر البنادق الهوائية الذي رآه يقع في سوق الطَّحين. وقد صار وراءه الآن. وجد نفسه يبتسم رغمًا عنه؛ تعال الآن وسمِّ الأشياء بأسمائها يا أبي! أراد أن يقول، لولا أنه ترك نفسه يتبع رائحة السَّمك، بعد أن فكّ اشتباكه بالبخور والبن والهيل.. وصولًا إلى مدخل سوق المباركية.

وإذ كان يخطو داخل السّوق، استرق نظرةً إلى صاحِبه وهو يفكّر بأنها لم تكن فكرة سيئة على الإطلاق، أن يأتي به إلى هنا، بعد أربع سنواتٍ من التضوّر على أرصفة الكامدن لوك، أمام النهر الكابي، مع قنينة بيرة وسمّاعات أذنيه، يحاول أن يصطنع البلاد اصطناعًا، أن يستجلبها إلى منفاه، أو الوجه الذي يحبّه منها؛ رائحة البحر وصوت عالية حسين تحديدًا، تغنّي له؛ يا نديم الرّاح. ولو كان بإمكانه أن يقتلع دانة، الغبية، من الكويت، لذهبا كل سبتٍ إلى الهايد بارك لإطعام البط. لكنَّ أمورًا كهذه لا تحدث في الحقيقة. ورغم أنه كائنٌ وحشيٌ ينفرُ من البشر، إلا أنَّه يحب زحام المباركية، ويحب تزاحم الأجساد في المظاهرات والمسيرات، زحامٌ ينتمي إليه المرء بكل سرور، ويأمل بأنه إذا ما انساب في إيقاعهِ، سوف يتلاشى في أعماقه وينعتق من ألمِه. هذه فكرة صوفية، فكّر؛ هذه فكرة صوفية وأنت كائن عقلاني؛ أنتَ لن تشطح عن عقلك مهما حصل، أنت أكثر خوفًا من أن تفعل، ولكن.. وقف أمام متجرٍ لبيع أواني الطبخ، أباريق الشاي والقدور والإستكانات. "علامك وقّفت؟" يسأله نايف. أشار إلى أحد أطقم تقديم الشاي؛ "أشتريه لأمّي؟" جذبه صاحبه من ذراعه. "بعدين". كان صاحبه مستعجلًا، وهو.. أراد أن يتمهّل في المشي، أن يتفتّت في التفاصيل، أن يغيب. "وين رايح؟" يسأل صاحبه. أشار بيدِه؛ "بعد قدّام".. إنه لا يريد إخباره، ولكن بأيّ شيء؟ فهو يعرفُ هذا المكان مثل باطنِ يده، وفي وسعه أن يسير فيه مغمضًا وأن يستدل على كل حجر، كل دكان، كل طبق مشاوي وكل كشك سمبوسة وكل خيشة متوت وكل خيزرانة. كان يعرفُ أنَّ نايف يأخذه إلى "كشك مبارك"، وأن هذا هو الغرض من الأمر برمّته، أن

ينتزعه من واجبات العزاء بعد مغيب الشَّمسِ مباشرة، ويحضره إلى هذا المكان، إلى النواة التي تتّسعُ من حولها المدارات، ولكن، اللعنة! إنه سعيد، ولأول مرة منذ عودته، يشعر أن ألمه يتراجع إلى الصُفوف الخلفية، وأنَّه يمتلئ ببهجةٍ غير مفهومة بمجرد النظر إلى أوعية البهارات؛ بودرة فلفل أحمر، كمون، لومي مطحون.. شفقٌ أرضي. تحت أوعية البهارات رأى تنكات مليئة بمسحوق الحناء؛ خضراء وسوداء. أقِط، زهورات تركية، كركديه مصري، زعتر إيراني، فلفل أحمر مجفف.. إذا لم تكن هذه هي الجنة، فماذا عساها تكون؟ اقترب من جدارٍ علّقت عليه مسابيح الكهرب وقلائد اللؤلؤ. مرة أخرى يراوده ذات الخاطر؛ أشتري لبرّاك وأمّي. يحسُّ نفسه سائحًا في مكانٍ يخطفُ قلبه، ويشتهي أن يمرّر بهجته لكل الذين يحبهم، أمه، برّاك.. وفي زمن آخر، كان سيشتري شيئًا لدانة. خاتمًا فضيًا يعلوه فصٌ من الفيروز، مثل هذا.. سرت في رأسه كهرباء غريبة، هبطت سريعًا إلى بطنه وهو يتذكّر صباح ذلك الجمعة؛ أصابعها الصغيرة تلتقط الخاتم وتسأله "حلو؟" كان يتصرف بلؤم متعمّد، لأنها جاءت معه بتلك الكنزة الضيقة. اللعنة عليكِ. كان عليها أن تحترم مشاعره، مشاعر الرّجل الذي.. أي رجل؟ الحبيب؟ الصَّديق؟ هل اتخذتَ قرارك بهذا الشأن أصلًا؟ ونحنُ هنا نتحدث عن الواقع وليس عن أحلام يقظتك. أشاحَ بوجهه بعيدًا عن الخواتم الفضية وفصوصها. لن يفكر في دانة، ليس الآن، خاصة بعد أن أمضى عشر دقائق كاملة دون أن يحسَّ نفسه مثبّتًا إلى كرسيّ التعذيب المدعو ذاكرته. واصل السَّير حتى وصل إلى سوق الخضار والفواكه. بدا نايف أقل إلحاحًا وهو يرى المباركية تفعل فعلها فيه. اقتربَ من أحد الباعة؛ رجل عظيم الشارب، طويل الشعر، بطاقية رأس ودشداشة زرقاء باهتة، يدعوه لتجربة التّين؛ بنفسجيٌ وطريٌ ومليءٌ بالعصارة. يذوبُ في فمِه، حبيباته الناعمة تنتشرُ على لسانه وتسرق حواسّه. "بكم الكيلو؟" يسأل الرجل، ولكن الآخر يتجاهله؛ "بعدين!"، ويدعوه لتجربة العنب، والفراولة. يتناول الرّجل رمانة ويفضخها، يقدّم له حُبيباتها داكنة الحمرة. قال، هذه المرة سأشتري لأمّي.. وتذكّر أنها لا تأكل، تخاف أن تأكل قبل أبيه الذي لن يأكل شيئًا بعد اليوم. اشترى تينًا وعنبًا. وأحسَّ بحنانٍ مفاجئ يملؤه لسلة مليئة بالباميا.

انعطفا يمينًا. مرقا إلى جانب متجر لبيع الحصير والسِّلال. سارا بين محالِّ الزيتون والأچار والمخللات. شعر جاسم بريقه يسيل ويملأ فمه وهو يتنشق ضوْعَ الخلِّ في الهواء. انعطفا إلى ممرٍ تحفُّهُ طاولات عامرة بالمشاوي وحميسة السمك وخبز التنور. رأى صحونًا مليئة بالبصل الأبيض والجرجير وفكّر بأنه مستعد لدفع حياته الباقية كلّها (وهو لم يغتبط قط لفكرة وجوده على قيد الحياة أصلًا) من أجل عشاءٍ مثل هذا؛ حمسة ربيان، ماعون مشاوي مشكلة، وخبز تنور.. لكنه يريد أن يتخلّص من صاحبه، كي يمشي بسلام أمام المتاجر التي تبيع الجوارب الملونة والإزارات المقلّمة والدشاديش البيتية المخططة، وأكشاك التمر والدّبس، ولكنه، رغمًا عنه، غادر هذه الجنة الأرضية بملذّاتها اللانهائية إلى ساحة كشك مبارك، إلى المكان الذي بدأت منه كل الحكاية.

2

– والله إني كنت عارِف!

قال لصاحِبه وهو يلكزه. ولم يقل أكثر، رغم أنه أراد ذلك. شيئًا على غرار؛ أعرف بماذا تفكّر يا كلب، تعتقد أنَّ رؤية الكشك من شأنها أن تضخَّ في عروقي ذلك المخدّر الذي يسمّونه الإيمان. الشيء الذي يتلاشى من دم المرء عندما يرى المشنقة، ويمضي الساعات في عدِّ النمل في زنازين الانفرادي. أنا سعيدٌ لأنك لم تفقد الأمل بي تمامًا، ومبتهج بهذه المحاولة الهزيلة، المثيرة للشفقة، والطريفة حقيقة، لإعادتي إلى حظيرة المناضلين. سعيدٌ بزيارة كشك الحكم القديم. أتخيّل أن أهل البلاد الأوائل كانوا ينظرون إلى هذا البناء باعتزاز، وربما بشيء من الدهشة؛ أول بناءٍ من طابقين في عالمٍ من بيوت الطّين. يظنُّ نايف أنه يذكّرني بما نسيت، ولكنني لم أنسَ. وهذي البلاد موشومةٌ في جدار صدري، تحت طبقاتٍ وطبقاتٍ من الزّفت الأسود.

اشتهى سيجارة فجأة.

وقف الاثنان بصمتٍ، ينظران إلى البناء العتيق بكل المراحل التي عاشها؛ أول مقر للقاء الحاكم برعيّته. ثمّ أول محكمة. وأول إدارة للبلدية. ثمّ: مكتب تسجيل الغواصين. وبعد ذلك: مقر إدارة البريد. بعدها صار مصوّرًا، ومطعم سمبوسة. وأخيرًا؛ متحف.. إذ ينبغي تجميد الذاكرة في نقطةٍ ما. يجب أن نمتلك كلنا القدرة على النظر إلى الوراء، ورؤية الماضي مثل شيءٍ مكتمل، قائم بذاته. وفكّر جاسم بأن هذه بالضبط هي مشكلته؛ أن ماضيه لم يمت. إنه يضربُ بجذوره في صدره وكبده وفصوص رئتيه. إنه ماضٍ حيٌّ، ماضٍ حاضر، وهو يحتاجُ أن يجمّده، أن ينظر إليه من وراء زجاجة عرض، دون أن يشعر بالألم.

نظر إلى صاحبه وابتسامة ساخرة تشقُّ طريقها إلى فمِه: «ها؟» أشعل نايف سيجارته المارلبورو. نفث الدخان من منخريه كثيفًا. نظر إليه بعينين فارغتين: «علامك؟» لم يكن جاسم يتوقع ذلك. كان ينتظر موعظة من نوعٍ ما، كلمات تستتيبه، تذكّره بما كان عليه؛ كاتبٌ يؤمن بالكلمات الكبيرة، ويعيد تسمية كل الأشياء.

– بس؟

– وش اللي بس؟

– ما عندك كلام تقوله؟ نصح؟ مواعظ؟ خطب عصماء؟

ضحك نايف.

– لا والله..

– وصار لك ساعة تجرجرني بين المحلّات عشان توقف عند الكشك وتولّع زقارة يالتعبان؟

ابتسم نايف.

– أنا ما جبت سيرة إني رايح الكشك.

– مو علي أنا هالحركات.

– ياخي أبي چاي.. إنت ما تبي چاي؟

قال ذلك، ثم أولى ظهره لصاحبه ومشى باتجاه السوق الداخلي. تبعه جاسم، وهو يتمتمُ بالشتائم. أحسَّ أن صاحبه يتلاعبُ بعقله، وقد وجد نفسه يمشي خلفه بين محلات الصِرافة ومتاجر العطور، يعبئ صدره بضوْعِ البخور الآتي من شِماله. قطعا الشّارع، وعبرا إلى جانب أحد المقاهي، واشتمَّ جاسم في الهواء رائحة الكركِ والقهوة التركية، اختلس نظرة إلى الطاولات العامرةِ بالزيتون والجبن الأبيض والمكدوس. سال ريقه. لكن ليس الليلة. خطة الليلة هي حمسة ربيان، ماعون مشاوي مع خبز التنور ورؤوس البصل الأبيض، وكأسين مترعتين بلبن عيران.

دخلا ساحة السّوق الداخلي. كانت معظم المحال مغلقة، والممرُّ شبه خالٍ، هادئٌ على نحوٍ مزعج. أعرفُ ما يدور في رأسك! فكّر جاسم. فصاحبه يعرفُ أن وجوده هنا سوف يذكّره بأحاديثهما أيّام الحراك، في كل مرة جاءا فيها إلى هذا المكان لشرب الشاي وأكل الكباب وتدخين الشيشة، كانا يستذكران التاريخ الذي لم يشهدا حدوثه، ويخيّم عليهما خشوع المؤمنين. كان وقتها يحسُّ نفسه امتدادًا لما حدث قبل عقودٍ خلت، مجرد حلقة أخرى في نضالٍ قديم. حتى والده، العم عبد المحسن براك العظيمي، قبل الصّدع وقبل الصّمت، كان يقصُّ عليه، وعلى أخيه وأبناء عمومته، حكاية الرّجل الذي قيل أنه سُحل من هذا المكان، إلى ساحة الصّفاة، قبل ما يربو عن السّبعين عامًا، قبل أن يُعدم رميًا بالرّصاص، ويُصلبُ ليوم كاملٍ، ملطّخًا بدمِه. كان ذلك في أيّام البلاد المبكّرة، يحفظ جاسم تلك المعلومات جيدًا، المعلومات التي لم يدرسها في المدارس، بل توارثتها الذاكرة بصمت. أول اصطدامٍ شعبي مع السلطة. وقف جاسم لوهلة وسيجارته متدلية بين أصابعه، يحاولُ أن يتصوّر ما حدث يومها. البراح الشاسع، الهادئ المظلم، امتلأ

فجأة بضجيج إطلاق النار وبمرأى الرجال الأوائل يحملون بنادقهم ويتراكضون بين الدكاكين، يسقط واحد، يجرح آخر، يعدم ثالث، يسجن البقية لخمس سنواتٍ. لم يكن ذلك تاريخًا قديمًا في عمر الدول، سبعة وسبعون عامًا ليست شيئًا.. ولكن بالنسبة له، كانت شيئًا. أحسَّ نفسه في تلك الأيام وريثًا لأولئك الرجال، الذين عاشوا في بيوت الطين، واشتغلوا في صيد السمك واللؤلؤ، ومع ذلك أرادوا الشيء الذي عرفوا اسمه لاحقًا؛ الديموقراطية. زفر. «اللعنة عليك يا ابن الكلب». همس لصاحبه، متأكدًا من أنه يقرأ أفكاره جيّدًا، وعوضًا عن أن يردّ عليهِ الآخر، أجابه ببساطة: «الله يرحمهم».

«سرينا؟» نايف يسأله. ولكنه فقد فجأة رغبته بشرب الشاي. لمحَ على يساره متجرًا لبيع الأنتيك، ودخل كأنَّ ثمة من يناديه. كان متجرًا صغيرًا، امتلأت أرففه بكراكيب الماضي؛ أواني صينية مزيّنة بالعلم الكويتي الأحمر القديم، «بشتختة» عتيقة. أسطوانات لعبد الله الفضالة كتب عليها؛ يا حبيبي بس بس من العذاب. شخصيات حرب النجوم. نياشين وأنواط عسكرية، و.. توقّف قلبه؛ مكاحل! مكحلة نحاسية كتلك التي رآها في حلمهِ صباح وصوله، مكحلة كتلك التي حملتها دانة بأصابعها الصغيرة في سوق الجمعة، وفي منامِه، عندما أخذت كل خليةٍ من جسده في الارتعاش. الآن فقط فهم حلمه؛ لقد حلمَ بأنه مكحلة.

توقّف أمام الرّف وأمسك بواحدةٍ، لم يجرؤ أن يسأل البائع المنهمك في صفِّ الكاميرات القديمة على الأرفف، عن السّعر. لن يجرؤ أبدًا على أخذ هذا الشيء اللعين معه إلى البيت، إلى غرفته التي تستوحشُ في الصّمت، ومن ثمَّ إلى سكنه البائس في لندن. لن يفكّر في أمر دانة. لن يفعل ذلك، على وجهِ الخصوص، ما دام في الكويت. لو كان بإمكانه أن يدفع عمره ثمنًا كي يستعيد تلك اللحظة، لفعل. لكان تبعها في ذلك اليوم، قبل أن تخرج من باب الكنيسة. لكنه فكّر يومها، أنَّ الأمر هكذا أفضل لها. أن حياتها ستكون أحسن من دونه، ومن دون صهيل آلامه الجوانيُّ الذي كانت تسمعه وحدها. أحسَّ بالضيق يطبق على صدرهِ، وأخذت راحتاه تتعرّقان. سأل نفسه؛ لماذا افترضتَ، في الأصل، أنك الأدرى بمصلحتها؟

– جاسم علامك؟

التفتَ إلى صاحبهِ، ينظر إليه مشفقًا. يعرفُ أنَّ كوّة سوداء لعينة تبتلعه.

– شنو؟

– لي مدّة واقف، أكلمك ولا تسمع..

وضع نايف يدهُ على كتفه.

– تعبان؟

– أبي أدخّن.

خرجا من الدّكان. متجر الذاكرة الملعون، متحف الماضي الذي، رغم وجوده خلف الفاترينات الزجاجية، يؤلمُ جدًا. عندما خرج إلى باحة السّوق الداخلي، أحسَّ بوهنٍ في ساقيه، وصار يجرّهما جرًا إلى أقرب دكّة تصلح للجلوس. خرَّ قاعدًا وهو يقبض على رأسه بيديه. لم يعلّق نايف بكلمة، تركه لدقائق ودلف يسارًا، ثمَّ عاد وبيدهِ استكانتيّ شاي. همهم نايف بأن هناك مباراة حامية في لعبة "الدامة" تجري الآن. ثم أخذ رشفة من إستكانته، وسأل صاحبه: "إي، وشلونك بعد؟" أحس جاسم باعوجاجٍ يعتلي فمه. كان وجهه يرتدي تلك الابتسامة الشائهة، الطافحة مرارة. شتمه وشتم أهله. قذفه بكلّ كلمةٍ نابيةٍ عرفها في حياته؛ شتمه في شرفِه وفي رجولته، تلك الشتائم التي كانت تنزلق من فمِ أبيه مع كل نشرة أخبار وكل مانشيت في جريدة. وبدلًا من أن يغضب، أخذ نايف يقهقه.

3

عندما عرف جاسم بما حدث، كانت قد مرّت ثلاثة أيام.

حدث الأمر يومَ الجمعة، وهو يثملُ كلَّ جمعة، وكلَّ سبت، ويثملُ أكثر كل أحد، لأنَّ الطريقة الوحيدة للتخلّص من آثار الشرب هي أن تشرب أكثر. ثمَّ يصحو صباح الاثنين ويستأنف العيش بالشكل الوحيد الذي يعرفه؛ يدرس ويعمل ويفعل كل ما يحتاجه المرءِ كي لا يفكّر في حياته. لم يكن واعيًا بالشكل الذي اتخذه للحياة في لندن، لكنه أصبح يرى الأمر بوضوحٍ من هنا، جالسًا على الدرجات الإسمنتية في ساحةِ السوق الداخلي، ينظر إلى الأمر من بعيد.

في صباح الاثنين، متأخرًا ثلاثة أيّام، انتبه إلى ما يربو عن عشرين اتصالٍ لم يُرد عليه من نايف. كان صاحبه من بين القلّة التي تعرفُ رقم هاتفهِ في منفاه الاختياري، إضافة إلى عائلته، ودانة التي لم تتصل به قط. أحسَّ بجفافٍ في حلقه وهو يعاودُ الاتصال، سرعان ما وجد نفسه محاصرًا بأسئلة صاحبه؛ "جاسم وينك؟ ليه ما ترد؟ صار لي يومين أتّصل فيك! فيك شي؟" لم يكن يفهم، تلعثم؛ "وين بكون يعني؟" ولكنّ نايف أراد أن يعرفَ مكانه بالتّحديد؛ "إنت وين؟ في السّكن؟" تخرج الكلمات متعثرة من فمه؛ "شوي وأروح الكلية، شصاير؟". "في أحد معاك؟". بدأ صبره ينفد؛ "شفيك نايف؟ خلّصني!". صمت صاحبة لحظة. "جاسم سمعت الخبر؟" ولم يفهم. "أي خبر؟".

صمت نايف. عرف أن صاحبه لم يعرف بالأمر. ولم يشأ أن يكون الشخص الذي سيحملُ إليه خبرًا كهذا.

– ما شفت تويتر؟

– لأ.

جاسم يكره تويتر مذ سُجن، مذ رأى نفسه مسحولًا على صفحاته، موسومًا، يُرشق بتغريدات التكفير والتخوين والإخراج من الملّة. لا، لم يقرأ شيئًا على تويتر، لقد كان سكرانًا على أية حال وهو يعرف أن عليه ألا يكتب شيئًا عندما يسكر، فآخر مرة فعل فيها أمرًا مماثلًا، دمّر كل شيء.

"جاسم في خبر". يكتسي صوت صاحبه بضعفٍ غريب. "شصاير نايف؟" يعاود السؤال. "أمرَ الله". يقول صاحبه، وهو يعرفُ بأن أمر الله لا رادَّ له. اختضّ قلبه. جلس على طرف الأريكة، يزدرد

ريقه. وجد نفسه يستبق الأمر؛ أمي؟ أبوي؟ صمت صاحبه لحظة، ثم خرج صوته مشروخًا:

– دانة.

لم يفهم.

– شفيها دانة؟

لأن هذا الشيء لا يمكن أن يحدث. إنها لا يمكن أن تفعل ذلك بِه، وهو يحتاج إلى فكرة وجودها في ذاتها، في المجرة نفسها، على الكوكب نفسه، في هذا العالم البائس الذي يستحيل على المرء أن يتصدى له وحيدًا. يقول له نايف؛ دانة عطتك عمرها، وهو ينتظر تتمة للجُملة. نعم يعرف، أن دانة أعطته عُمرها، قلبها وعينيها، يعرفُ أنه خذلها، ولكن لماذا يتّصل به صاحبه لتوبيخه بعد سنتين؟ كان ينتظرُ التتمة، لولا أنها لم تأتِ. لقد كانت جملة تامّة على نحوٍ لا يغتفر؛ دانة عطتك عمرها. نقطة.

حدّق شاخصًا في الجدار. امتلأ رأسه بطنينٍ غريب. لم يعد يسمع شيئًا. "جاسم؟" نايف يناديه؛ "ياخوك ارجع، تعال الديرة.. لا تظل لحالك بهالوقت". أقفل السماعة في وجهِ صاحبه المعتوه، الذي يتفوه بالحماقات، وألقى بالهاتفِ من يدهِ، ثم جلس على سريرِه، أمام جهاز اللاب توب، وأرسل بحثه للمدرّس المساعد، ثم ذهب إلى الجامعة، وسار بين ممراتها دون أن ينبس بكلمة. دخل الفصل، حدّق في وجه البروفيسور المحاضر، ولم يسمع شيئًا، لأنَّ الطنين في أذنيهِ لم يكف. الطنين اللعين لم يكفَّ لأيامٍ وأيام. ورغم أنه قرأ النعي لاحقًا في الجرائد على الإنترنت، ولمح بضع تغريدات عن حادثٍ أدّى إلى مصرع فتاة في العشرين، ورغم أنّه التقط هاتفه، بعد سنواتٍ أبدية من الصَّمت، وطلب رقمها مئات المرّات، دون أن ترد، رغم أنه أرسل لها مئات الرسائل النصية يشتمها "ردّي عليّ يا بنت الكلب"، متبوعةً باعترافاتٍ لا معنى لها، مثل "تعالي لندن"، ومثل "نتزوج؟" وأشياء تأخر عن قولها كثيرًا، رغم أنها ماتت، كما تشير جميع الدلائل، إلا أنه لم يصدِّق الأمر. جاسم لا يصدق تويتر، ولا الجرائد، ولا عينيه، لا يصدّق وزارة الداخلية ولا الصحافة والإنترنت. دانة لا يمكن أن تموت. لأن خطته تقتضي أن تكون في انتظاره إلى الأبد، وهو يمشي في شارع بورتبيلو، بين متاجر الأنتيك، يبحث عن مكحلةٍ نحاسية شبيهة بتلك التي..

ثمَّ جاءت اللحظة التي توقّف فيها الطنين، وبدأ فيها البكاء. كان عائدًا إلى شقته ليلًا، سكرانًا كما لم يسكر في حياته، عندما خرَّ على ركبتيه، وجأر مثل حيوانٍ، وأطلقَ من فمِه اللعنات. نايف لن يفهم أبدًا أنَّ الأمر استغرقه أسابيع ليصدّق ما حدث، فكيف يمكنه أن يحضر جنازتها؟ وهي هي؟ وهو هو؟ نايف لا يفهم. لا أحد يفهمه، لا أحد إلا دانة.

جاسم لن يحضر جنازة دانة تحت أيّ ظرف. إنه لن يقفَ بين أشقائها وأقاربها ملثّمًا بغترته لكي

ينتحب على قبر الفتاة التي أحبها ولم يحبها، لكي يسأله الجميع عمّن يكون، ويعجز عن الرّد. من تكون يا جاسم؟ هل ستملك وقتها الشجاعة الكافية كي تكفّ عن اللعب، وتسمّي الأشياء بأسمائها؟

"كان ودّي أكون معاك يومها"، قال نايف، وهو يطفئ عقب سيجارته في الدكة. "بس منع السّفر". "أدري". قاطعهُ جاسم. "وإنت ما كنت ترد على التليفون". هزَّ رأسه وزمّ فمه. يتذكّر تلك الليالي التي قضاها يئن محمومًا، أو يمشي تحت المطر، أو يسكر بزجاجتين كاملتين في ليلة واحدة. يتذكّر أنَّه مرض، سَقَطَ في الظلام، لم يرد على الهاتِف، أنَّ شقيقه اضطر لترك عمله للسفر إليه. قضى معه عشرة أيام، دون أن يفهم بماذا يهذي أخوه في الليل، ولماذا يرتعد بهذا الشكل، ولماذا يبدو عاجزًا عن الأكل والنوم والدراسة والعربدة. سألك براك يومها؛ "تحب؟" فابتسمتَ ابتسامة بلهاء، وأشحت كي لا يرى دموعك. أخذ براك يحلف لك، برأس أمّه وأبيه، أن كل ما عليك فعله هو أن تعطيه اسم البنت، وأنه سيبذل كل جهده لإقناع والديك بالزواج، لكنك تعرف الواقع أفضل منه؛ أنت جاسم العظيمي وهي دانة داود. أنت حيٌّ وهي ميتة.

ما الذي يريد نايف معرفته؟ ليس لديه ما يقوله في هذا الأمر تحديدًا، فهو في نهاية الأمر كاتب، نصفُ كاتب ربما، لكنه يعي تمامًا حدود اللغة، ويعرف أنَّ ثمة معانٍ لا تستطيع حشوها في كلمات، مثل تلك الصرخات الحيوانية التي كان يطلقها من صدرِهِ في الليالي، وهو يدفن رأسه في الوسادة ويحتجُّ، بطريقته العاجزة المثيرة للشفقة، على الحياة غير العادلة.

4

– جاسم، سنين مرّت على اتصالي فيك بلندن.. ومن ذاك اليوم ما سألتني شلون..

يشيح بوجهه عن صاحبه. ينظر أمامه، إلى ديوانية الرّعيل الأول، يتناهى إلى مسمعه هتاف المشاركين في بطولة لعبة الدامة. الأمر لا يعني شيئًا. يعرفُ جاسم أنها قضت في حادث، ويعرف أن حقيقة فقدها تحجب جميع الحقائق، ومثل هذا العالم العبثيّ، يبدو رحيلها بحادثِ سير مثل شاهدٍ آخر على صحّةِ فكرته؛ هذا الوجود عديم المعنى، وإصرارنا على منحهِ المعاني هو مصدر شقاءٍ لا يحد.

– مابي أعرف.

منذ تلك اللحظة قرّر أنه لا يريد أن يعرف أكثر. أن الأمر أكبر منه، الأحمق وحده يظنُّ أن في وسعه أن يهزم الماضي. منذ أن عرف بالخبر، أصبح لحياته هدفٌ واحد؛ أن ينسى. لكنه هنا الآن، على عتباتِ السوق الداخلي في المباركية، يتذكّر كل الأشياء. ما كان عليهِ أن يعود. ومثل المِردم الذي يصطاد نفسهِ بنفسه، كان قد وقع في الفخ الذي لم ينصبهُ له أحد.

هل تعتقد بأن ثمة حياة بعد الموت؟ سأل صاحبه. استلَّ نايف نفسًا من سيجارته وابتسم؛ أعتقدُ أن العدالة تقتضي ذلك. صعّر جاسم خدّه. الكلمات الكبيرة تبدو له مجوّفة، مفرغة من المعنى. نايف يعوّل على العدالة الإلهية، أما بالنسبة له، فهو يعوّل على فنائِه، على اللحظة التي يكفُّ فيها هذا الجرح، "جرح الوجود" ذاته، عن إيلامِه.

– جاسم..

ينظر إليه نايف، بتوجّس، ثم ينكّس رأسه ويصمت، كأنَّ الكلمات تموتُ في فمِه. "جاسم أنا أدري إنّك منت حاب تتكلم عن الموضوع، بس ودّي أسئلك..". ازدرد ريقه؛ "أحتاج أعرف". ولم يفهم، ما الذي يهمُّ نايف في الأمر برمته، ولماذا يحتاج أن يعرف شيئًا يخصُّ دانة، ودانة في الأصل تخصّه وحده، حتى لو كان ذلك غير صحيح. "شتبي تعرف؟"، وفوجئ بكمِّ العدائية في سؤاله، كأن صاحبه يتطفّل على شؤون لا تخصّه. لقد كان الصديق الذي تتصل به دانة للاطمئنان عليهِ أثناء المظاهرات، وهذا كل ما هناك. "أبي أعرف".. أطفأ السيجارة على العتبة. "أبي أعرف، دانة قالت لك شي قبل ال... ال..". لا أحد يستطيع إتمام جملةٍ كهذه، ولا حتى نايف. هزّ رأسه نافيًا. نظر إليه صاحبه وكأنّه لا يصدّق؛ "معقولة؟"

استلّ نفسًا من سيجارته، أرسل عينيه بعيدًا في الممر الذاهب في الليل. زفر؛ كان موقفها واضحًا، أنا اخترتُ الرحيل، وهي اختارت الصّمت، ظننتُ في البدء أنها ستضعف، وتعاود الاتصال، لكنها لم تضعف إلا مرّة أو مرّتين خلال سنتين.. في إحدى الليالي أرسلت لي تشتمني، وعرفتُ أنها طريقتها في أن تخبرني بأنها تشتاقني. وأنا كنتُ أشتمها بالمثل، ثم يعود الصّمت. في مرّةٍ وحيدةٍ أرسلت رسالة قصيرة، قالت إنها خائفة، وسألتها ممّ؟ فقالت إن العالم وسخ، وأنا اختبرتُ وساخة العالم عن قرب، ولم أجد جديدًا في الأمر. لكن كلينا حاول بقدر الإمكان أن يحجب عن الآخر أخباره. في البداية كنتُ أتلصّصُ على حساباتها في تويتر والانستغرام، ولكنها لم تكن تقولُ الكثير، وكانت تكتفي بكلماتها الصغيرة المتهكّمة، وتضع روابط لأغنيات نوال على اليوتيوب. نوال تغنّي داخل رأسي ولا أستطيع سماع ألبومها الجديد، ليس من دون دانة.

في الأشهر الأولى حرصتُ على مراقبة مزاجها، كنت أظنني قادرًا على الإحساس بكل ما يراودها، وكنت أقيس درجة اشتياقها من طبيعة الأغنيات التي تضعها في صفحتها. ولكن شهرًا بعد شهر، أصبح الأمر أصعب، وبتُّ أشعر بالغربة، وكانت الغربة أسوأ من الفقد، ثمَّ عجزتُ عن قراءتها تمامًا، وصرت أنظر إلى صورها كما لو كانت لغزًا، ووجدتُ أنها على حق. ستكون الصداقة مؤلمة مع كل هذه المسافة، وصرتُ أتحاشى معرفة أخبارها، ألغيتُ حساباتي على تويتر والانستغرام، وغبتُ.

مرّة أخرى، كان يسميها صديقته ويحسُّ بالكلمة تخرج جثةً من فمه. أحسَّ بعيني أبيه الحمراوين تحدّقان في روحِه؛ الكاتب يسمّي الأشياء بأسمائها. وأنتَ لم تخف من السجن، ولا من الحكومة، ولا من رجال الدين، ولا حتى من أبيك.. ولكن ها أنتَ، يا مسكين، ترتجفُ خوفًا من الحُب.

– متى هالكلام؟

قاطع نايف صمته. أحسَّ جاسم بتوجّس صاحبه. عقد حاجبيه يحاول أن يتذكّر. "ما أذكر". "حاوِل". "قبل سنتين". "متى تقريبًا؟" نظر جاسم إلى صاحبه وكأنّه لا يفهم؛ وما أهمّية ذلك؟ لكنه وجد نفسه منساقًا وراء رغبة نايف. أخرج هاتفه من جيبه، ارتعشت يده وهي تستدعي الاسم من غياهب صمتِ سنواتٍ أربع. عثر على التاريخ، آخر رسالة أرسلتها كانت قبل الحادث بشهرٍ واحد. أحصيا الأيام معًا، هزّ جاسم رأسه؛ هذا لا يعني أي شيء. أعاد الهاتف إلى جيبه.

المعنى مجرد فخ، والشيء المنطقي الوحيد بالنسبة له هو الصُّدفة.

5

أخرج نايف هاتفه من جيبه. فتح ملفَّ الصّور، ثم أعطى الهاتفَ لجاسم. "شوف". قال وأشاح بوجهه.

كانت صورة لحسابٍ وهميٍّ على تويتر، يسمّي نفسه "#فضيحة_دانة_داود"، يضع صورة لقناع ڤنديتا. كانت تغريداته في البداية على شاكلة "توني عرفتك زين، تلعب على الحبلين"، و"يمّه يالبارع، قويّة العين، يبيلها رَجْلين"، ولاحقًا، تحوّلت إلى تلميحات بذيئة عن عناقاتٍ في الكنيسة، سبابٌ وقذفٌ، تعليقات نابية عن جسدها، وتهديدات بنشر صور. كان، أحيانًا، ينشر مقاطع فيديو جنسية، ويغرد في الوسوم الأكثر رواجًا على تويتر، ويدخل على حسابات المشاهير داعيًا إياهم لمتابعته، وأخيرًا كتبَ لها؛ "حبيبتي دانة.. صورك دزيناها للخروف عشان يعرف حقيقتك"، وفي إحدى المرات "الخروف طلع ذيب"، ثمّ؛"طلعتي إنتي الخروف" "ولا بقرة؟"، وكانت آخر رسائله؛ "باچر العيد بنذبح بقرة".

أحسَّ جاسم بخدرٍ غريب في رأسه، وتنمّلٍ يهبط حتى يديه. عاوده الطنين القديم ذاته. "شنو هذا نايف؟" خرج صوته مرتعشًا، مبحوحًا، بالكاد تماسكت الحروف في كلماته. اهتزّت أصابعه وهو يتصفح التغريدات التي قام صاحبه بحفظِ صورٍ لها، وهو يتخيّل ما كانت تحسُّ به دانة، دانة الهشة القابلة للكسر أبدًا، وهي تقرأها. "وقتها أرسلَتْ لك إنها خايفة". علّق نايف. اغرورقت عيناه، أحسَّ بالكلمات تتحجّر في حلقِه. كانت الأسئلة تتوالد في رأسه، سؤالٌ يفرّخ آخر، وآخر، وآخر؛ من هذا القذر؟ وما الذي يريده؟ ولماذا دانة تحديدًا، من بين نساء الأرض؟ ما الذي يقصدهُ ب. فضيحة دانة داود، ومن هما الرّجلان، ومن أين يعلم عن لقاءاتهما في الكنيسة.. كل هذه الأسئلة تدافعت داخل رأسه، لكن سؤالًا واحدًا منها وجد طريقه إلى فمه:

– دانة كانت.. كانت على علاق...ة بأحد؟

– حمار إنت؟

– حقها..

– صدّقت كلام هالنّجس؟

– و.. احنا أصلًا ما كنّا.. ما كنّا مرتبطين..

– جاسم إنت لوح!

– وهذا شلون يهدّد..

– هذا لو عنده صور چان نشرهم من زمان..

أحسَّ بالأرض تتداعى تحت قدميه. نكّس عينيه وهمس:

– بعد السجن كنت أشوفها في حديقة الكنيسة. ما كنت حاب أصادف أحد.

هزَّ نايف رأسه. كان يعرف.

– دانة قالت لك؟

– إي.

– بس هذا شدرّاه؟

– يمكن بعد السجن كانوا يراقبونك؟

– ما أدري.

هل يمكن أن يكتسي موتها بالمعنى؟ أم أنه أصبح من أولئك الذين، بعد تجربة السجن، يصابون بفوبيا المراقبة؟ لا. جاسم لم يكن من هؤلاء. لقد غادر السّجن مؤمنًا، ومطمئنًا إلى إيمانه، بأن الصُّدفة هي حقيقة العالم الوحيدة، ولكن نايف.. نايف مهووس بصنعِ العلاقات. لقد أصابهُ السِّجن بعدوى التآمر وها هو يُفرّغ الصدفة من معناها، يفترضُ أسبابًا ومكائد. هل يمكن؟ وضع يده على صدرهِ، كان يتنفّس بصعوبة، وأحسَّ بذلك السيخ المحمى يخترقُ صدره. غاب العالم في عتمةٍ أبدية، ثمَّ راح صاحبه يرشُّ الماء على وجهه. لمح رجلين يقفانِ قبالته بقلق، أحدهما يسأل إن كان يجدرُ به أن يتّصل بالإسعاف. لحظتها هزَّ رأسه؛ لا، لا إسعاف.. لا يريد أن يذهب إلى أي مكان. يريدُ أن يعرف. سمع صاحبه يشكر الرجلين؛ "تسلمون شباب، خلاص مافيه إلا العافية، شويّة تعب". فزَّ جاسم من مكانه، سار إلى الأمام وهو يشعر، مرّة أخرى، أن الأمر أكبر منه. دائمًا أكبر منه. لحقَ به صاحبه؛ "وين رايح؟" شدّهُ جاسم من دشداشته: "أبيك تقوللي كل شي". ويكرّر؛ "كل شي! كل شي!"، كانت الدموع تتفجر من عينيه.

سارا معًا إلى جانب متاجر لبيع السَّبحات والخواتم الرجالية. انعطفا يمينًا. كان نايف يبحث عن

مكانٍ خالٍ من البشر، عثرا عليهِ في حوش أحد المساجد، بين أعجاز النخل الميت، وشجرةِ كوناكاربس مقطوعة الرأس. جلسا على الدكة المقابلة للنافورةِ الجافّةِ، المتكسّرة، التي تتوسّط مجزرةِ الأشجار، "تكلّم". قال جاسم. عيناه حمراوان، وفي حلقه جمرة تكويه.

6

في البداية لم نخف. قال نايف؛ لا أنا، ولا دانة. قلنا هذا مجرد مهبول آخر على تويتر، كنتُ أتصوّر أن أقصى ما يستطيعه هو أن يزعجها بشتائمه. وهي.. أنت تعرفها أكثر مني، كانت تتصرّف كأنها المرة الأولى التي تسمع فيها كلماتٍ نابية، حاولت أن تضحك على الأمر، لكنها كانت خائفة جدًا. تتصل بي عشرات المرات، وترسل لي صورًا لتغريداته، كان صوتُها يرتجف جاسم، ما زلتُ أذكره. المسكينة. نصحتها أن تحظر الحساب، وهو ما فعلته. هل لاحظت شيئًا وأنت تقرأ التغريدات؟ هناك حرفٌ زائد أو مختلف لكل حساب، لأنه استخدم الكثير من الحسابات ليصل إليها. وكان يعود إليها دائمًا ساخرًا منها، وخلال لحظاتٍ لا تُذكر، كأنه جهز نفسه للحظر. أصبح واضحًا بالنسبة لي أن ما يريده هو أن يخيفها. وكانت المسكينة خائفة فعلًا. كانت مستهدفة لحربٍ نفسية لم أفهم مغزاها. لكننا لم نأخذ الأمر جديًا إلا عندما لمّح إلى صورٍ في ساحة الكنيسة. اتصلت بي وأخبرتني أنك الوحيد الذي يعرف عن الأمر، و.. قاطعه؛ شكّت بأنني وراء ال... هزّ نايف رأسه؛ حمار.. طول عمرك حمار، دانة لا يمكن أن تشكَّ بك، لكنك كنت خارجًا من السّجن لتوّك، خطر لنا أنك كنت تحت المراقبة، وتساءلنا وقتها إن كانوا يضايقونها ليصلوا إليك. خاصة مع كل تلك التلميحات بوجود آخر. لكن الأمر غير منطقي. فما الذي يريدونه منك؟ أنت صامت ومهاجر منذ سنتين، حتى حسابك على تويتر ملغي. إنك لا تشكّل أي إزعاجٍ لأي أحد، فما الداعي لكل هذا؟ أخبرتها أنّه على الأغلب مجرد متلصّص، يعاني من شدّة الفراغ، ومنجذبٌ لها على نحوٍ خاص، ويعرفُ ألا فرصة لديهِ. سألتها إن كانت تشكّ بأحد، فنفت الأمر، نصحتها بأن تبدأ بمراقبة الجميع من حولِها، ولأنها كانت مرتبكة جدًا، وبدا واضحًا أنها بذلت جهدًا كبيرًا كي لا تبكي أمامي، أخبرتها بأنني سأوصي أحدًا بمراجعة إدارة مكافحة الجرائم الإلكترونية لتقديم شكوى ضد صاحِب الحساب، لكنها ارتبكت أكثر، وخشيت أن يؤدي ذلك إلى نشر الصّور. أي صور؟! قاطعه جاسم، كان يرتجف من الغضب. أومأ نايف؛ أنت تعرف مجتمعك، لقد احتضنتها في حديقة الكنيسة وأنت تعرف كيف ستُفهم هذه الأمور، فإلى جانب اتهامها بالعهر والفجور، سوف تتهم على الأرجح بالكفر والخروج عن الملّة، وهي لم ترد أن تسبّب ذلك لأسرتها، لكنني أقنعتها بأن لا شيء سيمنعه من نشرِ الصور في جميع الأحوال، وأن عليها ألا تتفاوض معه، وألا تلعب بقوانينه، وطلبتُ منها أن تحوّل حسابها على تويتر على وضعية "الخاص" وأن تترك الأمرَ لي.

لماذا لم تخبرني بالأمر؟ لم يفهم. استلّ نايف نفسًا أخيرًا من سيجارته؛ كان ذلك خيارها. لماذا؟

أنتَ رحلت منذ سنتين جاسم، أظنها شعرت بوجوب أن تتولى أمورها بنفسها، وأنت تصرّفتَ دائمًا وكأنك خلقت لحمايتها. لم تعد موجودًا، لكن هذه في النهاية هي توقعاتي أنا، ربما لم تكن هذه أسبابها. نكّس جاسم رأسه؛ ولماذا لم تخبرني أنت؟ أردف نايف؛ لأنها طلبت مني ألا أزعجك. اعتصر رأسه بين يديه وكمش شعره؛ ليش دانة! ليش! ثم سرعان ما رفع رأسه، يحدّق في صاحبه بعينين محتقنتين؛ وبعدين؟ كانت تحظر حساباته ليعود مرة أخرى، ولم يكن ضروريًا بالنسبة إليه أن يرى ما تكتبه في حساباتها، كان يكفيه أن يكتب عنها في صفحته ليعرف أنها تقرأه، وقد كانت المسكينة تقرأه، وانتهى بها الأمر إلى أن تراقبه، عوضًا عن أن يراقبها. ولم تعد تأكل، أو تنام، أو تركز في أي شيء. لقد سيطر عليها تمامًا.

تدفقت الشتائم من فمِه؛ الحقير، الخسيس، الجبان، ابن ال.. وضع نايف يده على كتفه.

– قَصِّر حسّك.

دفعه جاسم:

– أبي أصيده! أبي ألاقيه!

ولم يكن قادرًا على تخيّل ما سيفعله به لو أنه عثر عليه. لا شيء يبدو كافيًا، ولا حتى تلك المنصة البيضاء العالية، التي تتدلى منها المشانق.

كم طال الأمر؟ سأل جاسم. قطّب نايف حاجبيه؛ ثلاثة أشهر تقريبًا. يزمُّ شفتيه؛ وماذا بشأن إدارة مكافحة الجرائم الإلكترونية؟ زفر نايف؛ أنت تعرف الإدارة، أولوياتهم هي القبض عن مغرّدين يسيئون للحكومة، وقد استغرق الأمر شهرًا ونصف من الانتظار، واستعنتُ بأحدهم لاستعجال الأمر، ثم أخبرني أن الحساب، كما هو ظاهر، يدار من أمريكا، وأنا وأنت نعرف أن هذه مجرّد حيلة لتجنّب الملاحقة، لكن الحقيقة أنني خفت. ماذا لو لم يكن جادًا في نيته بإيذائها؟ لم أدرِ ماذا أفعل. نصحتها ألا تخرج من دون مرافق، وأن تكفَّ عن وضع ما يدل على مكان وجودها في تويتر والانستغرام أو أيّ مكانٍ آخر. ثمّ حدث أمرٌ غريب، قبل الحادث بأسبوع أو عشرة أيام، اتصلت تخبرني أنَّ صورًا لها ولك قد وصلت بالإيميل إلى زميلها في العمل، وأنه أراها الصور، كنتما جالسين على العتبات المستديرة في وسط الحديقة، قالت بأن زميلها لم يعلق على الصور، لكنَّ موظفة في الإدارة سمعت جزءًا من حوارهما، وهي متأكدة أن الإدارة كلها باتت تعرف، وخلال هذه الأيام كانت تقولُ بأن الجميع ينظرون إليها كما لو كانت ساقطة، وأن المدير قد قرر نقلها إلى قسمٍ آخر. سألتها عن ردة فعل زميلها الذي وصلت إليه الصور، فقالت بأنه عبّر عن استغرابه فقط، ثم ضحكت، وقالت أنها لم تقاوم أن تطلب منه إرسال الصور إليها، ليس لشيء، ولكنها لم ترك منذ سنتين.. سألتُها إن كانت تشكُّ في أمره، وقالت بأنها لا تشك به، لكنها بعد ثلاثة أشهر من الاشتباه بالجميع ما عادت تستثني أحدًا، وقالت إن هذا عالم وسخ.. هذا ما قالته.

رفع جاسم عينيه إلى وجهِ صاحبه. كانت الدموع قد جفت في عينيه، والكلمات جفت في فمه. وضع نايف يدهُ على ظهر صاحبه؛ مادري شقولك.. صار الآخر يهزُّ رأسه، مؤمّمًا على كل ما يقوله الصمت من عجزٍ وقلة حيلة. هذا إذن هو حدُّ اللغة. وبقدر ما نمتلك من شهوةٍ للتسلط في تسمية الأشياء بأسمائها، يا أبي، بقدر ما تبدو الكلمات كسيحة وبالغة السخف. ولأول مرة، منذ أربع سنواتٍ تقريبًا، يشعرُ أنه راغبٌ في فهم ما حدث. ليس لدانة وحدها، بل له أيضًا. ولكن الكلمات تموتُ في طريقها إلى المعنى.

نهض من مكانه وسار باتجاهِ جذع النخلة أمامه، جذعٍ ميت مقطوعِ الرّأس، وهو يعرفُ من والده أن السّعف رئه النخلة، وأنَّ النخلة هي الشجرة الوحيدة التي لها رأس، وأن البلاد التي يموت فيها النخيل منكوبة، منكوبة، منكوبة.. تحسّس الجذع وصار ينزعُ القشرة بيديه ويلقي به أرضًا. هذا عالم وسخ ونحن شرذمة من المرادِم.

التفت إلى صاحبهِ وسؤالٌ واحدٌ في فمه:

– زميلها في العمل.. تعرفه؟

الفصل الخامس

الصَّاجة

1

لم يكن جاسم حاضرًا ليصف ما حدث، وهي لم تخبره بكل التفاصيل، لكنه يستطيع أن يتخيّل أنَّ الأمر جرى على هذا النحو: في ليلة صدور حكم أول درجة ضدّه، عندما حُكم عليه بالسجن سنتين مع الشغل والنفاذ، وفي الوقت الذي كان منهمكًا فيه باكتشاف وعورة الواقع، كنزيلٍ في السّجن المركزي، كانت دانة وحيدة في اللَّيل، مكسورة إلى الحدّ الذي فقدت معه هشاشتها أي معنى.

قادت سيارتها في أيّ طريقٍ لا يعيدها إلى البيت، لأنها لم تكن قادرة على البُكاء بعد. بمحض الصُّدفة، وجدت نفسها بين محلات حِدادة ومستلزمات صحية وكَراجات السيارات. لمحت عن يمينها بقّالة صغيرة. أطفأت المحرّك وترجّلت، تطقطقُ بكعب حذائها على الرّصيف، وتدلف بعينين مُحتقنتين وأنفٍ محمرٍّ إلى البقالة، لتقف أمام البائع الإيراني وتشير بيدها إلى علب السجائر المثبتة وراءه: "عطني علبة من كل نوع". ينظر إليها الرّجل ذاهلًا: "شِنو؟!" تخرج ورقتين من فئة العشرين دينارًا وتقول: "علبة من كل نوع؛ دنهل، ماربلورو، داڤيدوف.. كل شي". في تلك الليلة اكتشفت دانة التدخين.

سلّمها الرجل، في غمرة ذهوله، كيس نايلون مليء بعلبِ السَّجائر. عادت إلى السَّيارة تقودها باتجاه البحر. وفي المكان الذي طالما التقيا فيه، على أسكلة الحدّاقة أمام مبنى البرلمان، جلست تدخن السَّجائر، واحدة من كلّ علبة، تستلُّ دخانها عميقًا وتسعل، مرة، بعد مرة، بعد مرة، حتى برعتْ في الأمر، وامتلكت زمامه. وصارت تنفث الدخان من منخريها، لا من فمها وحده. أصابها الدوار. شعرت بالوَهن في جسدها كلّه، تسارعت نبضات قلبها وشعرت باضطرابٍ في معدتها، لكنّها مع ذلك لم تكفّ. بدا لها أنَّ ما تفعله هو أكثر الأشياء منطقية على الإطلاق. وفيما كانت دانة تشقُّ طريقها بصعوبة إلى عالم المدخنين، قرّرت أنها ستدخّن سجائر دنهل بنكهة النعناع، ذات الغلاف الفضي، وأنها ستفعل ذلك حتى يتفحّم قلبها وتموت، وسمّت الأمر انتقامًا. ممّن؟ ولأيّ شيء؟ كان يتساءل كثيرًا، إن كان اسمه يرد في قائمة الأطراف الذين تنتقمُ منهم؛ الحكومة، المعارضة، بلاع البيزة، جاسم، وأخيرًا هي.

لقد استعاضت بالسجائر عن الدّموع. عندما أخرجت علبة سجائرها للمرةِ الأولى أمامه، في حديقة الكنيسة الإنجيلية، رفع حاجبيه ذاهلًا: "دانة تدخنين؟! من متى؟" ابتسمت تستلُّ نفسًا عميقًا، زفرت الدخان من منخريها، وقصّت عليه ما حدث، ليلة كانت مكسورة إلى الحدّ الذي فقدت فيه هشاشتها أيّ معنى.

في السَّاعة التي كانت دانة فيها تجرّب السَّجائر، كان جاسم يتعرّف إلى زنزانته الجديدة في السّجن

المركزي. كان يدخل السّجن، هذه المرة، بصفته محكومًا؛ العنبر 3، السرير العلويّ إلى اليمين، تحت لمبة أخرى. جلس على سريره شاردًا وهو يفكّر في خطوته القادمة. ما الذي يريده؟ هاتف؟ هل أنت مستعدٌّ لقراءة الشتائم التي يكيلونها لك، وبيانات الكتل السِّياسية التي تتنصّلت مما كتبت، وفتاوى التكفير والتخوين والإخراج من الملة، وصمت والدك؟ يتذكّر نفسه قبل قرابةِ الشهر، في السجن العمومي، بعد أن غادر عنبر الإيراد، كان يهرشُ ويحكُّ للحصول على هاتف، لكن صاحب السّجن، تاجر الحشيش، طلب منه أن يتريّث لحين صدور حكم الدرجة الأولى، فقد تتم تبرئته خلال شهر ولا داعي لشراءِ هاتف وشاحن وسلك شحن بمبلغ ألف دينار. لكن كيف يصبر؟ يريد أن يرى ردود الفعل على سجنه.
#الحرية_لجاسم_العظيمي! يريد أن يرى رفاقه يرددون في وقتٍ واحد: «جاسم ما قال شي، جاسم قال راي!». يريد أن يشعر بالقوة مرّة أخرى، خاصّة بعد أن حلقوا رأسه وفتّشوا فمه ومؤخرته. بعد أن عصبوا عينيه وهو يرى الفراغ في عيني أبيه ويشعر باليُتم يجفّفُ عروقه. هزَّ تاجر الحشيش رأسه: «ولا يهمك أبشر»، خلال ساعةٍ جاءه بهاتفٍ مستعارٍ من نزيلٍ آخر، لكي يدخل إلى تويتر ويرى، بأمُّ عينيه، كيف تمَّ التخلّص منه، مثل منديلٍ قذر، ألقي به في «مزبلة التاريخ».

دخل في نوبةٍ من القهقهة وهو يرى الشتائم تنهال على رأسه، تمامًا كما كان يقذفه والده بالنعال وقشور الفستق. في البداية شاركهُ تاجر الحشيش الضحك، وبقية نزلاء العنبر. ظنوا جميعًا أنها ضحكات انتصار. ثمَّ حين تحوّل الضحك إلى سُباب، عندما احتقنت عيناهُ وضرب الجدار بقبضتهِ وهو يكيل من فمه الشتائم، التزموا جميعًا الصمت. خطاب المناصرة، الذي كان ينتظره، تحوّل إلى خطابِ كراهية، وعرفَ لحظتها بأن الخصوم الذين لم يتفقوا على شيءٍ قط، اتفقوا أخيرًا على ضرورة التخلّص منه.

معارضة الأمس صارت سلطة اليوم، وهو يعرفُ، من والده قبل أي شخصٍ آخر، أن من واجب الكاتب أن يزعج السلطة، وهذا ما فعله بالضبط. امتلأت مدونته بمقالات تستهدفُ الكتلة النيابية التي حاربَ، بنفسه، من أجل وصولها إلى البرلمان. كان صوتًا يتيمًا، نشازًا. ظنَّ أنه يتحدث بأفواه كثيرين، لكنَّ الذين أيدوه كانوا قلة، وعلى خجل. كانت تلك مرحلة اصطفاف ومصالح، وهو ظنَّ، بسذاجة أطفال السياسة، أنَّ الكتابة يمكن أن تعيد الشارع إلى صوابه. من بين مقاطع مقالاته التي صارت تجوب الإنترنت كنوعٍ من التشهير، طفت على السَّطح للمرة الثانية تلك المقالة التي كتبها للرد على أبيه، لأن التهمة التي كانت تنقصه يومها، إضافة إلى قلب نظام الحكم وازدراء الأديان، هي العقوق.

أعاد الهاتف إلى صاحبهِ، ثم تمدد على جنبه مستقبلًا الجدار أمامه. غطى رأسه باللحاف وأخذ ينتفض في كل شبرٍ منه وهو يسمع في داخله صوتًا يردد؛ مردم! مِردم!

2

ثلاثة أيّام. ثلاثة أيّام وتعود.. يذكّر نفسه بالاتفاق الذي أبرمه بينه وبينه، أنَّ المرء عبثًا يستطيع مواجهة الذاكرة، وأن العالم وسخ. كان وجهه متورّمًا وعيناه محتقنتان، هالتان سوداوان تحاصران محجريه. في اليوم الثالث، كان الجميع يطبطبُ على كتفيه. وقف متخشّبًا إلى جانبِ شقيقهِ يستقبلُ المعزّين في آخر أيّام العزاء. وقد رأى في وجوه الناس جميعًا أمرًا لم يره من قبل؛ الشفقة. كأنَّ وصمة الإدانة الأبدية قد أعتقته، بعد أن دلفَ ديوان العائلة وهو على تلك الهيئة. الحزن طيّر عقله، قالوا جميعًا. مسكين، يستوعب الصدمة لتوّه. فقدُ الأب مؤلم. هذا ما قاله الجميع، في كل مرة كان ينهارُ فيها على ركبتيه ويجهشُ دافنًا وجهه في شماغِه. كان أعمامه وأبناء أعمامه وأخواله يهرعون للطبطبةِ على كتفيهِ، يقرّبون منه الماء ليبلّ ريقه. ثمَّ حضر نايف، تلاقت الأعين، تصافحا، لكن هذه المرة، عندما قال نايف "عظم الله أجرك"، كان جاسم يعرفُ أيَّ ميتٍ يعني.

"أجرنا وأجرك".

بعد صلاة المغرب، عندما انفضَّ مجلس العزاء، وقبل أن يغادر الديوان، اقتربَ جاسم من صاحبهِ وهمس بأذنه: "ماني راد لندن إلين أشوفه". أومأ نايف: "أبشر. باچر أجيب لك خبره. ". طبطبَ على كتفهِ، وغادَر. "روح ارتاح". يقول صاحبه، وكأن الأمر ممكن. هزَّ رأسه وغادر يجرجرُ خطواته إلى خارج الديوان.

صعد إلى جانبِ أخيه في السيارة، عائدين إلى البيت. هذه المرة لم يشغل براك سورة الرحمن، بل ابتسم وأخبره أن خالاته قد أعددن عشاءً زاخرًا هذه الليلة، وسأله متى كانت آخر مرة تذوّق فيها "البلاليط".

– قبل سنة..

– متى؟

– لما زارتني أمّي.

لم يفهم، لماذا ترافق أيام العزاء كل هذه الولائم، ولماذا يتسابق الجيران والأهل للطبخ لأهل الميت؟ يتواطأ الجميع في لعبة تخدير الألم، ويتبعون خطة تقتضي تأجيل الكلمات والدموع يومًا آخر. الوحدة، غير مسموح بها. يجب أن تحاطَ بهم، أن تمسَّ أكتافهم كتفيك، وكلما بكيتَ هرعوا لمحاصرتك، تسمعهم

يرددون؛ "ترحّم على أبوك، تصدّق له". كانوا يبحثون عن حلٍ عملي لمشكلة معقدة اسمها الفقد. إن هذا النظام مصممٌ لمنعنا من أن نحسَّ بما نحسُّ به. وها هو، بعد يومٍ كاملٍ من تلقي مصافحات وقبلات المعزّين، لا يشعر إلا بالغبن. نظر إلى البيوت المتراصّة على جانبي الشارع وفكّر؛ هذه مدينةٌ لا تشعرُ بشيء.

أحسَّ أنه مسروق، سُلِب منه حقّه في التفجع، في أن يأخذ ألمه تضاريسه الطبيعية في حياتِه. وتساءل ماذا سيحلُّ بأمه بعد أن تقضي عدّة الأرملة، أربعة أشهر وعشرة أيامٍ من الولائم الزاخرة بالجريش والهريس وكل ما يصيبُ القلب بالذُّهول. ثمَّ، حين يذهب الجميع ستشرعُ، على الأرجح، في التّصدّع وحيدةً، وعندما تحين تلك اللحظة ستكون قد نسيت كيف تحزن. إنها، مثله، محاصرة بالآخرين. اشتكتْ له صباح اليوم أنها كلما انسحبت إلى غرفتها لتبكي لحقت بها أخواتها وبناتهنّ، وشرعن في تدليك قدميها وكتفيها وسقيها الماء. "مو قادرة أفكّر!" كانت تقول. "مو قادرة أفكّر بأبوك". تساءل في تلك اللحظة، إلى أيّ حدٍ يؤذينا الحب؟ وإلى أيّ حدٍ.. آذى دانة.

قاطع براك أفكاره:

– على طاري لندن.. شنو قرّرت؟

– ماني راد.

كان مستعدًا للبقاء في هذا الجحيم إلى الأبد، شرط أن يراه؛ هذا الرجل الغريب الذي وصلت الصور على بريده الإلكتروني. كان يؤمّل نفسه أن يكون صاحبَ الحساب الوهمي، ويتساءل كيف سيقتله.

ارتسمت على وجهِ شقيقه ابتسامة واسعة..

– صج والله؟

أومأ جاسم ولزم الصّمت. أحسَّ أنها المرة الأولى في حياته التي يمسك فيها بزمام المعادلة المستحيلة؛ أن يكون ظاهره متوافقًا مع ما يريده العالم، وأن يكون باطنه الخفيُّ له. ألا يضطر إلى ادّعاء شيء، ومع ذلك يبدو كل ما يبدر منه صائبًا. دموعه، ارتجافات كتفيه، كلماته.. كلها صحيحة.

وصلا إلى البيت. ترجّل شقيقه من السيارة يسبقه بخطواتٍ. تساءل جاسم؛ لماذا لا ينبح كلب الجيران؟ بمجرّد أن فتح الباب بدوره، ولحق بأخيه، شرع صلبوخ في النباح.

توقّف أمام الصنبور المكسور، حمل السّطل البلاستيكي بيديهِ وجرجر خطواته إلى الحوض ليدلق الماء. في ظل غيابِ والده، ينبغي على أحدهم أن يتولى إدارة الأمور، وبدا له في تلك اللحظة أن كل

إيمانه بالحلول الجذرية، باقتلاع الخطأ وخلق الصواب، هو ضربٌ من التّرف. فكّر بأنه لا يمكنه أن يشبه والده أكثر مما يفعل الآن. انتظره برّاك على الدرجات. وضع يدهُ على الجذع؛ "النخلة مسوسة". أومأ شقيقه؛ "بعدين". ولم يفهم لماذا لا يؤلمه أنَّ النخل أيضًا يموت.

عندما دخلا، وجدا البيت يغصُّ ببنات ونساء العائلة؛ خالات، عمات، بنات الخؤولة والعمومة. بدا البيت مثقلًا بالزحام والبخار الذي يتصاعد من أطباق العشاء. تملّص من السَّلامات الكثيرة التي تنتظره وتوجّه إلى أمّه، قبّل رأسها وجلس إلى جانبها، وهو يحدّق في أطباق النخي والفول والجريش والبلاليط وصنوف الأجبان والزيتون. كان طبقه ممتلئًا، لأن خالاته تسابقن لملئه، ثمَّ وُضِعَ الصحن على طاولة صغيرة أمامه. كانت إحدى خالاته تردّد المرة تلو الأخرى "يالله بسم الله.."، وقفت خالتهُ أمامه تنتظر أن يضع لقمة في فمِه. لكنَّ شللًا أصابه، راح يشخصُ في الوجوه ذاهلًا، ثم مرّر ناظريه بين وجهِ أمّه وصحنها الفارغ، ورأى في عينيها ما رأتهُ هي في عينيه، وأصبحَ يعرفُ لماذا لا تستطيع أن تأكل. "تعبان يمّه!" زفر، ثم أراح رأسه على حجرها وأغمض.

3

دخل جاسم الصّاجة لأول مرّة في السجن العمومي، بسبب شكوى تقدّم بها إلى مدير السجن. كان ذلك بعد مُرور أسبوعين من اعتقاله، عندما فقد صبره تمامًا، فقرر أن يكتب تلك المذكرة.

إلى السَّيد مدير السِّجن العمومي المحترم،

تحية طيبة وبعد..

الموضوع: شكوى وطلب مقابلة

أنا النزيل جاسم العظيمي، موقوف احتياطيًا ولست مدانًا، أي إنني سجين فئة (أ)، وقد تم انتهاك حقوقي وفق قانون السُّجون واللوائح الداخلية والاتفاقيات والمواثيق الدولية التي وقعت عليها دولة الكويت، وإني على ثقة أن هذا مما لا تقبل به سيادتكم.

مع الشكر الجزيل.
جا سم العظيمي

سلّم كتاب الشكوى إلى الأمن، طلب تسليمه إلى ضابط الزّام. خلال نصف ساعة كان أحد ضباط السجن يقف أمام الزنزانة وينادي على اسمه.

– جاسم لِعظيمي؟

– سم.

نزل من سريره، متأملًا أن يصطحبه الضابط لرؤية مدير السجن، لولا أن الضابط رفع الورقة في وجهه، قابضًا عليها بين سبّابتهِ وإبهامه، ملوّحًا بها، مثل منديلٍ قذر. "شنو هذا؟" سأله الضابط. لم يقاوم جاسم الابتسام؛ "هذي شكوى وطلب مقابلة لمدير السّجن". وبدا الضابط وكأنّه لا يفهم. ليس الشكوى في ذاتها، بل الجرأة على الشكوى، وهمُ الحقِ في الشكوى. بدا لجاسم أن كلماته أحدثت خضّاتٍ مدوية في داخله؛ "الظاهر إنت نسيت نفسك". لكنه حتى تلك اللحظة لم يكن قد نسي نفسه. سينساها لاحقًا، في الانفرادي.

أحسَّ جاسم بالكلمات تضيقُ به.

– تعرّضت حقوقي للانتهاك.

– أي حقوق؟

بدأ جاسم يتلو على الضابط حقوقه:

– أنا سجين فئة (أ)، ماني محكوم، مو من حقكم تحلقون راسي، والمفروض أدخل السجن بملابسي، ولي حق الاتصال يوميًا، ولي حق الزيارة، ولي حق أجيب كتب..

لوهلةٍ، ظنَّ أن ما يقوله منطقي، ومؤيّد بالحجج والدُّفوع، لولا أن الرّجل مزّق الورقة أمام عينيه وأجاب ببساطة:

– يمكن إنت فاهم القانون غلط.

لم يتوهّم جاسم الأمر. كان الضابط يبتسم.

– لما كنت إنت فرخ سنة أولى في الأكاديمية الأمنية.. كنت أنا أكتب تقارير في مخالفات السّجون، وإذا ما تعرفون القانون حنا نعلّمكم شنو القانون.

كان هذا ما قاله. آخر شيءٍ قاله.

ثمَّ تعرّف إلى اللامعنى.

في اللحظة التي اقتادهُ فيها الحرس إلى "الصَّاجة" متهمًا بالتطاول على الأمن، عرف جاسم أن القانونَ مثل اللغة. فمن يسبق الآخر يفوز بحقّ التسمية، ومن يمتلك البزة العسكرية هو الذي يفوز في السباق. في طريقه إلى الصاجة، تساءل من أين جاء هذا الاسم، ومن الذي سبق الجميع إليه؟ لكنّه قبل أن يفكّر في الأمر صفعته الرائحة.

وصلَ إلى الممر المفضي إلى زنازين الانفرادي. رأى الأبواب المعدنية الزرقاء الصَّدئة. اخترقت رأسه رائحة القيء والبول، وسمع أصوات تقيُّؤ تتصاعد في المكان. لاحقًا سيعرفُ أنّهم يودعون مدمني المخدّرات في هذه الزنازين.

فتح باب الزنزانة. خطا داخلًا، مسح بعينيه ذلك القبر الذي خصّصوه له. قدّر طول الزنزانة

بمترين، وعرضها بمترٍ واحد. كانت الأرضية من البلاط القديم، وقد تزاحمت على الجدران لطخات الأيدي، مرحاض عربي ومغسلة. كانت هناك فرشة وغطاء، كانت الزنزانة باردة، والرائحة تخترقُ دماغه. جلس على الفرشة شاخصًا بعينيه. رفع قميصه إلى أعلى، دسَّ أنفه وفمه في ياقته، يحاولُ أن يخفّف من وقع الرائحة.

في الساعة الأولى التي قضاها جاسم في الصاجة، كان يفكّر في القانون. "إذا ما تعرفون القانون حنّا نعلمكم شنو القانون". قال للضابط، وها هو يتعلّم درسهُ الأول. يدفن وجهه في ياقته ويقرُّ متأخرًا أن القانون هو ترفُ الأقوياء. وأنا ما عدتُ قويًا يا دانة، ما عدتُ حديدًا! سرتْ رعدةٌ في جسده وأحسَّ بكل عضلاته تنتفض. لا! ليس هو! لا يمكن أن يفعلوا ذلك به. عاود النهوض، أخذ يدورُ في المكان. كيف يمكن أن يفعلوا ذلك بي، ألا يعرفون من أنا؟ ألا يعرفون ابن من.. أنا؟ أنا جاسم عبد المحسن العظيمي. «ما تعرفون أنا منو؟» أنا أعلّمكم أنا منو.. صار يضربُ الباب المعدنيّ بقبضتيه وهو يكرّر اسمه، مرة، بعد مرّة، بعد مرّة.. أفضحكم والله! أنا أربّيكم. راح أرفع دعوى ضدكم، بفضحكم في الجرايد! أنا جاسم عبد المحسن العظيمي! كان يصرخ غير مصدّقٍ أن الأمر لا يحدثُ فرقًا، وفي لحظةٍ ما، عندما خفّت وتيرة صراخه، سمعَ ما كان يقوله فعلًا؛ عبد المحسن العظيمي! عبد المحسن العظيمي! عبد المحسن ال..

كيف نسي نفسه؟

تدفقت الدماء في عروقه تراجع خطوة إلى الوراء. وضع يديه على فمهِ يقفله. هل سمعه أحد؟

كانت أوصاله ترتعد، عاد يجلسُ على الفرشة غير مصدّقٍ أنه، كان يردّد طوال الوقت اسم أبيه.

ثمَّ سمع صوتًا طالعًا من الزنزانة المجاورة.

– أقول يالجار؟!

– تلفّت حوله في البداية، غير متأكد من أنه المقصود. واصل صمته..

– يا لِعظيمي!

قال الآخر. لقد نسيَ، تقريبًا، وجود آخرين حوله.

– أقول يالعظيمي..

– هلا.

خرج صوته مبحوحًا..

– وش اسمك انت ألحين؟

– ..

– جاسم ولا محسن..

– ..

– يا لِعظيمي! ورا ما ترد؟

– شتبي؟

– أبي أتعرّف.

– خلني ف. حالي..

– شدعوة.. صار لك ساعة تقول أنا لِعظيمي أنا لِعظيمي.. صدّعت روسنا وآخرتها مالك خلق تسولف.

– جاسم.

– اسمك جاسم؟

– إي..

– بشّر أمّك.

ثم تناهى إلى مسمعه صوتُ نخراتٍ متعاقبة. اختلطت ضحكاتُ السجناء ببعضها، يرجعها الصدى.

4

في تلك الليلة أيضًا، حلم جاسم بمشهدٍ من ذاكرته.

كانت هناك ضحكاتٌ، لم يفهم جاسم، ذو العشر سنوات، كيف يمكنُ أن يرجع الصَّدى صوت والده من دون جدران. كان الفضاء متراميًا. البحر والسماء يتلامسانِ عند حافة العالم، جاسم يسمع ضحكات أبيه، الغمغمات المبهمة التي تصدر منه وهو يقطّع مصارين الدجاج، سعالَ المدخّن العتيد، والنهمات والأغاني. كان مجرد طفل. يجلس على يمين أبيه في قارب الصّيد الطافي على سطح الخليج. كان الماء "سجي"، كما يقول أبوه، وهذا يعني أنها ساعاتُ المد، وأن البحر لديه ما يقوله. كان والده يشرح له الفرق بين تيّارات الحمل وتيّارات الفساد، أن تيارات الفساد ضعيفة، لذا يجب على القارب أن يمخر البحر وأن يطارد الصيد. كان يسمّر عينيه على يدي أبيه وهما تزرعان الطّعم في الخطّاف. كان يغنّي. جاسم يعرفُ هذه الأغنية لعالية، ولكنه لم يحسب أنه يحفظها. في الحلمِ عرفَ أنّه يفعل؛ ببحرِ الكويت جنينا الدُّرَر. ومنها بعثنا الندى والشّرر. بلادي، بلادي، بلادي..

عندما فتحَ عينيه، كان في غرفتهِ، الشمس تتسلّل من أسفل الستائر وتزحف على الأرض. زفر.. نهض من سريرهِ ليغتسل وهو يردّد بصوتٍ أجش؛ بلادي، بلادي.. نسي بقية الأبيات. وقف أمام مرآة المغسلة يتملى في وجهه. لماذا كان عليه أن يستيقظ، أن يترك الحلم حيث كان ما زال بإمكان أبيه أن يكون أبًا، وما زال بإمكانه أن يكون ابنًا، في عالم أزرق وغير ملوّث. كان الشوق يعضُّ على قلبه، شوق لم يخطر بباله أنه قادرٌ عليه. وأحسَّ بسعادة مفاجئة، سعادة من توفي والده وشعر باليتم فعلًا، لا الخلاص وحسب.

بلادي، بلادي.. أيُّ بلادٍ، يا أبي؟ ما هي البلاد، ولماذا يوجد لها كلّ هذه الأوجه؟ هل تكون البلاد هي المباركية وسوق الجمعة والبحر ودانة، وتكون في الوقت ذاته الصاجة والسجن المركزي وعنابر أمن الدولة. هل تكون هي المكان الذي يحاول استجلابه إليه، هائمًا على وجهه في أزقة البورتبيلو بين محال الأنتيك، أم تراها المكان الذي يحاولُ سحقهُ حتى آخر سنتمترٍ منه. بلادي كويتٌ بخلجانها.. كان يتذكّر ما ظنَّ أنه لا يتذكره. لم تكن الأغنية المفضلة لديه، وهو لا يحبُّ الأغنيات الوطنية لفرط ما تشعره بالغربة. تجلّت وباهت بأمجادها، وعزّت مكانًا بشطآنها. أي مجد؟ كان ينظر حوله ويرى النخل يموت. وقلائد اللؤلؤ ما عادت. الحقيقة أنّ لؤلؤته ماتت. تساءل لماذا يبدو الوطنُ مسطّحًا إلى هذه الدرجة في الأغنيات؟ ولماذا لا يكتب أحدٌ عن ألمِ العيش في بلادٍ لا تشبه نفسها، أم تراهُ هو الذي لا يشبه مكانه؟

فرّش أسنانه وتمضمض ثم اعتدل واقفًا أمام المرآة، وفكّر أن عليهِ أن يجد تعريفًا معقولًا لكلمة وطن. بصق الماء من فمهِ وتمتم؛ الوطن هو حقُّ الحلم. وبدا لهُ أن الأمر بسيطٌ في وضوحه. وكل ما ينقصه هو معطيات موضوعية تدلُّ على وجود نهاية لهذا النفق اللعين. لكن إن لم تمنحهُ البلاد هذي النهاية، فسيكون محكومًا بالظلمة إلى الأبد. أكان لموتها معنى، أم لا؟ لتسلم وتحيا بلادي. أغلق صنبور الماء وعاد إلى غرفته.

تربّع على السرير واتصل بصاحِبه:

– صاحي؟

– من زمان.

– تعال أنا ناطرك.

– جايْ.

أقفل هاتفه وشرع يبدِّلُ ملابسه. ما هو الوطن؟ ماذا لو كان مجرد نظام للسيطرة عليك؟ دين جديد بآلهة وأنبياء وطقوس وأناشيد وشعائر، مؤسسات بأكملها لمنح صكوك الولاء والخيانة. نظامٌ كامل لامتلاكك، فعّال إلى درجة تدفعك لذرف الدموع في حالة سدد منتخبك هدفًا في مرمى الآخر. إنه لا يفهم، وقد تعب من كونه لا يفهم. العثور على أجوبةٍ، من أي شكل، مرهونٌ بالسؤال الوحيد؛ هل كان لموتها معنى؟ ولماذا تغنّي عالية حسين عن قلائد اللؤلؤ إذا كانت دانة ستدهسُ حتى الموت؟ وهل تذكّرته في تلك اللحظة الأخيرة.. هل فكّرت به؟ خطر له أنَّ لديه ما يكتبه، بعد أربع سنواتٍ من الصمت، بعد السجن والمنفى. صار لديه أسئلة مصقولة وفادحة، وفكّر أنه لو كتب الآن، فقد لا تسقط الكلمات بين قدميه، مثل صيصانٍ نافقة.

متى بدأت الكلمات تنفق بين قدميه؟ كان ذلك في الصاجة. لا يذكر كم يومًا أمضى هناك. يذكر صرخاته، يذكرُ ردّته المخزية التي لا ينبغي أن يعلم بها أحد. يذكر أنه نسي اسمه، وذكر اسم أبيه. يذكرُ العار الذي ملأه حتى أذنيه وهو يسمع قهقهات ونخرات السجناء من حوله. كفَّ الجميع عن التقيؤ فجأة، واشتركوا في حفلة الضحك. لا أحد يكترث لكونك ابن العظيمي، وحقيقة أنك تتوقع معاملة مختلفة بسبب اسم والدك في ذاتها فضيحة. لقد خنت نفسك. ألهذا، يا ترى، لم تغفر لوالدك قط؟

ارتدى دشداشة جديدة وجلس على حافّة سريره. لا يعرف لماذا تسمّى زنازين الانفرادي بهذا الاسم، ولا يدري من الذي سبق الجميع إلى هذه التسمية. ولكنه، بعد أن أمضى سبعة أيّامٍ في الوحدة الجارحة، أصبح لديه احتمالان؛ صاجة التنور، أو الصادقة. إنها المرآة في داخلك، إذا نظرت إلى سطحها سترى

الوحش الذي قضيت عمرك كله هاربًا منه. لقد كان يعرف جيدًا من رأى.

عندما تعثر على مرآتك، تتجلى أمام عينيك سائر الحقائق. اكتشف مثلًا أنه خائفٌ من أن يؤمن، وألا جدوى من الكتابة، وأنَّ علاقته بدانة تسمّى حُبًا.

لا يذكر كم ليلة مرّت عليه وهو يخطّط لما سيفعله إذا خرج من السّجن. سوف نتزوج. حتى تلك اللحظة ظنَّ أن الأمر ممكن. عندما أُخرِج من الصاجة لأول مرة، وأعطاه صاحبه تاجر الحشيش لفافة أخذته بعيدًا، بدت أفكاره مثل قطعِ كريستالٍ شفافة. لم يسبق له أن شعر في حياته بكل هذا الصّفاء. أمضى ثلاثة ساعاتٍ كاملة يحدّق في السقف، واكتشف خرائط سرية لصدوعٍ وطلاء متشقّق وأسلاك ناتئة، وشيئًا يشبه الوبر العالق في طلاء السقف كان يرتجف بشكلٍ لم يفهمه. ولم يفهم أشياء كثيرة، مثل أن إصبعه يتحرّك بناءً على فكرةٍ من رأسه، وأن أصوات النزلاء من حوله تحدثُ كل هذا الصدى في أذنيه، وأنَّ في وسعه أن ينظر إلى نفسهِ من فوق، وأنّه الشخص الواقف خلف الواجهة الزجاجية في متحف، كأنّ ألمه لا يؤلمه. نام نومًا عميقًا، وكانت تلك أول مرة ينامُ فيها منذ قدومه إلى السجن العمومي، لكنه قبل أن يهوي في بطن الظلمةِ قرّر أن يتزوّجها. لم يخطر له أن السجن سوف يكسره تمامًا، حتى لا يعود قادرًا على تسمية الحبِّ باسمه.

الفصل السّادس

السِّجن القديم

1

يتذكّر نفسهُ.. يقرّب فمهُ من السَّماعة، يدفن رأسهُ تحت الغطاء. يهمس: دانة؟ السَّاعة تجاوزت الثالثة فجرًا. كان، بطبيعة الحال، عاجزًا عن النوم. اشترى الهاتف، بعد صدور حكم أول درجة: الحبس لسنتين مع الشغل والنفاذ. رتّب براك أمر الدَّفع، ألف دينار سدّدها لأسرة السَّجين الذي اتفق معه على التهريبِ. لديه الآن جهاز آيفون، لا يستخدمه لقراءة أخبار الحراك، ولا لقراءة الشتائم التي تنهال عليه في تويتر. هاتفٌ من أجل صوتها وَحْدَه. كان ذلك هو الشيء الوحيد الذي يستحقُّ اهتمامه. في تلك الأيام صار يعرفُ أن السياسة، وأخبار البلد، وبلّاع البيزة، والصنبور المكسور، وحتى والده.. ما عادت أشياء تهمّه. يتذكّر نفسه قبل سنة، حين كان أبوه يردّد عليهِ مرارًا أن السياسة ليست لأمثاله لأنه "مِردِم"، دمه مسمّم بالمثاليات. كان يردُّ على والده بأن السياسة لا تهمه حقيقة: "هذي مو سياسة يُبه، هذا شأن عام". يبتسمُ الآن لبراءته القديمة وهو يجادلُ أبيه. في تلك الأيام، كان الكلام ممكنًا. لحظتها أخبره والده: "كل شي سياسة". لكن هذا الحوار، الحميم على طريقته، بين أبٍ وولده، كان قبل السجن، وقبل الكتابة، وقبل الصّدع.

ما عاد الكلام ممكنًا، لكنه يستطيع دائمًا أن يتّصل بدانة، رغم عبيثة اللغة وهشاشة المعنى. نايمة؟ لم تكن تنام. كانت تنتظره كل ليلة، رغم أنه غاب عنها مرارًا، لشدة ما تورّط في الشجارات، وأُدخِل الصَّاجة المرة تلو الأخرى. كانت الأيام تمرُّ دون أن يتحدّثا، ومع ذلك لم يكن يشعر بالانفصال. إذ بمقدوره، في أية لحظةٍ من اليوم، أن يعرف أين هي، مع من، وما الذي تفعله. كان يجد في ذلك عزاءً ما. أما هي، فلم تكن بتلك الصلابة: أنتظركَ طوال الليل، ثمّ تشرق الشمس وأشعر أنَّ في الأمر خدعة. كان صوتها متعبًا. لا أصدّق أنَّ عليَّ أن أعيش يومًا آخر، الفكرة في ذاتِها جارحة. كانت تقول. كيف يسع العالم أن يستمرّ في المضيّ هكذا؟ ولماذا ينتهي يومٌ ويبدأ يوم آخر دون أن نعيش؟ أثقلتُ عليكِ بالسّهر؟ يسألها. لا، لا.. ترد: ابتعد عن المشاكل فقط، وكلّمني.

لكنه غاب كثيرًا. كأنّه يبحث عن المشاكل، كأنَّ الصاجة هي المكان الوحيد الذي يقدر على استيعابه.

ذات مرة، بعد أن تعارك مع اثنين من السجناء، حُبِسَ في الصاجة مدة أسبوع، وأوْشك أن يفقد عقله: في اليوم الرابع، بدأ يحدّث النمل، ويغمغمُ بأصواتٍ مبهمة ليتأكد أنه ما زال في العالم. في اليوم الخامس، خطر له أن يلمس الجدار بكتفهِ، جرّب ملمس الحنفية على جبينه، والباب المعدنيّ على راحة

قدمِه. كان يرتجفُ من فرط الوحدة، وكانت الأشياء من حوله هي كل ما يملك. في اليوم السادس بدأ يشكُّ في وجوده، أخذ يقرص زنده ويصفع وجهه ليتأكد بأنه ليس مجرد فكرة في رأس أحدهم. ماذا لو فقد القدرة على الإحساس بالأشياء؛ الجدار، الحنفية، الباب، الحُب، الخوف. في كل مرة يدخل فيها الصَّاجة، كان يغادرها ناقصًا. كما لو أنّه يموتُ بالتقسيط.. أعجبه التعبير؛ يموتُ بالتقسيط. فكّر أنّ عليه أن يكتبه، إذا خرج من السجن، وحصل على ورقة وقلم، أو جهاز كمبيوتر.

– نايمة دانة؟

– لا.

لم يكن صوتها نعسانًا. يعرفُ صوتها عندما يصيبه النعاس ويعرفُ هذا الحزن الآسن المُر. حزنٌ كان يفقدهُ صوابه، ما عاد يفقدهُ صوابه. لقد استسلما للأمرِ معًا، وهو.. لم يفهم سرَّ الراحة التي وجدها في الانفرادي. راحة فقد الذات. الخفة التي يشعرُ بها وهو يُقتل ويخسر كل شيء؛ والده، مستقبله المهني، حماسه السياسي، أصدقاءه، وحتى ولعه بالكتابة. تساءل في أعماقه عمّن يكون، بعد ذهاب كل هؤلاء، ولم يعرف من هو. يغادر الانفرادي ليعود إلى العنبر ويصطدم بالأصواتِ والأضواء، ربما يجد نزيلًا جديدًا في السرير المقابل. أيادي رفاق السجن ترتفع ملوّحة ومصفّقة في كل مرة يعود فيها، كأن في الأمر بطولة. لا توجد بطولة في الألم، جاسم يعرف ذلك جيدًا، لكنه مع ذلك كان يضرب كفّهُ بكفوفهم ويتباهى بعضلات زنديه وأحيانًا يزفن بكتفيه عائدًا إلى سريره وسط شربكات تصفيقهم. في مكانٍ ما في أعماقه، كان يحتفل بقدرته على عدم الإحساس بالأشياء؛ الخوف والحب معًا. حاول أن يشرح لها الأمر مرّة؛ إنهم يتقيؤون طوال الوقت، تفوح في الهواء رائحة المراحيض، كل ما تسمعينه هو تأوُّهات المساجين وصرخاتهم، بعضهم يبتهل لله، بعضهم ينادي أمّه، أو حبيبته. وأنت أي اسمٍ تنادي؟ سألته. بلع ريقه بصعوبةٍ، افتعل ضحكة صغيرة. أنا؟ أنا لا أنادي أحدًا. تراهُ كسر قلبها؟ عندما يفكّر في الأمر، وبقدر ما استغرق في شوقِهِ لها، لم يردد اسمها ولا مرة واحدة، وفي المرة الوحيدة التي فقد فيها صوابه، كان يصيح "أنا عبد المحسن العظيمي!"، لقد ردد اسم والده. يزدردُ ريقه يحاول استعادة خيط الحديث؛ ما أحاول قوله أن هناك أصواتًا كثيرةً في الصّاجة، لكن في ساعاتٍ أخرى، يسود صمت عظيم، وتشعرين أنّك طافية في العدم. لا أدري كيف أصف لكِ الأمر. عندما تسمعينه، سوف تعرفين ما هو الصمت، وأيّ شيءٍ آخر جرّبته من قبل كان مجرّد تمرين. في تلك الليلة كان خارجًا من الصمت، وكان صوتها مشروخًا، تعمرهُ الرّضوض. لقد مرّت ثلاثة أشهر على حبسهِ وبات يحسُّ أن الدماء قد جفّت في عروقه. في عروقها.

– طوّلت علي.

زفر.. كان في حاجة لأن يقول لها "اشتقت لك دانة"، لكنه لم يقدر. لا يملك المرء دائمًا ترف أن

يشعر بما يشعر به. وفي تلك الأيام لم يكن متأكدًا من مشاعره. كان يحتاج أن يلصقَ جبينه بالحنفية ليصدّق أنه موجود. تدخلُ الانفرادي وفي قلبك أمل وألم وحب، تخرج منه بألم وحب. تدخل وفي قلبك ألم وحب، تخرج وفي قلبك حُب. تدخل وفي قلبك حُب.. ما الذي بقي منك هذه المرّة؟ إنه الموت بالتقسيط. لقد كان واعيًا إلى عملية تصفيته، وفهم الأمر منذ البداية، لكنه تساءل إن كان هناك خصمٌ جديرٌ بالاحترام يعزو له الفضل في قتله بهذه النعومة، أم أنه مدينٌ بالأمر للصدفة؟ هل يتمتع النظام بالذكاء إلى هذا الحد؟ أم تراهُ، من فرط ما يجهل ما يفعل، يقوم بالأمر بهذه البراعة؟

كان يتعمّد التورط في المشاكل، يتلاسن مع الأمن ويتشاجر مع النزلاء كي يودع في الصاجة أيامًا أخرى. ربما لم يكن الأمر موتًا بالتقسيط، بقدر ما كان انتحارًا. فكّر وهو يعود إلى العنبر تلك الليلة، إن كانت تلك خطته، إن كان هو الخصم الجدير بالاحترام، الذي كرّس نفسه لإنهاء أمره. تمدَّدَ تحت اللحاف، استخرج هاتفه من علبة الكلينكس ليتّصل بها. رغم كل شيء.. كان يتّصل بها كل ليلة، متأخرًا جدًا، ليقصَّ عليها القصص. فهذا هو ما منحه له السجن بسخاء؛ القصص. دانة والليل والحكايا التي تخدّر "جُرح الوجود"؛ التقيت اليوم سجينًا من عنبر المخدرات، يبيع الكوكايين ليجمع مبلغًا ينقذ به شقيقه. شقيقه قاتل، محكوم بالإعدام، وهو يتاجر بالمخدرات لجمع مالٍ يدفع لأسرة القتيل، يأمل الحصول على تخفيفٍ للحكم الصادر ضد أخيه. تسأله؟ ديّة؟ يفرقع لسانه؛ لا توجد ديّة في الكويت. هذا حق عام، لكنه يأمل بالحصولِ على تخفيف لا أكثر. تسأله أكثر؛ لماذا قتل؟ يزفر؛ مشاجرة. تفجعه تفاهة الأسباب وجسامة النتائج. مجرد شجار، تخيّلي. الغريب دانة أن تاجر المخدرات هذا يصلّي فروضه في أوقاتها، لا يدخّن، وهو ألطف من كل شخصٍ قابلتهُ في حياتي. كانت تصمت، تتساءل، على الأرجح، إن كانت سيعود الشخص الذي كانه من قبل. وهو، كان يقرأ أفكارها، ومع ذلك يستمر في القول.. تصدقين؟ السجين الوافد يرتكب جرائم تطيل مدة سجنه لكي يبقى في السجن. إن أشد ما يخشاه السجين الوافد هو أن يُبعد إلى بلاده. تأملي المصطلح دانة؛ يُبعد إلى بلاده. كل البلدان بعيدة. ولكن فكّري في الأمر، يستطيع أن يعمل داخل السجن، يشتري لنا السجائر وفرش الأسنان والجوارب، يحصل على مبلغٍ معقول نظير خدماته، يرسله إلى أهله وتمضي الأمور بشكلٍ جيّد. أعتقد أنه في حالة الاختيار بين الخبز والحرية، سوف نختار كلنا الخبز، أليس كذلك؟

يسمعها تتنهّد.

– وبعد؟

تسأله. يعرفُ أنها تتمنى أن يحدثها عن أمرٍ آخر، لكنها مع ذلك تطالبه بالمزيد.

– شنو إللي وبعد؟

– سولِف لي.

من الصَّعب أن يجد المرء ما يقوله عن الفراغ. حاول أن يصف لها تلك الحلقة المفرغة التي تبتلع أيامه. يستيقظ ظهرًا، لأن مواعيد النوم والاستيقاظ تعود لرغبة السجين، تلفزيون العنبر يعمل طوال اليوم. في العنبر 3، حيث هو، كانوا يشاهدون الأفلام، وأحيانًا، نشرة الأخبار. صارت تعرفُ أن الأرق هو العَرَضْ الأكثر وضوحًا للمصابين بالسجن. حدّثها أنه، مرة أو مرّتين، استيقظ بسبب تفتيشٍ للعنبر، وكان لحسن حظه يخبئ هاتفه في علبة الكلينكس. نسمّيها «مخشّات»، والحرس أيضًا يعرفون بأن هناك «مخشّات»، وهي يمكن أن تكون في أي مكان. داخل جورب قطني، صدع في الجدار، علبة محارم ورقية، إنها الأمكنة المتفق عليها لإخفاء الهواتف المهرّبة، مع أننا نعرفُ، كلنا، أنهم يعرفون بأمرها ويغضون الطرف عنها بإرادتهم. وأن التهريب يستحيل أن يتمَّ من دون تواطؤٍ منهم. لماذا؟ تسأله. يجيب؛ إنها واحدة من الأساليب التي يسلكونها للسيطرة على الأمور، فإذا أصبح لكل واحدٍ منا ما يخسره، أصبحنا أكثر طاعة، وأصبحنا مهددين طوال الوقت بخسارة هذا الشيء الذي هو كل شيء، علاقتنا بالعالم الخارجي. وإذا ما أغضبناهم، بوسعهم دائمًا مصادرة الهاتف حتى نضطرَّ إلى شراء آخر، وبوسعهم أن يحققوا مبالغ طائلة باستمرار طلبات الشراء هذه.

امتدّ صمتها طويلًا، في حين واصلَ الكلام، كلامٌ لا يفضي إلى مكان.

أخبرها أنَّ أول شيء يراه عندما يفتح عينيه هو اللمبة فوق رأسه، وصُدوع الجدران. ولم يقل أنّها آخر وجهٍ يفكر فيه، وأول وجهٍ يتذكّره. أخبرها أن رائحة غِطاء السرير تشبه رائحة الفلفل الأسود، أنّه يذهب للمشي بين العنابر كنوعٍ من الرّياضة، أنهم يُمنحون فسحة لربع ساعة كي تمسّهم الشمس، وأنه يتمنى، ولو لمرة واحدة، أن يمسّهُ الليل. أنهم قبل إغلاق الزنازين يسمعون كلمة «تسكير! تسكير!» وأنه يكره هذه الكلمة. أنتِ لن تتخيلي قدرة السُّجناء على الابتكار، إنّهم مستعدون لصنع أي شيء. لدينا صناعة محلية للجبن، وصدّقيني عندما أقول إنَّ طعمه أسوأ من نقيع الجوارب، لكن الأهم هو أن يمتلك كل واحدٍ منا سكّينا، ننتزع إحدى شفرات المكيّف، نبردها حتى تصبح مرهفة وقابلة لقطع الخيار ورؤوس الخس، وبالتأكيد ستكون مفيدة جدًا في المشاجرات. هل ما زلتَ تتشاجر؟ يبتسم؛ ممَّ أنتِ خائفة؟ أنا أحدثك عن الاختراعات وأنتِ تريدين الحديث عن المشاجرات، أي نوعٍ من البنات أنتِ. تضحك. وهي عندما تضحك يندلقُ ماءٌ باردٌ في صدره، يشعر أنَّ ثمة عشبة خضراء عنيدة في أعماقهِ لم تمت بعد، لكنه يعد نفسهُ بأن يقتلها هي أيضًا، لأن الغاية من الأمر برمّته هي ألا يشعر بأي شيء. ورغم كل خطط الشروع في القتل التي تشغل عقله، كان يواصلُ قصَّ الحكايا. لعله كان يفعل ذلك لإنقاذها هي، أما بالنسبة إليه، فقد استسلم منذ زمن. سألته؛ ألا توجد كتب؟ بلى.. كتب دينية. هل هي مسلية؟ يضحك.. لدينا التلفزيون، لعب الورق، والبيبي فوت، والدامة. هناك أيضًا الشبو، والحشيش، ولكنَّ الشيء الذي

يتشارك فيه الجميع هو الحبوب المدوِّخة. فلا أحد يستطيع احتمال كل هذا الليل، وكل هذي النهارات، وإذا كان الشيء الوحيد الذي تملكه كي تختصر مدة حكمك هو النوم، فإن هذه الحبوب هي الطريق.

صمتت طويلًا ثم أردفت؛ سأعطي لنايف مجموعة كتب يأخذها إليك في الزيارة القادمة. وابتسم، في الوقت الذي كان فيه يسرد عليها كل تلك التفاصيل، بحجة الكلام فقط، وبكل المجانية الممكنة، كانت تبحث في رأسها عن حلول. ينتبه إلى الساعة، تجاوزت الرابعة فجرًا بقليل، يشعر بالذنب.. «روحي نامي دانة، تأخر الوقت، وراك دوام». تسأله؛ «وإنت؟» يكذب؛ «أنا دخت خلاص، بحاول أنام». تضيف؛ «إذا ما قدرت تنام اتصل». يغلق الهاتف. ويعرفُ بأنها، مثله، لم تنم. لكنه يوهمُ نفسه بذلك، ولا يتّصل.

2

بعد صدور حكم الدرجة الأولى، صار جاسم يعرفُ، إلى حدٍ ما، الشكل الذي ستكون عليهِ حياته. سوف يرى العالم يفوته في الخارج، ويقضي أيامه باحثًا عن الحبوب المدوّخة والسجائر. في تلك الفترة لم يكن خائفًا، وعندما ذهب الخوف، ذهب الحبُّ على ما يبدو، وكل ما كان يحسُّ به هو تلك المرارة الداكنة تنتشر في فمِه. حاول في إحدى المرّات أن يسمّي مشاعره، ولم يقدر، فهو على الأرجح وصل متأخرًا، ورغم أنَّ كلمة "فَقْد" في ذاتها لا تبدو كافية، إلا أنها الخيار الوحيد المطروح. فقدٌ بعشراتِ الأيدي، يستحوذ على كل ما لديه. لو أنه وضع قائمة بكل الأشياء التي خسرها، أين ستبدأ وأين ستنتهي؟ لقد تلاشى في نظام التفتيت الفعال الذي خُصِّصَ لأمثاله. وطنٌ وحبيبة يا جاسم. أليس كذلك؟ في تلك الفترة لم يفكّر في الحب ولا في الوطن. كانت الكلمات الكبيرة تبدو مفرّغة من الداخل، وصارت الأشياء الصغيرة هي التي تؤلمه؛ أنه ما عاد يكتب. أنه لا يسمع نباح صلبوخ. أن البحر لا يهدر في أذنيه وأنه ما عاد يطلب من الله العون، أن دانة ما عادت تضحك، وأنَّ الحبوب المدوّخة فقدت تأثيرها تمامًا. وكأن موجة عملاقة قد أتت على حياته ودمّرت كل الأشياء؛ بيت هدام. الذاكرة كلها بيت هدام. وهو لم يقاوم الموجة، تركها تحطم كل شيءٍ وترك لنفسه حقَّ الغضب. صار يفتعل المشاجرات، لأن المكان الوحيد الذي يسعك أن تكون فيه وحدك تمامًا هو الصاجة. وإذا كان في البداية يئنُّ من فرط الجوع إلى من يلمسه، فقد صارت اللمسة في ذاتها توجعه، وبات كل ما يريده هو أن يختبئ داخل جلدِهِ كي لا يشعر بشيء.

رنَّ هاتفه ينتزعه من أفكاره. جاءه صوت نايف؛ "وصلت". ارتدى حذاءهُ وهرع خارجًا. فتح باب السيارة متذمّرًا:

– طوّلت ياخي!

– زحمة.

صعد وأغلق الباب، سأله نايف؛

– تريّقت؟

– لا.

– نتريّق أول..

سارت السيارة لدقائق، ثم توقفت أمام مجموعة محالٍ صغيرة؛ بقالة، خياط، مصبغة، ومحل سمبوسة. ترجّل نايف ثم عاد يحمل كيسين من سمبوسة البصل والخضار وخبز الشباتي مع كأسين من الشاي بالحليب، غابَ في فرع الجمعية التعاونية القريب، لأنَّ مخزون الاثنين من السجائر قد نفد. مرّر عينيه في المكان. بين البقالة ومحل السَّمبوسة كانت المصبغة التي اعتقل في طريقه إليها. خلف تجمّع المحالِّ هذا كان محوّل الكهرباء الذي اختبأ خلفهُ في تلك الظهيرة من طفولته، عندما كسر مربّع الزجاج الأخضر في بلكونة البيت. كان خائفًا من العودة، تسمّر مكانه لساعتين، تحت شمس أغسطس، يرتجفُ من الحَر. وقف مسندًا ظهره إلى الجدار، وأعاد، مرة بعد مرة، قراءة كل كلمة كتبت على الجدار بأصباغ الرّش؛ أسماء فتيات، أرقام هواتف، شتائم جنسية كان يكتشف مذاقها في فمِه لأوّل مرة، لكنَّ الأهم أنه، بعد ساعة من الاختباء، رأى عددًا من صبية الفريج يقتربون من مكانه. كانوا يكبرونه بسنوات، أربع أو خمس.. ربما ست. كانت لهم شوارب خفيفة وقد نبت البثور على وجوههم، يبصقون ويردّدون الكلمات النابية ويطلقون ضحكاتٍ رنانة، كل واحدٍ منهم يحاول أن يبرهن للعالم استعداده لتجربة الوجود. أخرجوا علب السجائر من جيوبهم وأشعلوها. أحدهم انتبه إلى وجوده، خلف كومةٍ من الطوب. صبي التاسعة المذعور. "يا اِصبي!" ناداه، تلفّت جاسم حوله غير مصدّق، أن أحد أولئك الآلهة قد نظر إليه فعلًا:

– شِسْمِك؟

– جاسم.

– من أي بيت؟

أشار إلى بيت الهدام في أول الشارع:

– بيت لِعظيمي.

– تعال.

اقترب منه وهو يتساءل إن كان يجدر به أن يهرب. وضع الفتى يده على كتفهِ ثم أشار إلى الشارع الجانبي:

– بَرْچِك لنا.

كانت تلك أول مرة يسمع فيها هذه الكلمة. فغر فاه ونظر إلى الفتى حائرًا.

– ها؟

ضحك الصبي.

– راقب الشارع هالصّوب، إذا مرَّت سيارة أشِّر لنا.

هزَّ رأسه غير مصدّق أنهم أوكلوا له مهمة حفظ السّر. ورغم أن الشمس كان تغلي دماغه وأن جسده كان يرتعش، والعرق يتفصَّد من جبينه وظهره وإبطيه، إلا أنه قبل المهمة بامتنان. اختبأ خلف كومة الطوب وراقب الشارع الجانبي، وكلما مرّت سيارة كان يرفع لهم يده ليخفوا السجائر. الآن يتذكر تلك اللحظات ويبتسم. ذلك العالم الواسع الذي تفتّح أمام عينيه؛ خلف محوّل الكهرباء في الفريج، بكل الكلمات المرشوشة على جدرانه، كل الشتائم، والمغازلات التي تدور مع الفتيات المختبئات خلف الستائر الشفافة، والسجائر، والشوارب التي نبتت فجأة.. أحسَّ جاسم أنه قد اكتشف سرَّ الوجود لأول مرة، وتمنى من كل قلبه أن ينضم إلى جوقة الآلهة الصغار، أن يقف في هالةِ الدخان تلك، ويصبح جزءًا من المشهد.

عاد نايف إلى السيارة، وقد اشترى علبتي سجائر. فتحا أكياس السمبوسة وتضوّعت في المكان رائحة الزيت المقلي والشاي بالحليب. شمّر نايف أكمامه قبل أن يدسّ يده في الكيس:

– لو تلفّ لندن لفّ ما تلاقي مثل هالريوق.

– ليش لندن مافيها سمبوسة؟

– مثل هذي؟

– لأ. بس فيه..

– خلاص كِل هوا.. تلاقيك أربع سنين تتريّق كرواسون وتشرب موكا. بذمّتك هذا ريوق؟ عندكم جبن قلاصات؟ عندكم شكشوكة؟

– إنت وطنيتك تزيد مع الأكل أبو النّيف؟

وضع نايف يده على بطنه، وحرّكها في دوائر.

– هذي براغماتية تقتضيها المصلحة.

– خِف علينا يبه.

– اِشفهّمكم يا أطفال السياسة..

وفيما هو يخرج من الكيس الورقي حبة سمبوسة، دندن منتشيًا؛ "يا وطن لك من يحبّك". تساءل جاسم، كيف يمكنك أن تكفر بفكرة الوطن ثم تعشق تفاصيله؟ سمع في رأسه صوت عالية حسين تغني؛ بلادي كويتٌ بخلجانها. لكنه ما لبث أن استرجع نفسه من أفكاره، وعاد إلى الموضوع الوحيد الذي يهمّه:

– لقيت شي؟

هز نايف رأسه وهو يرشف من كوب الشاي بالحليب.

– إي نعم.

ثم قبض بشفتيه على سيجارة جديدة وأشعلها. فتح زجاج السيارة الجانبيّ وهو يطلق الدخان من منخريه:

– واحد من الرَّبع بنت عمّه تشتغل في نفس المكان، بنروح نقابلها.

– متى؟

– ألحين.

أحسَّ بألمٍ غريب يباغته في صدره. تسارع وجيب قلبه. أدار وجهه إلى النافذة الجانبية وسرح في البيوت المحيطة. لقد نسي أن البلاد صغيرة، وأن الكل يعرفُ الكل. خلال ساعة أو أقل سوف يجد نفسه في مقرّ عمل دانة، يقطع الممرات نفسها، يرى الوجوه ذاتها، ولن يستطيع أن يصدّق أنها رحلت.

– نايف عندي طلب..

– سَم.

– أبي أزورها.

نظر إليه نايف، عميقًا في عينيه. رأى خوفه وكوابيسه و.. شوقه.

– نخلّص مشوارنا ونمر المقبرة. أبشِر.

3

كانت الساعة قد تجاوزت الثالثة فجرًا. الحبوب المدوّخة لم تنفع. خطر له أن يتّصل. "مشتهي مطبق زبيدي". لا يفهم كيف كانت تطيقُ قضاء كل تلك الساعات في الحديث عن اللاشيء. يتذكّر نفسه قبل سنوات، مندهشًا من قدرته الخارقة على خلق الأحاديث. يحاول أن يتذكّر أشياء قالتها هي. قصص حدثت على الجانب الآخر من العالم، وراء أبراج السجن. لكنه لا يتذكر أي شيء. اتصلت بأمي أمس. كان يقول. برّاك ونايف يبحثان عن محامٍ آخر. كان يقول. اليوم العشا معكرونة. كان يقول.. كان لديه دائمًا ما يقوله، كلمات صغيرة عن أشياء صغيرة، أي شيءٍ يوهمه أن ثمة ما يحدث في حياته وأنه ليس عالقًا في فقاعة من العدم. ولهت ع الصيد. ألهذا اتصلت في الثالثة فجرًا؟ تراها، كل ليلة، كانت تنتظر منه اتصالًا يخبرها فيه بما لم يقله قط؟

يتذكّر ليلة أخرى. كان لديهِ هذه المرة حكاية حقيقية؛ لقد رأيتُ وجهي اليوم. ماذا تقصد؟ أقصد رأيتُ وجهي وكدتُ لا أعرفه.. في مرآة، مرآة حقيقية. ألا توجد مرايا في العنابر؟ في الحمّامات؟ توجد مرآة في غرفة الخدمة الاجتماعية، إنه شعورٌ غريب، لقد نظرتُ في عينيّ رجلٍ لا أعرفه. صمتت لحظة ثمّ قالت؛ سأعرفك دائمًا. ابتسم وقتها، وهو يبتسم الآن. بعد السجن، حتى دانة لم تعرفه. كانت تبحث في عينيه عن الرجل الذي أراد أن يكون حديدًا، ولا تجد.

في إحدى الليالي، كان رصيده من التفاصيل قد أفلس تمامًا، لعلها المرة الأولى التي لم يشعرها فيها أنها مجرد كوكبٍ في مدارهِ؛ الغربة والخياناتُ وحكايا العنابر. "شلونك اليوم؟" سألها. لم ينتبه يومها بأنه نادرًا ما يسألها عن حالها، ولكنه اليوم، وهو يسترجع شريط ذكرياته، منتبهٌ جدًا. "بخير". كانت تقول. كانت تضع على كل كلمة تقولها طبقة شمعية تجعلها تلمع. وبدلًا من أن تسرد عليه أخبارها سألته؛ "إنت شلونك؟" كانت، مرة أخرى، تتصرّف مثل كوكبٍ في مداره. تنهّد؛ "الحبوب ما تنفع معاي، سولفي لي". وهي، لفرطِ ما اعتادت أن تنصت، بدت وكأنها فقدت القدرة على الكلام. خمّنت في البداية أنه مهتم بمعرفةِ آخر المستجدات. وهو يعرفُ كل شيء، يعرفُ أنَّ الحكومة وافقت على الاتفاقية الأمنية الخليجية، وأن قضية "الإيداعات والتحويلات المليونية" قد حفظت لعدم كفاية الأدلة، وأن البرلمان قد حُل، وأن الشارع يغلي. هناك دعوات لمسيرات شعبية باسم "كرامة وطن" والبلاد تبدو على حافة الأشياء. "اعفيني من هالأخبار".. قال. "غيري الموضوع دانة. ما يهمني".

– ما عندي سوالف.

كانت كمن يشهر إفلاسه، ويلوّح برايةٍ بيضاء، معلنًا هزيمته. لماذا لم تخبره أنها باتت تدخن؟ لماذا لم يسمح لها بأن تبكي على كتفيه، ولو مجازًا، كي تخبره بأنها فشلت في الاستمرار بشكلٍ طبيعي مذ سجن. أنها عزلت نفسها عن الجميع؛ لا أقارب، لا أصدقاء، وأن الشخص الوحيد الذي باتت تحدثه هو نايف، لتعرف منه تطورات توكيل المحامي الجديد. لماذا لم تخبره بأنها فقدت سبعة كيلوغرامات من وزنها، أنها قصت الكثير من شعرها لأنه أخذ في التساقط، أن دورتها الشهرية غير منتظمة، أن حياتها صارت سلسلة انتظارات مؤلمة لاتصالاته الليلية، على أمل أن يقول ما لن يقوله أبدًا. وهو، لماذا استخدمها بهذا الشكل، لتساعده على النوم، مثل الحبوب المدوخة التي فقدت مفعولها تمامًا. يتذكّر نفسه الآن؛ لقد حبسها في زنزانة من زجاج، صاجة تخصّها وحدها، وفخخ صمته بكل ما يمكنُ قوله، ثمَّ ترك لها مسغبة الانتظار إلى الأبد.

– علامك ساكت؟

سأله نايف. استرجع نفسهُ بصعوبة. نظر إلى صاحبِه.. هذه المرة لم يجبن عن سؤاله:

– في مرّة حسيت إنك تشبه أبوك؟

– لا طبعًا.

نظر جاسم عميقًا في عينيه.

– ليش الچذب؟

– وش جاب الطاري أصلًا.

– أمي دايمًا تقول أنا أشبه أبوي.

تذكّر أمه، صمتها على طاولة الغداء، إذ تضعُ الأرز وفخذ الدجاج في صحنِ والده، تسكب له الدقّوس، تقرّب له أچار الباميا، وزجاجة الفلفل، تسكبُ له كأسًا من اللبن، كلما حاولت أن تحكي له شيئًا يسمعه يقول؛ "غيري الموضوع، مو وقته". هو أيضًا، مثله، احتكر كل الكلام لنفسه.

– جيل ملعون.

أردفَ جاسم. ثمَّ أخذ يضحك ويضربُ كفًا بكف.

– انهبلت؟

– جيل ملعون ياخي! تتوهّم إنك غير وبعدين تلاقي نفسك نسخة من النموذج اللي ترفضه ويرفضك.

– شتقول إنت؟

– تدري وين المشكلة؟

كان صدره يضيق. الكلمات تكبر داخل رأسه. رفع أصبعه في وجه صاحبه. قال بصوتٍ إذاعي غليظ:

– القوى الثورية هي مجرد نسخة مشوهة من القوى المحافظة!

ضحك نايف.

– خف علينا يا فوكو، يا تشومسكي، يا جيفارا..

قهقه جاسم. وضع يده على صدرهِ وصاح:

– عن الغلط، أنا عبد المحسن العظيمي!

4

– وصلنا.

أشار نايف إلى البناء الأبيض البعيد. تفصلهما عنه شوارع وأرصفة ومساحات لإيقاف السيارات. كانت الطُّرق مختنقة بالمركبات، وكان عليهما أن يركُنا السَّيارة بعيدًا، ويستقلّا الميني باص لإيصالهما إلى البوابة. ترجّلا من السيارة، وسارا باتجاه الميني باص القريب. همَّ جاسم بالصعود لكنَّ نايف وضع يده على ذراعه يستمهِلهُ. التفت إلى صاحبه، فأشار إلى ساحة المواقف القريبة وتمتم؛ في هذا المكان.. لم يكمل. سرت قشعريرةٌ في جسد جاسم. كان يقفُ غير بعيدٍ من البقعة التي..

حادث دهس، قُيّدَ ضد مجهول. في مكانٍ ما هنا، ارتطمَت دانة بالإسفلت وأصبحت تحت رأسها لطخة قانية، ماتت. مرّر عينيه في المكان، براحٌ مترامٍ، زاخر بالسيارات.. المئات والمئات منها. أحسَّ نفسه يختنق. ورغم أنه يعرفُ أنها ماتت، إلا أنه لم يصدّق الأمر تمامًا. لكنه اليوم يقفُ في المكان الذي انتهت فيه حكاية دانة داود. يكادُ يراها، تسيرُ وحيدةً في الظلام، قلبها يرتجفُ من الليل والصّمت. لو حدث الأمر قبل سنتين، لكانت اتصلت به ليرافقها صوته حتى تصل إلى سيارتها. لكنه كان غائبًا بالكامل. يكاد يراها الآن، تطقطق بحذائها الصغير في ساحةٍ مظلمة، ثمَّ ترى الأضواء الأمامية لسيارة ما، تسير بسرعةٍ جنونية باتجاهها، وينتهي كلّ شيء. فكَّ زر دشداشته العلوي. كأنَّ الهواء يستعصي.

عندما ماتت كان سكرانًا. الفكرةُ، في ذاتها، لا تُحتمل. مثل أفكارٍ أخرى كثيرة؛ أنها أدركت، قبل موتها بلحظاتٍ، أنَّ هذه آخر لحظاتها. أنَّها كانت خائفة في تلك الفترة، دون أن تلجأ إليه. أنها اختارت الصّمت عندما اختار الرّحيل، أنه يتصفح صورها الأخيرة ويجد نفسه عاجزًا عن قراءة وجهها. هذه المرة أيضًا، أحسَّ أنه الرجل الغريب ذاته، الذي تسلّل إلى جنازة أبيه، ورآه في مرآةِ السّجن. شخصٌ يقتحمُ حكايةً لا تخصّه. وتساءل إن كان يجدر به الانسحاب، والعودة إلى لندن، وتسمية الأمر صُدفة.

استعجله صاحبهُ لركوب الميني باص. كانت أوصالهُ ترتجف وهو يجلسُ إلى جانب نايف في الصفِّ الأمامي. خلال دقائق امتلأت المركبةُ بالمندوبين، والمراجعين، والموظفين. زفر:

– ماني فاهم. شلون يصير حادث بهالمكان، معقولة؟ بنصّ البلد؟

يومئ نايف. حدث الأمر بعد التاسعة ليلًا. لا موظفين ولا مراجعين. المكان خالٍ ناهيك عن كونه مظلم.

– وهي الله يهداها..

قاطع صاحبه كأنه لا يسمع.

– بنت بروحها بالليل وسافطة آخر الدنيا!

أراد أن يشتمها، أن يوبّخها كما لو كانت تخصّه. نايف يرد:

– وهي شذنبها؟ عشان تلاقي مسفط داخل تحتاج واسطة، أو تكون مسؤول.. ودانة "حيّ الله" محاسب مبتدئ. حالها حال هالآلاف.

تذكّر لحظتها، أنها كانت كل صباح، تتّصل به بمجرد أن توقف سيارتها وتنهي المكالمة بعد أن تصل مكتبها. كانت المكالمات تستغرق عشرين دقيقة، يتذكّر أنفاسها المتسارعة، ويفتقدُها.

توقّف الميني باص أمام المدخل. سارا في الحديقة الخارجية. شجرة سدرٍ ضخمة تنتصبُ قريبة من البوابة، ثمَّ بدأت الأرض في الصعود باتجاه مدخل المبنى. بناءٌ أبيض متعدد الأدوار، مربّع الشكل، بنوافذ مستطيلة ونحيلة، بوابات زجاجية تفتحُ أوتوماتيكيًا، تليها حواجز تفتيش، لا يكترث لها أحد.

وصلا إلى ساحة رخامية مكشوفة السقف، مليئة بالقواطع والسلالم المعدنية والسقالات. الناس من حولهم يحملون الأوراق والملفات ويدبّون في جميع الجهات. أصواتٌ ولهجاتٌ وألسُن. أحسَّ جاسم أن لا معنى للأمرِ برمّته. إنهم يمتلكونك في النهاية، يمتلكونك من خلال ما يسمحون لك بامتلاكه، وإذا ما خيّرنا كلنا بين الخبز والحرية، فسنختار الخبز. روائح المكان خليط؛ دهن عود، عطر فرنسي، عرق. نساءٌ متأنّقات ورجال بشمغ وغتر، مندوبي معاملات مصريين، وبدون.. كلنا نخافُ أن نغادر السجن. والحقيقة أن العالم مصممٌ على هذه الشاكلة؛ سجنٌ في بطنِ سجن في بطن سجن. وكل إنشٍ تحصل عليه من حريتك سوف تدفع له ثمنًا باهظًا. سوف تجوع، سوف تنزف. هل التحرّر مُجدٍ؟ تعب من المشي بين الناس، مرة أخرى فكّر أن الفقد مسافة. سأل صاحبه؛ «وين نروح؟». «قدّام». أجابه وهو يدفعه للتقدم إلى الجانب المقابل من الساحة.

انعطفا يسارًا، ثم يمينًا، وصولًا إلى المصاعد الكهربائية. عندما ضغط نايف زرّ الدور الثاني، أحسَّ جاسم بقلبه يهوي. وجد نفسه يطقطقُ على جدران المصعد، يضرب حذائيه ببعضهما. «هدّي». نايف يهمس، يتظاهر جاسم أنه لم يسمع. لا يوجد في رأسه دليل إرشادات للتقصّي عن وفاةِ شخصٍ تحبه. كل شيء يشعرُ به، كل شيءٍ يفكّر به، يبدو خاطئًا. كان متأكدًا أنه لو نظر إلى نفسهِ من بعيد، أو من فوق، سيبدو الأمر عبثيًا. مثل مسرحية سخيفة يؤدي فيها أحدهم دورًا لا يشبهه. هل تظنُّ نفسك بطلًا فجأة؟ كان الصوتُ في داخله يعلو؛ صوت والدِه. الأمرُ أكبر منك. بلع ريقه وهو يغادر المصعد.

وجدا نفسيهما أمام أرضية رخامية مترامية، فرشت فوقها سجادات الصلاة الحمراء، رجالٌ منكبّون على المصاحِف، أو يؤدون صلاة الضحى. أوجعه بطنه فجأة. ولى ظهره لصاحبه وسار باتجاه النافذة وأسند نفسه إليها.

– وين رايح جاسم؟ طريقنا هالصّوب.

هزَّ رأسه ولم يرد.

– جاسم!

– شوي بس..

اكتسى وجهه بشحوبٍ مفاجئ، صارت معدته تتقلّب. سأله صاحبه: علامك؟ نظر إلى صاحبه وتمتم بالسؤال الذي يضجُّ في صدره:

– وإذا ما كان هو..

ماذا لو. ماذا لو فقد الخيط الوحيد الذي يملكه وظل تائهًا إلى الأبد؟ ماذا لو لم تكن هناك نهاية. ماذا لو.

– لا تستعجل الأمور.

التقط أنفاسهُ بصعوبة. نايف محق. لماذا يريد أن يتجرّع كل شيءٍ دفعة واحدة، بعد أن جاء متأخرًا سنتين؟

– وين نروح؟

أشار نايف إلى المدخل المقابل. كانت هذه هي الإدارة التي.. كل شيءٍ بدا مألوفًا فجأة. كأنه يسيرُ في حلمٍ تكرّر مئات المرات. شعورٌ بحريٌ انتابه، يشبه ارتجاج القارب، وهناك أيضًا الدوار. لكن ماذا لو فقد الخيط؟ ماذا لو لم يكن هناك خيط، ماذا لو كان حادث دهسٍ وحسب؟

تبع صاحبه إلى الداخل، امتلأ أنفه برائحة البخور والقهوة العربية. كان بمقدوره أن يرسم ممرات وأقسام الإدارة مغمض العينين. خيّل إليه مرة أخرى، أنه يراها تسيرُ في الممر ذاته. تضغط إبهامها على جهاز البصمة، تحيي الجميع في طريقها. صباح الخير مريم. صباح الخير ناصر. صباح الخير هدى. استرق نظرة إلى المكاتب المنتشرة في المكان. تساءل أين تراها كانت تجلس، لتحدّق في الأرقام والعقود. لقد مرَّ عامان. ولن يعثر أبدًا على الفراغ الذي تركته. حتى الفراغ هشٌ وقابل للزوال. رأى عن يمينه خمس

فتياتٍ اجتمعن في مكتبٍ واحد.

– عفوًا أختي وين الأستاذة هديل؟

نايف يسأل. تشير له الفتاة يمينًا. يشكرها ويمضي. جاسم يتبعه. دقات قلبه تتسارع، قلبه مشتاق. أين أنتِ؟

سارا بين المكاتب، على سطوحها رأى أقلام الريش الملون. مرايا. أشجار بونزاي. علب كحل وكريم أساس. صور أطفال. جداول تتضمن أسماء ومواعيد تسليم. فكّر أنه لن يجد أقلام الريش هذه على مكتب دانة. سيجد روايات، ودفاتر كثيرة، والكثير من الملفات والتقارير التي كانت تدفن فيها وجهها كالمجنونة. سيجد مرآة بكل تأكيد، لأنها تعيد صبغ شفتيها بالوردي كل نصف ساعة. ولأنها ترسم عينيها بالكحلِ بعد وصولها إلى المكتب. سيجدُ على شاشة الكمبيوتر صفحة مدوّنته. وصفحة أخرى على اليوتيوب، على أغنية لنوال. ستكون صور نوال مثبتة بالمغناطيس على الجدار المعدني المقابل للمكتب. سيجدُ أيضًا، هو متأكد، غطاء قبنلة دخانية، صارت تستخدمها لحفظِ أقلام الحبر وأقلام الكحل على حدّ سواء.

توقّف نايف أمام موظفة، بدت في منتصف العشرين من عمرها، ترتدي عباءة سوداء، بأكمام مطرزة بالكرستال الأسود.

– حضرتك هديل؟

– إنت نايف؟

أومأ الاثنان لبعضهما. أشارت لهما بالجلوس. وقفت أمام باب مكتب رئيس القسم للحظات، ثم أخذت إذنها بالمغادرة. حيّاكم. قالت وهي تقود الاثنين خارج الإدارة. وتساءل جاسم عمن تكونه هذهِ. إن دانة لم تذكرها له قط. جاسم يعرفُ هدى، وناصر، ومريم، ومؤخرًا كان هناك راكان، ولكن من هذه؟

– عفوًا أختي.. إنتي كنتي صديقة دانة؟

– لأ.

كان ردها باردًا، مترفّعًا وعلى مضض. أحسَّ بضيقٍ في قلبه، لكنه فكر أنها في كل الأحوال تبدو عاجزة عن الكذب، ولو تلطفًا. قادتهما إلى البهو الخارجي. جلست على أحد المقاعد الملاصقة للجدار. أصبح واضحًا بالنسبة لهما أنها لا تريد لأحد أن يلتقط كلمة مما ستقوله. جلست وبقيا واقفين، بدا أنها لم تمانع وقوف الاثنين. كانت لها بشرة سمراء وملامح دقيقة. لم تكن تضع عطرًا أو أي نوعٍ من المكياج،

باستثناء الكحل داخل الجفن، فكر جاسم أنها لا يمكن، فعلًا، أن تكون صديقة لدانة، ولعلّها تكره كل ما يتعلق بها؛ شعرها الطويل، طقطقة حذائها، عطرها..

بادرتهما بالسؤال:

– شلون أقدر أساعدكم؟

أجاب نايف:

– الموضوع يخص دانة داود.

– الله يرحمها.

لم يعتد جاسم أن يسمع اسمها متبوعًا بطلب الرحمة. ولا في أيّ مرة طلب لها الرحمة، لأن الدعوات تنفق بين قدميه كالصيصان التي تهوي من أعشاشها، ولأن طلب الرحمة للميت يجعل موته حتميًا، وهو يفضل أن يبقى في تلك المنطقة الرمادية، السكرى، التي استقبل بها خبر موتِها، وأن يثمل كل ليلة كي لا يسمي الأشياء بأسمائها.

الفصل السّابع

الورث

1

كانت لها عينان باردتان. أحسَّ جاسم أنهما تخترقان روحه، حتّى إنّهُ صفّد ذراعيهِ على صدرهِ، وكأنه يريد إخفاء قلبه. عينان زجاجيّتان، واسعتان، مشرَعتان على الفراغ. لوهلةٍ أحسَّ أن عُصابة سوداء سوف تطبق على عينيه، تذكّر والده، وتساءل كيف سيحمل هذه المرأة الباردة على الكلام. بدت مصممتة ومترفّعة. تتصرّف كما لو أنها مكرهة على الحديث، على الاختلاط بهما؛ اثنين من الغوغاء، غريبين من الشارعِ، لا يحملان أي صفة ولا تعرف عنهما أي شيء. مرة أخرى، فاحت منه رائحة الرجل الغريب. ولم يدرِ ما الذي يمكن لمثله أن يقوله لكي تعرف، هذه المرأة التي تصعّر خدها بلا مواربة، أنّه معنيٌّ بالحكاية أكثر من أي شخصٍ آخر.

"اختي هديل".. قاطع نايف حبل أفكاره؛ "حنّا جايين ناخذ شوية معلومات عن وفاة دانة داود". هزّت رأسها هزّة العارف. "قبل سنتين". أضافت، كما لو أنها تدينه. تلعثم؛ "كنت برّا الديرة". قال محاولًا أن يبرئ نفسه.

نظرت إليه المرأة بطرفِ عينيها:

– الخبر منشور في الجرايد. شتبون تعرفون أكثر؟

أجابها نايف:

– أبي أعرف اللي ما قالته الجرايد.

مرّرت عينيها على وجهيهما. لم تحاول حتى إخفاء حقيقة أنها تعاينهما بعينين مرتابتين. شابانِ في أواخر العشرين. لأحدهما لهجة البدو وللآخر لهجة الحضر. ما علاقتهما ببعضهما وما..

– شنو علاقتكم بدانة؟

– دانة إخت عزيزة.

– الله يرحمها.

صعّرت خدّها، ثم شبكت أصابعها على ركبتها اليمنى وقالت؛ أنا ماعرف شي. ما كان لي علاقة

مباشرة فيها.

قاطعها نايف:

– اِختي..

قرّب منها شاشة هاتفه. على صفحتها صور التهديدات التي.. نكّست عينيها؛ "أستغفر الله العظيم". تمتمت.

– كلنا قرينا هالكلام

– شلون؟

– كان يدخل على حساباتنا.. الإدارة كلها عرفت بالموضوع.

أجابت، تخيّل جاسم بماذا كانت تشعر دانة، وهي تذرع الممر أمام أعينهم كل صباح. المرأة التي "تلعب على الحبلين"، المرأة "البارع"، قويّة العين، "يبيلها رجلين". كانت تنكّس رأسها، وترتجف، موصومة إلى الأبد بذنبٍ لم تقترفه.

سألها:

– الشرطة حققت في موضوع الحساب؟

– علمي عِلمك. عمومًا الكل يدري، والكويت صغيرة.

الكويت كلها قرأت تلك التهديدات، ولم يفعل أحدٌ شيئًا لمنع الأمر. لقد تواطأ الجميع مع ما قرؤوه؛ توني عرفتك زين. يمّه يالبارع.. باچر العيد بنذبح بقرة. كيف يمكن التصدّي لحكايةٍ تضمُّ امرأةً "بارع" ورجُلين؟ حوقلت المرأة واستغفرت، أردفت:

– اذكروا محاسن موتاكم.

– اِختي..

كانت عيناه محتقنتين، وهو يجيب:

– صدقيني.. مافي شي تقولينه راح نعتبره إساءة لدانة..

نكّست المرأة رأسها. حوقلت وتنهّدت، ثمَّ شرعت في الكلام. "شوف أخوي".. دانة كانت في قسم

مراجعة العقود، وأنا في قسم المتابعة. لم يكن بيننا عمل مشترك، ولا صداقة من أي نوع، لكنني سأخبرك بما أعرفه. ما رأيتهُ وما سمعتُه. ما أعرفهُ أنَّ دانة واجهت مشكلة في عقد إحدى الشركات، لا أعرف تفاصيل أكثر عن الموضوع، كل ما أعرفه أنها رفعت الأمر إلى المدير العام، وأطلعته على الأوراق، وأنّه أخذ الأمر بجديّة. قامت الإدارة بتشكيل لجنة من أربعة أفراد؛ بو عبد الله المدير، رئيسًا للجنة، سكرتيرة الإدارة كمقرر للجنة، ودانة وراكان كأعضاء. سألها نايف؛ وماذا حدث بعدها؟ آه.. تحرّك بؤبؤاها إلى اليمين. استمرَّ عمل اللجنة لمدة سنة. كانت هناك اجتماعاتٌ كثيرة، أعني.. الكثير الكثير منها، داخل العمل وخارج العمل. كانت هناك ساعاتُ عملٍ طويلة في الليل، وبالتأكيد كان العمل يتطلب الكثير من الزيارات للشركة صاحبة العقد. شابٌ وفتاة، في أول العمر، جرفتهما الحماسة، كانا يشعران بأهمية استثنائية بسبب عضوية اللجنة، ويتصرفان كما لو أن مصير الهيئة كله يتوقف عليهما. بطبيعة الحال حدث بينهما كثير من التقارب، وصارا يصلان إلى الإدارة معًا، ويغادران معًا، وصرنا نراها في مكتبه طوال الوقت، تهامسنا جميعًا بأنهما زوجٌ مثالي، ولائقين ببعضهما. كان يحمل عنها الملفات، ينتظرها عند جهاز البصمة كل يوم لكي يرافقها إلى السيارة، وقد رأيته مرة يحمل عنها حقيبتها. كنا كلنا، في تلك الأيام، في انتظار خبر إعلان الخطوبة.

أحسَّ جاسم بالألم يداهمُ بطنه. في حين لم يرمش نايف وظلّ يحدق في وجه المرأة:

– وبعدين شصار؟ أعلنت الخطوبة؟

هزت رأسها. لا، أنهت اللجنة أعمالها واختفت الإثارة تمامًا، لكنني أعتقد أنَّ الأمور ساءت بينهما بعد حادثة بعينِها. أي حادثة؟ سأل نايف. نظرت في المكان حولها، تتأكد من خلوّه من المارّة، ثم أردفت بخفوت؛ أنا لا أعرف ما حدث، أنقلُ فقط ما سمعته. لم أكن موجودة عندما حدث الأمر، ولكن هدى.. ما بها هدى؟ هدى أخبرتني بكل شيء. إنها تجلس في المكتب المقابل لراكان تمامًا. لقد رأت كل شيء.

وما الذي حدث؟ سأل بنفاد صبر. خفضت المرأة صوتها؛ وصلت صورٌ فاضحة لدانة إلى راكان عبر الإيميل. تقولُ هدى أنه اتصل بدانة فورًا وطلب منها أن تأتي إلى مكتبه. كانا يتهامسانِ لكن هدى سمعت كل شيء. تقول هدى أن دانة، عندما جاءت إلى مكتبه ورأت صورها على شاشة الكمبيوتر، اصطبغ وجهها بالأحمر وصارت تتلعثم وتبرر. رددت أن الرجل في الصورة مجرد صديق. انقبض قلبُ جاسم، هل كان، حقًا، مجرد صديق؟ أكملت هديل؛ وفوق ذلك، طلبت منه أن يرسل إليها الصور لأنها لا تملك منها نسخًا، أنا، بصراحة شديدة، لا أتخيّل أن فتاة تملك جرأة كهذه، لتطلب من الرجل الذي يحبها أن يرسل إليها صورًا فاضحة لها مع رجل آخر لأنها لا تملك منها نسخًا. هل رأيتِ الصور بنفسك؟ قاطعها نايف. لا. ولكن ماذا يمكن أن تكون؟ أستغفر الله. مؤكد أن هدى رأتها. كلما سألها أحد عما رأتهُ

كانت تستغفر. المهم.. أعتقد بأن راكان وجد صعوبة في تجاوز ما حدث. وهدى.. "الله يهداها" أخبرت الجميع، صارت فضيحة، الجميع تهامس بحكاية الاثنين، ولم يرغب أحد بالحديث عن العقود والحسابات مرة أخرى، فقد أصبحت قصة دانة وراكان هي موضوع الساحة، ودانة تصرّفت كأن كارثة لم تحدث، كانت تجلس إلى مكتبها طوال النهار وترتدي سماعات أذنيها وتستمع إلى الموسيقى. كان بإمكاني أن ألاحظ، بكل تأكيد، أنها شحبت ونحلت كثيرًا، قال الجميع إنها أعراض انتهاء علاقتها براكان، لقد كانت مكتئبة. بعدها بفترة وجيزة توفّيت بحادث، كان الوقت ليلًا، وقد حدث الأمر في مواقف السيارات المقابلة للمجمّع. بقية التفاصيل تعرفونها من خبر الجريدة.

في تلك اللحظة أحسَّ جاسم أنه لا يريد أن يعرف أكثر. جلس على أقربِ كرسيٍ وهو يضغط جبينه بأصابعه. هديل لم تعترض.

سأل نايف؛ ما الذي كانت تفعله خارج المجمّع بعد التاسعة ليلًا؟ أومأت؛ بعد أن أنهت اللجنة الأولى أعمالها، قام بوعبد الله بنقلها من قسم العقود إلى قسم المتابعة، وأعمال المتابعة تقتضي إعداد تقارير محاسبية مفصلة. في أيامِ التقارير الختامية، كان الموظف المحظوظ هو الذي يستطيع تسليم تقريره قبل السابعة مساءً، دانة جديدة في القسم، كان هناك الكثير من الأخطاء، يبدو أنها تأخرت كثيرًا في تسليم تقريرها ذلك اليوم، لأن خبر الجريدة يقول أنَّ حادث الدهس حدث في التاسعة والنصف ليلًا.. وفي هذا الوقت تبدو الساحة شبه خالية.

سأل نايف؛ هل بقي معها أحد في الهيئة ذلك اليوم؟ هزت رأسها؛ لا يمكن أن تكون وحدها. رئيس القسم والمراقب والمدير، كلهم كانوا في انتظار أن تسلّم تقريرها، عندما غادرت الإدارة كانوا يواصلون العمل، وحسب ما أعرف فإن أيًا منهم لم يغادر في ذلك اليوم حتى تجاوزت الساعة العاشرة والنّصف. وراكان؟ سأل جاسم. راكان غادر في ساعات العمل المعتادة، فهو لا يعمل في قسم المتابعة أصلًا.

وكيف كان الأمر في صباح اليوم التالي، بعد أن عرف الجميع بوفاتها؟ سأل نايف. عقدت حاجبيها؛ لم يأتِ راكان للعمل في اليوم التالي، أخذ إجازة مرضية طوال أسبوع. نهضت من مكانها فجأة. لديَّ عملٌ كثير، يجب أن أعود الآن. أولتهما ظهرها، وراقباها بصمتٍ وهي تختفي في الممر الجانبيّ.

بعد أن اختفت هديل في الممر الجانبي، نظر نايف إلى صاحبه.

– شرايك بالكلام؟

لكنَّ جاسم لم يرد. كان العرق يرشح من جبينه ومن راحتيهِ، ألمٌ غريبٌ يخترقُ صدره.

– رِدني البيت نايف..

– علامك جاسم؟ تعبان؟

– رِدني البيت.

2

لم ينتبه جاسم لما قاله صاحبه. كان الطنين القديم يعاوده، لكنه لم يكن متأكدًا هذه المرة من الشيء الذي مات. كان كل ما يريده هو أن يعود إلى البيت ويدفن نفسه تحت الأغطية وينام حتى يكف الواقع عن كونه كابوسًا. لكنّه عوضًا عن ذلك، استغرق في النظر إلى صورتها الأخيرة على الانستغرام، فكّر بأنه يعرف الشخص الذي التقط لها تلك الصورة، أمام البحر، وهي تدفن يديها في كنزتها وتنظر بعيدًا في الليل. الشخص الذي كانت تمضي السَّاعات الطويلة في مكتبه، تركبُ معه في سيارته، تسهر معه حتى وقت متأخر، شخصٌ يحملُ لها حقيبتها، وملفاتها، شخصٌ لم تذكرهُ له قط. وكيف تذكره؟ في فترة معرفتها براكان كان جاسم في السجن، منهمكًا في قصّ القصص كل ليلة؛ عن السَّجين الذي يبيع الكوكايين لينقذ حياة أخيه، عن السجين الوافد الذي يخاف من الحرية، عن المعكرونة التي أكلها على العشاء. دانة لم تقل شيئًا عن راكان. دانة اختارت الصّمت. تساءل لحظتها إن كانت تسهرُ معه على الهاتف كل ليلة، من باب الشفقة. تساءل أيضًا، إن كانت في حقيقتها سعيدة برحيله، إن كان رحيله قد حررها لترتبط برجلٍ آخر، رجل مستعد لأن يسمّي الأشياء بأسمائها، لا يدعوها صديقته ولا يمعن في قتلِ حبّها في قلبه.

ألصق رأسه بزجاج النافذة عن يمينه. كانت السيارة عالقة في اختناق مروري، وكان نايف يقول أشياء كثيرة لم يسمع منها جاسم شيئًا. حتى إن صاحبه لكز زنده بإصبعه يوقظه:

– وين رحت؟

– ولا مكان.

– ما ودّك تمر المقبرة؟

– لأ.

لا يقدرُ أن يراها.

– البيت.

لا فائدة. إنه لن يعرف أبدًا حقيقة ما حدث. ليس السؤال هو إن كانت دانة قد قتلت أم لا، السؤال

تغيّر كثيرًا؛ هل أحبّته أم أنّه توهّم الأمر؟ كان في مقدوره أن يغفر لها حبَّ رجلٍ آخر، لأنه لم يطالب بقلبها أصلًا. لكن كيف يستطيع أن يغفر لها أنها أصبحت شخصًا يجهله؟

– علامك؟

نايف يسأله. كانت السيارة عالقة في الدوّار. الهواء ينضبُ من رئتيه، فتح النافذة وأشعل سيجارة. قبل أن يستلَّ منها نفسًا شتم صاحبه، وشرف صاحبه، ثمَّ لعن الدُّنيا ونفسه. وصار يردّد كل كلمة نابية تحفظها ذاكرته، بالعربية والإنجليزية معًا.

– خلصت؟

– لأ.

كانت المرارة تفيضُ من فمِه.

– خلني أسِب.

ولم تكن كلّ الشتائم كافية. لا اللغة، ولا الصّمت حتى.

– اسمع.. أنا ما راح أسألك شِلّي مزعلك، لأنه واضح.

– كثّر الله خيرك.

– أنا بعرف شي واحد بس..

انقبض بطنه.

– إنت ودانة ليه ما تزوّجتوا؟

ورغم أنه أراد أن يكابر، وأن يعيد سرد الأكاذيب ذاتها، وأن يقسم لصاحبه أنه ودانة مجرّد صديقين، إلا أنه لم يقدر. زفرَ ونكّس رأسه.

– ما أدري.

في تلك اللحظة تذكّر والده. سمِّ الأشياء بأسمائها، كان يقول.. ولكن في تلك اللحظة، كانت الأسماء تستعصي. لقد تغيّر وتغيّرتْ. المشنقة، الصاجة، عينا أبيه الحمراوان. "أنا حتى ما قمت أكتب". وجد نفسه يقول فجأة، كانت تلك أول مرة يحسُّ فيها أنَّ الأمر يهمّه فعلًا، أنه يعيش ناقصًا. "ولا أبي

أعيش حتى، شلون أتزوّج؟".. أضاف، ثم طلب من صاحبه، للمرة الثانية؛ "رِدني البيت".

ساد الصَّمتُ بين الاثنين طوال الطّريق. صار جاسم يتذكّر تلك الليلة، عندما التقاها في ساحة الكنيسة الإنجيلية. كانت قد أرسلت إليه؛ "أبي أشوفك". وهو، كان يتضوّر في قلبه إلى رؤيتها ولمسِها.

– الليلة.

– وين؟

– مابي أشوف أحد دانة.

تساءل، أين يمكن أن يختفي المرء في الكويت، كيف يمكن أن يتملّص من النسيج الاجتماعي، في هذه المدينة الصغيرة التي يعرفُ فيها الكل الكل، كيف يمكن أن يجد مكانًا لا يصادف فيه شخصًا يعرفه؟ لا يدري كيف خطرت الفكرة في بالها.

– نروح الكنيسة؟

كانت خيارًا آمنًا. أو هكذا ظنّ الاثنان. عند مدخل الكنيسة قرأ على قوس البوابة؛ تعالوا إليَّ يا جميع المتعبين وثقيلي الأحمال وأنا أريحكم. تذكّر الصيصان التي نفقت بين قدميه. نكّس رأسه ودخل ينتظرها في الحديقة. بعد وصوله بدقائق جاءت، وقفتْ عند المدخل تنظرُ إلى هزال قامتهِ ورأسه الحليقة، شهقت تضع يديها على فمِها ثم ركضت في اتجاهه. فتح ذراعيه، وعصرها بين أضلاعه. شمَّ عطرها وتنشق خصلات شعرها، كل زوّار الكنيسة سمعوا صياحها. راح يقلّب عينيه في الوجوه بحرج، ويمسح على رأسها بيديه ويهمس؛ ششش. أحاط كتفها بذراعِه وسارا معًا إلى مصطبة قريبة، جلسا متقاربيْن. يتذكّر تلك الليلة الآن ويتساءل لماذا لم يحدّثها عما خطّط له طوال شهور حبسه؛ زواجهُ منها؟ لا يدري لمَ. الأرجح أنّه كان متعبًا وحسب. وهو الآن متعب. لكن السؤال يغلبه؛ كيف قرّر الجميع أنها تليق برجلٍ آخر، فهي، على حدّ علمه، لا تناسب رجلًا غيره، ولا أحد يعرفها مثله. تدّعي أنها لا تحب السمك، لكنها مستعدة لأكله إذا ما أزال منه الحسك. تحبُّ أغنيات نوال، وكلما أمعن في التنكّر لمشاعرهِ كانت تغنّي؛ قول أحبّك. يعرف أنها تتحسَّسُ من وبر القطط. أنَّ الأخضر هو لونها المفضل. أنها تترك الأبجورة مضاءة طوال الليل. أنها تزمُّ شفتيها لا شعوريًا عندما تقرأ. أنها تضع أقلامها في غطاء قنبلة دخانية. أنها تشرب قهوتها بالحليب من دون سكّر. أن دورتها الشهرية تسبّب لها الصداع النصفي. رياضتها المفضلة هي النوم، لولا أنها لا تبرع فيه كثيرًا. في حياةٍ موازية كانت ستصبح مغنية. هل يعرفُ راكان كل هذه الأمور؟

لم ينتبه إلى توقّف السيارة المفاجئ. نباحُ كلب الجيران وحده انتزعه من أفكاره. كان قد وصل إلى

البيت فعلًا، وكان صاحبه ينظر إليه، وعلى ثغره ابتسامة غامضة، كأنه ينتظر أن يخرج من رأسه.

– متى وصلنا؟

اتسعت ابتسامة نايف:

– من شوي..

فكّ عن جسده حزام الأمان وهمَّ بالنزول. وضع نايف يده على كتفه:

– ترى ما خلّصنا.

– أنا عن نفسي خلّصت.

– الليلة أشوفك ونتكلّم.

– مالي نفس..

– تندم.

غمزه صاحبه..

– مجهّز لك شي طيّب.

ترجّل من سيارة صاحبه وسار داخلًا. في الطريق إلى البيت، وقف ليدلق المياه المتجمّعة بالسطل في حوض النخلة. وفيما هو يصعد الدرجات، دوّى في الفضاء نباح صلبوخ.

3

خُيِّلَ إليه، هذه المرةِ أيضًا، أنّه لم يغادِر المكان قط.

كانت صُفوف كراسي العزاء قد اختفت، كما اختفت أجزاء المصحف وجِرار ماء زمزم وكُتيّبات الأذكار. عاد كل شيءٍ كما كان عليهِ؛ الصندوق المبيّت، الطاولة المستديرة التي تتوسط الأرائك، الأواني الرخامية الممتلئة بالفستق الحلبي وأكياس العلك البصري. سار بمحاذاةِ الجدران يتأمّل لوحات السّور المعوذات، ولوحة النساء اللاتي يحملن تنكات الماء من البوم الآتي من شطّ العرب. ما الذي تغيّر؟ جلسَ على حافّة الأريكة يتساءل. شيءٌ ما ليس في مكانِه. يعرفُ بألا أثر لنسخة جريدة الأمس، ويعرفُ أن منفضة السجائر قد اختفت، أنَّ جهاز الريموت كنترول، الذي قُذفَ مرارًا على وجهه، مدفونٌ في مكانٍ ما، بين الوسائد. لكنه لم يكن يفتقد الأشياء التي لا يراها. كان يفتقدُ الأشياء التي لا تُرى، الأشياء التي لا يعرفُ ما هي.

كانت الساعة قد تجاوزت الواحدة ظهرًا، وعرف أنَّ أمّه ما تزال في غرفتها. في عالمٍ موازٍ، لم يفارق فيه عبد المحسن العظيمي الحياة، ستكون في المطبخ، تتنشّق البخار المتصاعد من القدور، تجهز أواني المهلبية. لكن ليس في هذا العالم. ليس الآن. صعد الدرج، وهو يتساءل إن كان سيراها تريح رأسها على سجّادتها، تدعو لأبيهِ، عديم الإيمان، بالجنّة. طرق الباب ثلاثًا، سمعها تدعوهُ للدخول. هذه المرّة كانت مستلقية، على الجانب الأيمن من السرير، تحدّقُ في الظلام.

كانت الستائر مسدلة، الأضواء مطفأة، هواءُ الغرفةِ، كشأنه، مشبّعٌ برائحة بواقي الشاي بالميرمية، ودهان أبو فأس. كانت تلك رائحة أمّه، لولا أنها بدت أكثف قوامًا، وعرفَ لحظتها أنَّ الهواء يزداد ثقلًا بسبب الحزن.

– يمّه؟

همس. رفعت رأسها تنظر إليه:

– هلا يمّه.

مدّت إليه يدها كي يجلس على الأرض، قريبًا منها، ويحتضن كفّها بكفّيه. كانت آثار البكاء ظاهرة على وجهها؛ وجهٌ محمر، متعب، يقفُ على حافّة الأشياء. كم تضيق الأشياءُ بأسمائها يا أبي! جثا

إلى جانبها وقبّل جبينها. أحسَّ بعرق جبينها يلامسه، وأخذ يمسّد برفقٍ على شعرها القصير المبعثر، وقد بدا مِفرق رأسها عريضًا، لامعًا. كان ثدياها قد تهدّلا على جانبيّ صدرها، وقد تركت أزرّتها العلوية مفتوحة، وصار بوسعه أن يرى جلد نحرها المتغضّن، ويسمع تنفّسها الوئيد، أحسَّ أنه يفهم كل شيء؛ لقد عاش لحظاتٍ مشابهة في حياته، أحسَّ فيها بأن التنفّس، في ذاتهِ، يؤلم.

– أكلتي شي يمّه؟

أومأت. خرج صوتها مشروخًا.

– خالاتك زاروني الصّبح.

قالت تطمئنه؛ لم تكن وحيدة طوال اليوم. كانت محاطة بشقيقاتها، وبنات أخوالها، وربما جاراتها. كل واحدة ستجيء بسلة معجّنات، أو قطعة كعك. سيجلسن حولها، يطعمنها، ويحرسن أفكارها. كلما ملأها الإحساس بالفقد حشون فمها بالأكل ورأسها بالمواعظ. في كلّ مرة كانت تبكي، كنَّ يذكرنها بضرورة الصدقة على الميّت، ويعددن لها الاقتراحات حول ما ينبغي لها أن تفعله بكل هذا الحزن؛ بناء مسجد، حفر بئر، صدقة جارية تنفعه في آخرته. كان في وسعها أن تتحدّث عن كل الأشياء إلا زوجها الذي رحل. بعد أن مضين، صعدت إلى غرفتها لتدفن رأسها تحت اللحاف، وصار في وسعها، أخيرًا، أن تبكيه.

ابتسمت لجاسم:

– الله يرحمه، كان مالي عليّ المكان.

نكّس عينيه. تراها ستغفرُ له لو عرفت أنه دفن والده كما لو كان يريد قتله؟ صار يفهم لماذا لا تريد أمّه مغادرة السّرير؛ لقد أفلتت من نطاق الجاذبية، لولا أن الطفو في اللامكان لا يعجبها. لقد عاشت في زمنِه هو، في عاداتِه هو. وعندما رحل صارت عالقة في اللازمن، تتساءل عما ستفعله بنفسها. قهوته الصباحية، سجائره، جريدة اليوم، خروجه للمشي في التاسعة صباحًا، دلق الماء في حوض النخلة، لعن صلبوخ، وحتى طريقته التي لا تطاق في التذمّر من الغبار أسفل الثلاجة، وأعلى فتحات التكييف. عندما يدلفُ إلى مكتبه ليقرأ، في الثانية عشر وحتى الثانية ظهرًا، يصبح في مقدورها أن تمارس حياةً تخصّها؛ تتابع قنوات الطبخ، أو تقرأ القرآن. لكنّ اليوم الذي لا يبدأ به، لا يبدأ أبدًا. تذكّر دانة، عندما كان في السّجن؛ "تشرق الشمس وأشعر أنَّ في الأمر خدعة". في تلك الأيام لم يساوره أيُّ شكٍ في كونها تحبّه. اليوم، هو لا يعرف.

سمع طرقاتٍ على الباب. التفت، كان شقيقهُ يطلُّ برأسه ويهمس؛ "يمّه؟" ابتسمت أمّه وهي ترفع رأسها بصعوبة؛ "حيّاك يمّه". دلفَ على وجلٍ، رأى شقيقه فابتسم، واضعًا يده على كتفهِ. جلسَ براك على

طرف السرير، قبّل جبين أمّه ويديها.

– بعدچ نايمة يمّه؟ الساعة صارت وحدة الظهر..

– مو نايمة يمّه، بس منسدحة.

– أكلتي شي؟

– الحمد لله.

قبضت بأصابعها على يدِ شقيقه تسأله:

– شلون نورة؟

– تعبانة، طول الليل تشكي من ظهرها.

– هذي يسمّونها تجادِيم. الله يهوّن عليها.

قبّل رأسها.

– كلها كم يوم ونبلغ فيه..

ولمّا اتسعت ابتسامتها، أضاف:

– عبد المحسن برّاك عبد المحسن برّاك العظيمي.. ونِعِم!

فكّر جاسم، يا له من إرثٍ ثقيل، هذا الذي يتربّص بطفل. كل هذا الاسم لقطعة لحمٍ لا يزيد طولها عن شبرين. سيكون عليهِ أن يكبر ليصير جزءًا من الحلقة التي تدور إلى الأبد؛ السابقون واللاحقون. الآباء والأبناء. الأسماء والأشياء. هل يمكن لطفلٍ اجتبته العائلة لحملِ اسم عبد المحسن العظيمي أن يفرَّ من قدرِهِ؟ كان يشفق على الصغير من حياته، حتى قبل أن يولد.

أمسكت الأم بيدي ولديْها وجذبت نفسها إلى أعلى. اعتدلت جالسة. مسَّدت شعرها بيديها وتمتمت؛ "خلوني شوي، أسبح وأنزل.. ما بقى شي على الغدا". ناولها برّاك ساعده لتستند إليه في طريقها إلى الحمّام، لكنها هشّت عليه بترفّع؛ "تراني بعدي بقوّتي!". سارت باتجاه الحمام فيما همَّ الشقيقان بالانصراف. قبل أن يغلق جاسم الباب، استرق نظرةً إلى الجانب الأيسر من السرير. كان مستويًا.

– عندك وقت نسولف شوي؟

أخفض برّاك صوته.

– ما ودّي أكدّر أمي، بس نحتاج نناقش موضوع الورث..

ابتسم جاسم وشَخَصَ في وجهِ أخيه، كان لا يصدّق ما يسمع.

– الورث؟

– إي..

– أي ورث براك؟

– شفيك جاسم، ورث أبوي!

ابتسم.. هزَّ رأسه يُمنة ويُسرة:

– عبد المحسن العظيمي ما ترك إلا بيت هدام.

4

دلف جاسم إلى غرفته، وبدت مثل غرفةٍ حقيقية.

كانت دشداشته البيتية، مع السروال المكسّر، قد تكوّما على بعضهما وسط الغرفة. نعله مقلوبة على وجهها. كان هواء الغرفة مثقلًا برائحة التبغ، وعطورات ما بعد الحلاقة. على المنضدة القريبة من رأسه، ثمة حلقة من آثار القهوة على السطح. أحسَّ بالحرجِ من أخيه الذي وقف عن يمينه، يتملى في الفوضى، وفيما هو يعدُّ المكان للجلوس على السرير، فكّر جاسم؛ هذه غرفة حقيقية، غرفة خاصة بأحدهم، وليس عليه أن يلمس الحنفية لكي يتأكد من أنه موجود. الأمر لا يُصدَّق.

يريدُ براك أن يتحدّث عن الورث، ولم يتصوّر جاسم أن يكون هناك ما يُقال بهذا الشأن. عبد المحسن العظيمي ما ترك إلا بيت هدام. وهو يعرفُ معنى أن يكون الإرث الذي تركه له والده خرابًا. الأمر أشبه بعقوبة؛ إن واجبك هو أن تهدمَ كل ما شيّده سابقوك، لأنَّ الأساس باطل، والبناء آيلٌ للسقوط، والنخلة سوّست، والصنبور مكسور.

تربّع فوق سريره. سأل شقيقه:

– ميخالف أدخّن؟

– خِذ راحتك.

مدَّ سيجارة إلى أخيه.

– جرّب.

ابتسم برّاك:

– ما تتوب؟

ويبدو أنه لن يسأم من المحاولة. كان يريد أن يرى في صورة شقيقه الناصعة نُكتةً سوداء. إن كانت لديه رغبة ما، فهي هذه، أن يبدو أخوه، ولو للحظة، أقل مثالية، كي يكفَّ عن جلد نفسه لأنه لم يكن، ولم يشأ أن يكون، في كمالِه قط. بعد أن تساقطت أحلامه جميعها؛ أحلامه بوطنٍ وحبيبة وحياة

مديدة من الكتابة، صار يريد شيئًا واحدًا، صبيانيًا وتافهًا، أن يكتشف بابًا سريًا إلى حياةِ أخيه الأخرى؛ حياة الخطيئة. حياة إنسان يمتلك زمام حقه في التجربة.

أفلت فمه ابتسامة وهو يقرّب السيجارة من فمِه، تساءل كم كان صعبًا على برّاك أن يكون شقيقًا لأخٍ مثله. ولماذا كان على شقيقه، طوال حياته، أن ينوء، بمصائبه. تذكّر زياراته الأسبوعية في السجن. حضوره جلساته في المحكمة، عندما دفع له ثمن تهريب هاتفٍ داخل السجن، وحتى عندما كان يزوره في لندن، مرة كل بضعة أشهر، ويترك له رزمة من النقود في الدرج ليكتشفها صدفة بعد أيّام. كان يكابر بأنه لن يأخذ فلسًا من شقيقه، لكنه ما يلبث أن يضعف، ويشتري لنفسه معطفًا غير مثقوب، وأحذية، وقناني يطفئ بها عقله. لقد كان، بجدارة، ذلك العبء الملقى على كتفيّ أخيه، والذي تقبّله براك من دون مساءلة، مثلما يقبلُ المرءِ حادثًا، مرضًا مميتًا، أو قدرًا مروّعًا. الأخ الأصغر الذي تمرّغ في السجن، والكتابة، والرحيل. الفتى الذي حاول وأخفق، بكل الخطاطيف المزروعة على ظهره، والعضّات على خاصرته، والرضوض في قلبه. هل يمكنه، للحظة واحدة، أن يقايض جحيمه بحياةِ أخيه؟ أحسَّ لحظتها أنَّ ما مِن شيءٍ يرعبه أكثر من أن يكون برّاك. أن يعيش بين الجدران، ممرغًا في القوانين ومعطوبًا في قلبِه. إنه لم يسمع شقيقه مرّة يبدي رأيًا بشأن الحراك المعارض، والربيع العربي، ومواقف الحكومة. ولم يتساءل قط، إن كان شقيقه في دخيلته يميل إلى صفّه، أم إلى صفِّ أبيه، لأن الأمر بدا خارج مدار اهتمامه، وأقصى تعليقٍ كان يبديه أمام أخبار الجرائد ونشرات الأخبار، هو أن يزفر ويهز رأسه محوقلًا.

– بخصوص البيت.

يرفع جاسم حاجبه الأيمن ويبتسم.

– الهدام.

صعّر براك خدّه.

– اللي هو..

نظر عميقًا في عينيه:

– الموضوع يعتمد عليك.

– أي موضوع؟

– موضوع بيعة البيت. إذا إنت قاعد بالكويت، ما يهون عليّ أبيع بيت أبوي.. بس إذا بترجع لندن، ماقدر أخلّي أمّي بروحها.

هزَّ رأسه.

– طلّعني برّا الموضوع برّاك، أنا مالي شغل.

– شلون مالك شغل؟

– تبيع البيت، تهدمه، ترمّمه.. إنت وأمّي قرروا.

– إنت لِك حِصّة بهالبيت جاسم.

– مابيها.

– هذا كلام فاضي.

– أنا ما أخذت من أبوي فلس في حياته، تبيني أورثه وهو ميت؟

نهض براك من مكانه. فتح الباب قليلًا، أطلَّ برأسه خارجًا ليتأكد أن أمهما لم تغادر الغرفة بعد. أوصد الباب ثانية، استند إليه وكتّف ساعديه.

– جاسم إنت ليش متخيّل إنك تقدر تعيش بدون أبوي؟

– أنا صار لي أربع سنين عايش بدون أبوي.

ابتسم شقيقه.

– والفلوس اللي كنت أحوّلها لك كل فترة؟ ألف ورا ألف ورا ألف، هذي منين؟

بوغت بسؤال أخيه. تسارعت نبضات قلبه واحمرَّ وجهه. هل يمكن، بعد كل شيء، أن يكون والده قد أحبَّهُ فعلًا؟

– هذي مو فلوسك؟

– لأ.

تدفقت الدماء مجنونة في عروقه. ما معنى هذا؟ أطفأ السيجارة بأصابع مرتجفة. هل كان يعتاش من مال أبيهِ طوال سنوات رحيله؟

– أبوي قالّك تعطيني؟

– طبعًا.

– احلف؟!

– وراس أبوي الغالي.

ولكن كيف يمكن لأبيه أن يحبّه أصلًا؟ وهو "ولد السِّو"، "طفل السياسة"، و"المردم" الذي يصطاد نفسه بنفسه؟ ارتجف قلبه.

– جاسم إنت بترجع لندن ولا بتظل معانا؟

سكت لحظة. أحسَّ بجفافٍ في فمه. لاحت في رأسه صورٌ من صباح اليوم. رأى دانة، تنظر إلى البحر وشخص ما، سواه يلتقط لها تلك اللحظة. رأي نفسهُ يفلتُ طرف الخيط.

– أنا راجع لندن.

– أمس قلت لي منت راد!

– هوّنت.. أنا راجِع.

ليس لديه شيء يبقيه. لقد عاد ليتمّم هزيمته. وحتى بعد وفاة والده، ما زال يشعر أنه يعيش في مملكته، لأن عبد المحسن العظيمي هو فكرة أكثر من كونه رجلًا، ولأن جاسم، حتى بعد أربع سنوات، ما زال مردمًا. تراها أحبّته فعلًا أم أنه تخيّل الأمر؟ فجأة، أصبح يعرفُ بالضبط ما ينبغي قوله:

– برّاك.. بيع البيت. اشتر لك ولأمي بيت جديد، ولا تنسى تحط لها أصنصير. ترى ركبها تعوّرها، بس هي تكابِر.. والنخلة.. لا تخلي النخلة.

وأصبحت مشكلة الصنبور المكسور هي مشكلة شخصٍ آخر. وجد نفسه يضحك، قهقه في وجه أخيه كالمجنون؛ انتهت المشكلة فعلًا، ولم يعد مضطرًا للمطالبة بإصلاحات! هذا حلٌ أكثر راديكالية يا أبي، وبدلًا من إصلاح الصنبور، سوف نبيع الأرض. وكل هذه المملكة التي شيّدها عبد المحسن العظيمي، كلّها هدام!

5

أدار نايف المفتاح في مقبض الباب. "يالله حيْهُم". أشعل الأضواء، وجد جاسم أن المكان قد كبرَ كثيرًا خلال أربع سنوات. كَبُرَ كما يكبرُ الأطفال، وتتفتّح قسماتُهم بجلاء. وعوضًا عن أن يتّسع فضاء الشقة، صار أضيق، لكنه اكتسبَ ذلك العمق الآتي من أربع سنواتٍ من الحياةِ السريّة، المدفونة في الصّمت، في شقة بالدور السابع، في عمارة بالسالمية.

كان جاسم قد رافق نايف ليشتري طقم الجلوس من سوق الجمعة. طقم رخيصٌ، تتراوح ألوانه بين الرمادي والأسود، مع وسائد من "السدو" الأحمر، والجلد البقري الناعِم. عندما جاء إلى هنا آخر مرة، قبل أربع سنوات، كانت هناك بضع صور ملصقة على الجدار؛ فهد العسكر، جورج أورويل، نعوم تشومسكي، وعبد الله السالم. الآن، أصبحَ الجدار مغطى بالصور، وقصاصات الأخبار، والقصائد، وأشرطة الكاسيت، وكل ما استطاع صاحبه تثبيته عليه. استطاع جاسم أن يلمح صورةً له محشورة بين قصاصات أخبار عن مسيرات "كرامة وطن". لكنه تظاهر أنه لم يرها. لاحظ أيضًا قصاصات خبر الجريدة عن حادث دهس مواطنة ليلًا. نظر إلى صاحبهِ وقد ارتفع حاجباه:

– كبرت الجدارية.

أومأ نايف.

– أخاف أنسى.

وأحسَّ جاسم أنَّ الأمر منطقي بالنسبة لصاحبه، يريد نايف أن يكون المصبُّ الذي تنتهي إليه ذاكرةِ كل الناس، فمثله يعيش كي يتذكّر. لأن هذه اللوحة الكونية التي تشكّلت على الجدار على مدى أربع سنوات، وبكل العشوائية الممكنة، تجعلهُ من هو عليه. نايف يخافُ أن ينسى، في حين هو، أشدّ ما يرعبه هو أن يتذكّر. تسمّر واقفًا أمام الجدار، يرى الصور والقصاصات التي تجاورت، وتجاوزت حدود بعضها، وتداخلت وتزاحمت. يرى القصاصاتِ التي لا يجمع بينها شيء، تتشابك وتنسجُ خيوطًا غير مرئية فيما بينها؛ منذ مارتن لوثر كينغ وحتى أم كلثوم، ومن غسان كنفاني وحتى عودة المهنّا. ومن تشي غيفارا وحتى فريدا كاهلو. هناك أيضًا إدواردو غاليانو، وبورتريه لطلال مدّاح وقد كتبَ تحته "أجيب لك قلب تاني منين؟".

أحسَّ بغبطةٍ مفاجئة عندما وجد بين الصور التي ألصقها صاحبه على الجدار، صورة عالية حسين. رغم أنه لم يكن قد فهم الأمر قبلًا، إلا أنه بدا بالغ الوضوح لحظتها. لقد عرف متأخرًا أن عالية هي الكويت، كويتُه هو، التي كفّت عن الغناء واحتجبت، وما فتئ يردّدُ وحيدًا أغنياتها القديمة آملًا أن تعود. كان البائس الذي ينتظر عودة بلاده من الماضي.

من بين الوجوه التي تجاورت على ذلك الجدار، رأى محمد الدرّة، صور تماثيل سامي محمد، وحنظلة ناجي العلي. وفي وقفتهِ تلك، أحسَّ أنه يفهم صاحبه. يفهم إحساسه بالثقل بصفته امتدادًا للتجربة بأسرها، ومنتهى لكلّ الأشياء. التفت إلى نايف، رآه جالسًا على الأرض، أمام الطاولة، يفردُ على سطحها لفافة. يدندن أغنية طلال مدّاح؛ يا ليلة دانة، لا لدانة لا دانة.. أرعبه أن يتردد اسمها إلى هذا الحد. كانت الوجوه كلّها تحدّق فيه، كأنها تحاكمه. من أنت، وما الذي يعنيهُ ألمك. شعر بركبتيهِ تخوران وتراجع إلى الخلفِ، باتجاه الأريكة. كان يتضاءل مع كل خطوة. ومرّة أخرى، بعد فارق أربع سنوات، شعر أنه كائنٌ طفيليّ على جلدِ حيوانٍ خرافي. برغوثٌ آخر يظنُّ نفسه مركز الكون.

أشاح بوجهه عن الجدار. عن الأعين المشرّعة على جزعه. جيلٌ من الآباء والأمّهات، أجيالٌ وأجيالٌ من الحالمين والفنانين والشعراء والصعاليك والشهداء. حوّل عينيه إلى صاحبه، راقبه يفرك التبغ بأصابعه، وفاحت في الهواء رائحة تشبهُ روث الخيول، لولا أنها كانت أكثر نقاءً. إنهُ ماضٍ جديًا في مهمة تذكيره. منذ أن ابتسم له في المقبرة وحتى هذه اللحظة بالذات، حيث يلفُّ له سيجارة ستجعله ينظر إلى جرحه دون أن يصرخ.

جلس على طرفِ الأريكة يراقبه، يبلل حافة اللفافة بطرف لسانه. مسح المكان بعينيه، مستذكرًا الأيام التي تلت إطلاق سراحه. لقد عاش شهرًا في هذا المكان، قبل أن يرحل إلى لندن، لم يحسب حساب أن الحياة في بيت عبد المحسن العظيمي ستكون بتلك الاستحالة.

يتذكّر جاسم صباح يوم خروجهِ من السّجن، بعد حكم الاستئناف. حكمت المحكمة بالاكتفاء بالمدة بعد ستة أشهر وتم تسريحه. كان يتضوّر جوعًا إلى الخارج.

أقلّه برّاك إلى البيت، خفق قلبه بجنونٍ وهو يرى السيارة تتوغل بين البيوت التي يعرفها بيتًا بيتًا. البقالة، محل السمبوسة، محوّل الكهرباء. شجيرات الدفلى على الأحواض الخارجية. البرحية الوحيدة في الحوش. كانت والدته تنتظره، وحدها، عند البوابة. ترتدي وشاحها الأبيض القطني، تضمُّ يديها إلى فمها. يتذكّر كيف قفز من السيارة، قبل أن يوقف شقيقه المحرّك، كي يحتضنها، وأن صلبوخ أخذ ينبح كالمجنون.

شبك يدهُ بيدِ أمه، سارا داخلين وبراك خلفهما. "ارتحتي ألحين؟" يتذكّر مداعبات شقيقه. "خايفة

عليه؟ هذا ينخاف عليه هذا؟ هذا شاقّ القاع وقايل اِمباع". لم تكن أمه تضحك. كانت تخافُ عليه، من الحكومة والنساء وغضبةِ أبيه والعين والحسد. قرصت براك في ساعده؛ "اِذكر الله!" ثم تشبثت بذراع جاسم وهي ترتقي الدرجات صوب مدخل البيت. "يا الله. يا كريم. يالله عليك ولا على غيرك". "أشيلك يمّه؟" سألها. "ما عوزك! أنا بعدي بقوّتي". أمسك جاسم بمقبض الباب ودخلا، كان كل شيءٍ في مكانه. الوسائد، الأرائك، جهاز التحكم ومنفضة سجائر أبيه، رأى خيط دخانٍ هزيل ينسلُّ من سيجارة لم تنطفئ تمامًا. أين هو والده؟

جلس على حافّةِ المكان وتظاهر أنه لم ينتبه لغيابِ أبيه، لكنّه صار يتلعثم، وخرجت الكلماتُ من فمه خديجةً ومشوّهة. حاول أن يساير بهجة أمّه وشقيقه، أن يمدَّ يده إلى صنوف الأطعمة التي جهزتها للإفطار الملوكي الذي خططت له بمناسبة إطلاق سراحِه، لكنه لم يقدِر. صار يشخصُ في الجدار، ويفكر في النظرة الأخيرة التي تفجّرت من عيني أبيه الحمراوين، قبل أن تعصب قوات أمن الدولة عينيه. لم يتخيّل، أنه بعد سجن ستة أشهر، سيعود إلى البيت ليجد كرسي والده فارغًا. كان مستعدًا لأي لوم، وأي شتيمة، وأي نعلٍ طائرة تحطُّ على وجهه. كان مستعدًا أيضًا لرؤيته دامعًا، مكسور القلب، لأن هذا الوغد الذي تمرّغ في الزنازين لستة أشهر هو ولده في النهاية. كان بإمكانه أن يغفر له صمته طوال أشهر سجنه، لكن كيف يستطيع أن يغفر له أنه لم يكن في انتظاره لحظة عودته، ولو ليشمتَ به؟

أحسَّ بحلقه يتحجّر. تضبّب العالم، وأصبح ضجيج الملاعق يؤذيه.

– وين أبوي؟

نكّس براك رأسه. قالت أمه دون أن تنظر إليه:

– ما طلع من غرفته من الصِبح.

يعرفُ أمه جيدًا، عندما تنسج له الأكاذيب اللطيفة لحمايته. تلمعُ عيناها بإفراط ويرتجف صوتُها. التفت إلى منفضة السجائر، رائحة دخان أبيه عالقة في الهواء. أخذت أمه تمسح على يديهِ برفقٍ وتردّد؛ "ميخالف. ميخالف". ولم يفهم كيف يمكنُ أن يكون ذلك. فقد تمَّ التخلّص منه، وعوضًا عن أن يستقبله والده بالدموع، أو الشتائم.. كان قد غادر.

هبَّ واقفًا، هرع إلى الطابق العلوي يصعد الدرجات مسرعًا. صاحت أمه تتوسّل إليه أن يترك والده وشأنه، همَّ براك للإمساك به، دفعه عنه. خلال لحظاتٍ كان واقفًا أمام باب غرفةِ والديه، يضربُه بقبضتيه.

– يُبه أنا رجعت!

كان يقول..

– يبه رجعت..

– ..

– طلعت من السّجن.

ساعداه مرتفعانِ أمامه. يعاودُ ضرب الباب.

– ما ودّك تشمت فيني؟

– ..

– تعال تسمخر عليّ.

– ..

– جسّوم يا وِلد السّوْ! ما ودّك تقولها؟

يخبط الباب براحتيهِ بسرعة.

– يُبه؟

ثمَّ يولي ظهره للباب. يهمُّ بالانصراف. تتشنج قدماه ويعود ثانية. يضربُ الباب برفقٍ هذه المرة.

– يُبه؟

– ..

– قرّت عينك يُبه.

أحسَّ ببرودةٍ في عينيه. يد شقيقه تحطُّ على كتفه؛ "اصبر عليه شوي، اللي صار مو سهل". لكنه دفعه بعيدًا، هرع إلى غرفته وأقفل الباب. في تلك اللحظة عرف أنه لم يكن في جحيم والده، ولا في جنّته. كان مطرودًا من الاثنين معًا. ثمة ما هو أقسى من العذاب الأبدي؛ إنه النسيان الأبدي. في تلك اللحظة، وقبل وفاة عبد المحسن العظيمي بأربع سنوات، عرف جاسم معنى اليُتم.

لم يرَ والده إلا بعد إطلاق سراحه بخمسة أيام. كان ذلك صدفة، في الممر الذي يمتد بين غرفة

نومه وغرفة نوم والديه. وجده واقفًا أمامه، مأخوذًا بالمصادفة تمامًا، وقد بذل كلاهما جهدًا كبيرًا طوال الأيام الماضية كي لا يلتقي الآخر متحسسًا مواعيده وروتينه. لكنه رآه، بدشداشته البيتية وشماغ رأسه الأحمر، خارجًا للتوّ من غرفته. كان جاسم عائدًا إلى البيت لتوّه. الساعة تجاوزت الرابعة فجرًا. تساءل لحظتها إن كان شعره قد نبت بما يكفي لكي تزول عنه سيماء السجناء. نكّس عينيه، أدار مقبض الباب ودخل غرفته، متحسّسًا عنقه.

بعد إطلاق سراحه بشهر، ما عاد قادرًا على العيش في بيت أبيه. وانتقل إلى هنا، إلى شقة صاحبه التي يخصّصها لنسائه.

انتهى نايف من لفِّ السيجارة، وانهمك في أمورٍ أخرى، مثل تضييف صاحبه أكياس الشيبس بالخل والملح، وشوكولاتة سنيكرز، ومعلبات عصير البرتقال. جلس صامتًا، والسيجارة بين يديه، ثمَّ عندما عاد نايف للجلوس قبالته، أشعل السيجارة واستلَّ منها نفسًا طويلًا، ثم آخر، وآخر..

لقد كانت فكرة جيدة جدًا.

6

لا يعرفُ جاسم، على وجهِ التحديد، كم مرَّ عليهِ من الوقت، وهو يحدّقُ في الجدار ويبتسم. لا يفهم كيف كفّت كل تلك الأعين عن إدانته، كيف اختلطت الأغنيات داخل رأسهِ؛ دانة طلال مداح، دانة عبد الله الرويشد، دانة عوض دوخي.. الكل يردد اسمها. كيف صار يطفو، فوق ذاكرته، كأنّها تخصُّ شخصًا آخر. داهمهُ الجوع فجأة، امتدّت يده إلى أكياس الشيبس وقطع الشوكولاتة. ورغم أنَّ نايف أصرَّ أن يستمعا إلى عبد الله الرويشد، فإنه كان ما يزال، داخل رأسه، يسأل؛ أجيب لك قلبِ تاني منين؟ كان مسرورًا دونما سبب، وتساءل لماذا يحتاج المرءِ إلى سببٍ كي ينشقَّ عن جرحه، ولماذا كان الوجود في ذاتهِ جرحًا، ولماذا عندما يكفُّ عن الطفو فوق ذاكرته، بعد ساعة أو اثنتين، سوف يخضع ثانية لقوانين العالمِ الطبيعي، وهي أن المرءِ يحتاج إلى سببٍ كي لا يتألم، أنَّ الشقاء هو أصل كل الأشياء. ورغم أن عينيه قد تسمّرتا على قصاصة جريدة عن دهس مواطنة في المدينة ليلًا، إلا أنه كان يحاولُ، بقدر الإمكان، أن يمنطق سعادته اللحظية غير المبررة. تساءل لماذا تحتاج السعادة إلى أسباب، في حين يمكن للحزنِ أن يتحقق ويكتمل، بلا سبب. عندما يصبحُ الحزن قديمًا ومعتّقًا، ويبدأ في فقدان طرقه السحرية في التعبير عن نفسه؛ عندما يعجز الحزين عن الحزن، عندما يدفن رأسه بين ذراعيه ويغرق في الصّمت آملًا أن يختنق فيه، سيقول الجميع أنه مكتئب. يمكن للمرءِ أن يكون حزينًا، بلا مبرر، وأن يحصل على اسمٍ برّاقٍ لحزنه. لكن لماذا تحتاج السعادة إلى كل تلك المعادلات الرياضية والتجارب المخبرية لكي نصدّق وجودها؟ تساءل لحظتها؛ هل أنا حزينٌ أم لا؟ لم يدرِ بم يجيب. كان قد بلغ تلك الأرض البكر التي تقع فيما وراء الحزن والسعادة. كان، ببساطةٍ شديدة، يطفو فوق ذاكرته، دونما ألَم.

تناول نايف هاتفه وشغّل أغنية من ألبوم نوال الجديد، انتزع جاسم الهاتف من يدِ صاحبه وأطفأ الأغنية. "وبعدين معاك؟" إنه لن يسمع ألبوم نوال الجديد، مهما حدث. ابتسم نايف؛ "علامك؟" لكنه لم يرد. مدَّ يدهُ باللّفافةِ إلى صاحِبهِ، وهو يكتمُ النَّفسَ الأخير في صدره. بعد لحظاتٍ زفرهُ عميقًا، وصار يحدّقُ في علبة الكلينيكس الموضوعةِ على الطاولة أمامه، ونثار البسكويت ورقاقات الشيبس وكثير من الرماد في المنفضة. أراد أن يغيّر دفة الحديث:

– أنا قلت لك متى دخّنت أوّل مرّة؟

ابتسم نايف.

– كان عمرك تسع سنين، وكنت منخَش ورا المحوّل..

هزَّ رأسه وارتحلت عيناه بعيدًا في الوجوه الكثيرة على الجدار. صح. رسم علامة الصّح في الهواء. تمتم؛ نايف يخاف ألا يتذكّر. هزَّ الآخر رأسه موافقًا. كان أمرًا منطقيًا أن صاحبه يتذكّر تفاصيل طفولته الصغيرة، إنه يصرُّ على خلق المعنى. نظر إليه يسأله:

– كنت تدري إنَّ دانة تدخّن؟

أومأ نايف.

– هي قالت لك؟

أفلت صاحبه ضحكة.

– جاسم وراك صاير لوح؟ دانة كانت تدخّن قدّامي.

ولا يفهم لماذا وجد صعوبة في تقبّلِ الأمر. لا يمكن أن تكون هناك مرّات كثيرة. مرة أو اثنتين، لقاءات ضرورية لتباحث قضية المترصّد المجهول. ولأول مرة وجد نفسه يفكّر بأمر المترصّد دون أن تتفجّر من فمه صنوف الشتائم. هل كان يحبّها فعلًا؟ وهل يلومه؟ ضحكَ من أفكاره، يعرفُ أنه لو كفَّ عن الطفو فوق ذاكرته، كما لو أنها تخصُّ شخصًا آخر، لو أنه علق مرّة ثانية في تلك الأسلاك الشائكة التي تسوّر حياته، لكان يغلي ويرغي، ولعله سينهض ويبرح صاحبه أرضًا، لكنه اكتفى بأن تناول منه اللُّفافة واستلَّ منها نفسًا وسأله:

– كم مرة؟

– وش اللي كم مرّة؟

– كم مرّة دخّنت قدامك؟

ضحك نايف.

– ما أذكر.

– كذّاب.

قهقهَ صاحبه.

– غيران؟

وبدلًا من أن يرفسه في بطنه ويضرب رأسه بالجدار، ضحك.

– عمومًا هي دخّنت بسببي.

– أردى فعايْلِك.

قال وهو يمدُّ يده لصاحبه، يريد أن يلتقط اللّفافة. "ماكو". قال جاسم، عاضًّا على اللفافة بأسنانه. "أقولّك هات". "تعَقُب". "اسمع الكلام". "اذلف". "أقوم أمردغك والله". "اقعد بس اقعد". ثمَّ سحب نفسًا آخر من السيجارةِ وهو يرقّص حاجبيه؛ "مالتي". ابتسم نايف.

– متأكّد؟

– طبعًا.

– كنت تحبها يعني؟

زفر.

– فوق ما تتصوَّر.

أحس أن غيمة رمادية تنقشع عن قلبه في تلك اللحظة.

– ليش ما تزوّجتها؟

– ما عندك غير هالسؤال؟

– جاوِب..

– خلاص نايف.

– أجاوب أنا؟

أشاح بوجهه. كان يفتّش عن طلال مداح في الجدار، لكنه عوضًا عن ذلك اصطدم بصورتهِ هو.

– لأنك ولد لِعظيمي..

أجاب نايف، ولم يكن محتاجًا لقول المزيد. هو "ابن العظيمي" وهي "دانة داود". لا أمه، ولا

شقيقه، ولا أبوه طبعًا، سوف يقبل بهذا الزواج، وفي نهاية الأمر سيكون مضطرًا لأن يقترنَ بها ضد رغبة أسرته. أن يطرقَ بابها وحيدًا، مثل ابنٍ للشوارع، وعلى افتراض أن أسرتها قبلت بزواجِهِ منها، ستعيش معه في عزلةٍ أليمة، موصومة بأنها ناقصة، وأقل مما يجب. كيف يمكنه أن يفعل ذلك بها؟ لا يستطيع. سمّاها صديقته، لأننا لا نملك دائمًا القدرة على تحمّل تبعات تسمية الأشياء بأسمائها، والحقيقة، كل الحقيقة، أنه يفضل مواجهة حكومات العالم الثالث أجمع، على أن يواجهها بذلك.

في تلك اللحظة أفلتَ اللُّفافة من يدِهِ. أعطاها لصاحبهِ وطأطأ. أحسَّ أنه يهبط، وأن ثمة وخزات طفيفة من الألم في صدرهِ، وتلك الأرض المستحيلة التي تقع فيما وراء الحزن والسعادة، قد اختفت. رفع عينيه إلى صاحبهِ يسأله:

– طاب خاطرك ألحين؟

لكن نايف لم يرد. كان منهمكًا في لفِّ اللفافة الثانية.

– إنت محتاج تقول هالكلام لنفسك، مو لي.

– وشالفايدة؟

– حتى تعرف اللي لك واللي عليك.

– مالي شي، وكل شي علي.

– مو توّك تقول إنها مالتك؟

– كانتْ.

صمت برهة. ثم همس؛

– ويمكن ما كانت. يمكن يتهيّأ لي.

في تلك اللحظة كان متأكدًا من الأمر. هذا الشيء الذي يتكسّر في داخله هو قلبه. ما عاد يطفو فوق ذاكرته. كل شيءٍ في هذا الجرح يخصّه. وتلك الأعين الكثيرة التي تحدّق به من الجدار، فلتذهب إلى الجحيم. هذا الألم التافه، ألم البرغوث، الألم الذي ليس شيئًا أمام جدارية الكون المحتدمة بالوجوه والحكايا.. هو ألمه هو، وهو حقيقته الوحيدة.

– أبو النِّيف..

– سم.

صمت لحظة. أحسَّ بمشقة الكلماتِ إذ تخرج من شفتيه. كان السؤالُ يصول في رأسه منذ البداية.

– دانة.. قط جابت لك سيرتي؟

مدَّ صاحبه يده باللُّفافةِ الثانية. تربّع فوق الأريكة المقابلة، نظر إليه وابتسم.

– إي نعم.

أحسَّ بتلك البرودة الغريبة تنتشرُ في صدره، كان مستعدًا لأن يتوقّف في حديثه عند ذلك الحد، الحد الذي يجعله جزءًا من أفكارها، من كلماتها. أنهُ لم ينتهِ تمامًا عندما رحل، وليس مضطرًا لأن يدقَّ على بابها مرةِ بعد مرة، لكي يذكّرها بعودته. سحب نفسًا عميقًا وأحسَّ بالخدر ينتشر في مؤخرة رأسه، وكان هذه المرة أيضًا، يطفو فوق ذاكرته وينظر إليها من بعيد.

– شقالت؟

وضع نايف يدهُ على فمه، يحاول كتم ضحكاته.

– شقالت يا جحش؟

– إلا شنو ما قالت؟

سكت نايف لحظات، واضعًا يده على فمِه، ثم انفجر ضاحكًا وهو يسدّد سبابته إلى وجه صاحبه:

– سبّتك لين قالت بس!

7

كانت تشتمكَ طوال الوقت. قال نايف، يزفرُ الدخان في وجه صاحبه، وقد اختفت الابتسامة من وجهه فجأة. كانت تشتمك لأنها لم تفهم. في كلّ مرة، كنا نلتقي فيها، وبمجرد أن ننتهي من الحديث عنه كنا نتحدّث عنك. عنه؟ قاطعه وفي قلبهِ غصَّة. عن المترصّد على تويتر، "شبلاك"؟ آه.. يهزُّ رأسه. للحظةٍ كاد ينسى أمره، أن يحتفل بإنجازه البرغوثي الصغير، بأن دانة كانت تشتمه مع أقرب أصدقائه. ورغم أنه كان طافيًا خارج ذاكرته، وقد وصل للمرة الثانية إلى الأرض القابعة فيما وراء الحزن والسعادة، إلا أن وخزاتٍ من فرح كان تنفذُ إلى صدره، كان بودّه أن يزفن بكتفيه، ويغني يا ليلة دانة لا دانة، ويشربك بيديه مصفّقًا.

لم تسألني عن أخبارك قط. أضاف نايف؛ وهو الأمر الذي جعلني أتوهّم أنكما على اتصال. لكنني، من دون قصد، كنت أجيئها بأخبارك، وأخبرها أننا تحدّثنا قبل أيام، وأنك بدأت العمل في مكتبة الكلية، وعن زيارات شقيقك، ونزوات سكرك، وأشياء أخرى.. فجأة كانت تتجهّم، تدمع عيناها وتبدأ في شتمك. بماذا شتمتني؟ سأل، وهو يشعرُ بألمٍ سفليٍ في بطنه. سبابُ البنات لا يوجع. قال نايف. سباب البنات؟ أشياء مثل؛ حمار، كلب، تيس.. ضحك صاحبه. لا، لا. كنت أحيانًا ابن الكلب، وكنت دائمًا الجبان. تشنّجت ملامحه. أشاح بعينيه وطأطأ. وماذا قالت أيضًا؟ قالت إنها، رغم مضيّ سنة وأكثر على رحيلك، لا تفهم حقيقة ما حدث. كان في وسعها أن تفهمَ لماذا رحلت، لكنها لم تفهم كيف نجحت في ذلك. كانت تتصوّر دائمًا أنك سوف تضعف، وتعود. لكنك كنت بارعًا في صرفِ الأمر برمّته عن رأسك. وأنا شرحتُ لها أنك تعيش حياة أخرى. دراسة، عمل.. ليس عندك الوقت، ولا الرغبة، في التفكير بالأمر. لكنها لم تفهم الأمر قط. إنَّ في وسعهِ، في أي لحظة، أن يصرفني عن أفكاره، وهذا يخيفني. قالت. وأنا.. رغم مضيّ كل هذا الوقت لا أستطيع، لا أستطيع.. بدأت تبكي. لا أستطيع ألا أفكّر به. إنه موجودٌ دائمًا في مكانٍ ما، داخل رأسي. اغرورقت عينا جاسم. ما بالها، هذه اللُّفافة، تفشل في تخدير ألمه؟ قذفه نايف بعلبة الكلينكس؛ خِذ. سحب منديلًا وجفف عينيه. ماذا قالت أيضًا؟ قالت إنّها لا تفهم لماذا لم يكن وجودها في الكويت سببًا كافيًا لكي تبقى، ولماذا لم تكن مشاعرك بالقوة الكافية لكي تأخذها معك. إنها لا تستطيع أن تفهم لماذا تخلّيت عنها، تصرّفت وكأن قرار الرحيل يخصّك وحدك. كانت تردّد بأنك طردتها من حياتِك، وعندما أسألها إن كانت قد صارحتك بكل ذلك، كانت تهزُّ رأسها وتقول؛ ماكو فايدة، جاسم ما يبي يسمع. في إحدى المرات، كنا جالسينَ على شاطئ الشويخ وكانت تبدو مكسورة وشاحبة، قالتْ إنها

تشعر بأنك أجهضت علاقتك بها. وهي تعاني من اكتئابِ الأم التي أجهضت جنينها. تقولُ بأنها طالما شعرت معك بأنها ناقصة، مرفوضة، وأقل مما يجِب. وأنا لم أصدّق الهراء الذي قالته؛ لا بدَّ وأنك تمزحين دانة! لكنها عصرت عينيها بأطراف يديها، وراحت تمسح الدموع عن وجهها مرارًا وتهزُّ رأسها بيأس. أنا لا أعرف حتى إن كان يحبُّني. أجهشت، ورحنا نبحث معًا عن مناديل تكفي لكل تلك الدموع. جاسم لم يقلها، لم يقل مرةً أنه يحبّني، وعلى حدِّ علمي.. كنا مجرد أصدقاء. هذا غباء، قلتُ. أنتِ وجاسم؟ مستحيل دانة، الشمس ما تتغطى بمنخل. هذي مجرّد شكليات، وجاسم مو بحاجة.. كنت أخبرها بما أشعرُ به كصديق مشترك، بأن الأمر مفروغ منه تمامًا، لكنها نظرت إليَّ بعينين متعبتين، مبلّلتين، وأخذت تردّد؛ مجرّد أصدقاء. لهذا السبب عندما رحل، لم يكن مضطرًا للقلق بشأني. أخبرتها أنَّ الأمر لا يصدّق، وأن الشك لا يساورني لحظة بأنّك تحبها، وأنك لن تمضي حياتك كلها في الهرب، والدراسة، والعمل، والشُّرب. في لحظةٍ ما، سوف تتذكّر وتعود إلى الكويت، وتقبض على ساعدها وتأخذها معك. لكنها ضحكت، أخرجت من حقيبتها علبة سجائر وأشعلت واحدة، عرفتُ لحظتها أنها تدخّنُ منذ صدور الحكم بحبسك. وقالت إنَّ التدخين أسهل من البكاء، ثم ملأت صدرها بالدخان ونظرت إلى البحر طويلًا، وهمست؛ جاسم لن يعود.

عندما نظر نايف إلى صاحبه، كان وجهه مخضّبًا بالدموع، ولم تكن ألف لُفافةٍ قادرة على تخدير السكاكين المزروعة في صدره. نايف نفسه، بدا على وشكِ الاختناق. لقد كانت على حق. همس نايف وهو يمسحُ دموعه بأكمامه، وكانت تلك أوّل مرة يرى فيها جاسم صاحبه يبكي بسببه. أكاد لا أصدّق أنك لم تأتِ لجنازتها جاسم. لا أستطيع أن أتخيّل أنّك..

لا أقدر. قال جاسم، خرج صوته مبحوحًا. كيف أحضر جنازة دانة؟ أحسَّ بالكلمات تتكلّسُ في فمِه. كيف أصدّق أنها ماتت؟ لكنها ماتت جاسم. قال نايف، بصوتٍ يرتجف. ماتت فعلًا، وأنا لا أصدّق كلمة واحدة من الحكاية التي قيلت عن موتِها. لكن قبل أي شيء، أنت بحاجةٍ لأن تصدّق أمرًا واحدًا. قبل قليل كنت تشكُّ أنها أحبّتك. ويكفينا فجيعة أنها توفّيت وفي قلبها الشكّ ذاته. أما بالنسبة لك، فقد عرفتَ ما يكفي.

8

قضى جاسم ليلته في شقّة نايف، عاجزًا عن تحريك جسده، كما لو أن جبلًا قد أطبق على صدرِه. عندما نام، قرابة الساعة الثالثة صباحًا، رأى نفسه واقفًا إلى جانب جدار، كان يعرفُ، بشكلٍ ما، أن دانة على الجانب الآخر. ضربَ بيدِهِ على الجدار مرّة بعد مرّة وهو يردّد؛ أنا رجعت! يبه أنا رجعت! ثمَّ استيقظ لأن صاحبهُ كان يقبض على يديه، يمنعهُ من ضربِ نفسه.

بمجرّد أن استيقظ، لفَّ الصّمت بقية النهار. وجد جاسم رسائل قلقة من أمّه وبرّاك. اتّصل شقيقه: "أمي تقول إنك ما ردّيت البيت من البارحة. وينك؟" يردُّ باقتضاب؛ "نمت عند نايف". حدسَ بما يعنيهِ ذلك لأمّه وأخيه. قبل أربع سنواتٍ، عندما حزم حقائبه وجاء إلى هنا، كان هاربًا. "فيك شي؟" برّاك يسأله. "ماكو شي، سهرنا وتأخر الوقت، نمت بدون ما أحِس". يعاتبه أخوه: "أمّي ما نامت ترى". لم ينتبه إلى عشرات الاتصالات والرسائل النصيّة التي لم يرد عليها. كان قد ضبط هاتفه على وضعية الصّامت، وترك نفسهُ يطفو، حتى هوى. "آسِف، ما انتبهت". تمتمَ وأنهى الاتّصال.

كانت الساعة تشير إلى الثامنة صباحًا، اليومُ في أوّله، لكنَّ قلبه ما زال جاثمًا في الليل. ورغم أنه يعرفُ، ولو افتراضيًا، معنى أن يطوّق حبلٌ عنقه، ويرفسُ حتى الموت، إلا أن هذا الاختناق آخر. لم يسبق له، في حياته، أن شعرَ بكلّ هذا الثقل. كما لو كان مقيّدًا إلى مرساةٍ تسحبه إلى أسفل، ليس ثمة حد للهاوية. استلقى على ظهره، ثم تكوّر على نفسهِ مثل جنين، أولى ظهره لجدارية الوجوه وصاحبه الذي تشاغل بإعداد القهوة. ورغم أنه برعَ، طوال أربع سنواتٍ، في ألا يفكّر بما يؤلمه، إلا أنه هذه المرة لم يقدر. ليس اليوم. هذه المرّة يريدُ ألا يعيش يومًا آخر. ولو كان ثمة زرٍ يضغطه المرء لكي يطفئ الواقع، ولا تعود للأشياء هذه الحدّة الجارحة، فهو يريدُ ذلك حتمًا. أنا مريض. فكّرَ بينه وبين نفسه. لكن مريضٌ بأيّ شيء؟ كان في تلك اللحظة يشعرُ أن من حقّه تمامًا، أن يستلقي على ظهره في شقّة نايف، أن يتدثّر بالأغطية، ويكفَّ عن الوجود. لقد ماتت وفي قلبها جرحٌ يخصّه. وان ذلك أسوأ من تعرّضها للدّهس، والتهديد، والترصّد، والرّعب، وكل الأذى الذي كابدته صامتةً، حتى سال خيطٌ من الدم من زاويةِ فمها، وشخصت بعينيها إلى سماءٍ سوداء، دون أن ترى نجمة واحدة على سطحِها. صار جسدهُ يرتجف، وهو يفكّر في الرّوعِ الكامن في تلكما العينين المشرّعتين على الرعب، تبحثان في السماء، تبحثان عن السّماء. كانت وحيدة في الليل، وقد أخذها الليلُ معه. أغمض عينيه ورآها، تسير في الشوارع الخلفية للبناء الأبيض الكبير. الخبرُ الذي ألصقه نايف على الجدار تضمّن بعض التفاصيل. الذين رأوا الحادث كانوا مشاةً

آسيويين، قالوا بأن سيارة شيفروليه سوداء، قد اندفعت فجأة وصدمتها. قيّد الحادث ضد مجهول، ولم يفهم أحد معنى ما حدث. لأن ما حدث كان بلا معنى، مثل كل الأشياء.

هو لن ينهض من مكانِه أبدًا. ليس هذه المرّة.

جلس نايف على حافّة الأريكة ولمس ساعده. "كيف أصبحت؟" لم يجد في نفسه القوة الكافية لمجرّد الرد، وصار يحدّق في وجه صاحبه بعينين ميّتتين. وضع نايف كوبًا من القهوة على الطاولة أمامه، جذبها ليقرّبها إليه. "لا تبرد قهوتك"، لكنه لم يتحرّك. "زقارة؟" حتى هذه، لم يعد يشتهيها. "أخلّيك ترتاح شوي؟" هزَّ رأسه. ثم أدار ظهره لصاحبه ودفن نفسه تحت الغطاء. بدا نايف مرتبكًا. دلف إلى غرفةِ النوم وبدّل ملابسه، ثم التقط هاتفه ومحفظته وتمتم؛ "نام شوي، ريّح". تسمّر في مكانه ينظر إليه. "إذا احتجت شي اتّصل، عندي مشوار أخلصه وأرجع". لم يرد. أغمض عينيه، ورأى الأشياء تنخلعُ عن معانيها. العالم مجوّفٌ وباطنهُ فارغ، بوسع المرءِ أن ينقر سطحه بإصبعه ويسمع فيه صدى اللاشيء.

غادرهُ نايف. وجد نفسه يحدّقُ في السّقف، فكّر أن ينام. أن يطفئ حواسّه ويغيب. لكن بقايا كلمات صاحبه ما زالت تتردّد داخل رأسه منذ أمس؛ لماذا نال منك السجن إلى هذه الدرجة جاسم؟ كانت ستة أشهر جاسم، مجرد ستة أشهر! لكنه يعرف أن الأمر لم يتطلب ستة أشهر لكي ينكسر إلى هذا الحد. لقد حدث ذلك مبكرًا، مع أول صاجة. صار يعرفُ، الآن على الأقل، أنَّه جُبِلَ من طينةٍ مختلفة عن طينة هؤلاء، أصحاب الصور على الجدار. وليس لديه عذرٌ لذلك، ولكن دانة، دانة لم تكن لتحاكم ضعفه أبدًا.

تذكّر لقاءهما الثاني في ساحة الكنيسة الإنجيلية، عندما سارا صامتيْن في ممرّات الحديقة، بين الأسوار الخشبية المطلية بالوردي الباهت، وأشجار الزيتون والجهنمية والكينا، في مجازاتٍ مرصوفةٍ بالطوب. كان يتذكّر كل شيء، كما لو أنه الرائي والمرئي في وقتٍ واحد، ورأى نفسه يجلس على عتبة المدرّج الواطئة، وكتفها يلاصق كتفه. كانت عطِرة، تتضوّع رائحة الورد والعنبر، ولولا العتمة في روحه، لكان حدّثها عن الأمور التي اكتشفها في الصاجة، مثل كُفره بكل ما آمن به، وإيمانه بكل ما كفر به. لكنه عوضًا عن ذلك، اكتفى بالحديث عن أبيه. إنه لم يتبادل كلمة معه مذ غادر السجن. وهي، حدثته عن أشياء لم يفهمها. "بس انتصرنا جاسم". قالت. لم يفهم، انتصرنا على من؟ ستّة أشهر من الحبس لأجل أربع مقالات. أراد أن يخبرها بأنّه ضحية وليس بطلًا، أنَّ الهزيمة تنخره حتى عظامِه، ولكنه نهض من مكانه وسار معها، هائمًا بجمال أشجار الكينا العالية، وقرص القمر الناقص، ورائحة المرأة التي.. المكان جميل. قالت، وهي تتأمّل الساري الأخضر المذهّب الذي ارتدته سيدة هندية تخرج من "قاعة المحبة". لديهم مكتبة أيضًا، ومراجيح! كانت تلك واحدة من اللحظات الأبدية التي تبدو فيها في غاية طفولتها. ابتسمت على النحو الذي جعله يبتسم، وهي تراقب الأطفال يتأرجحون في الباحة الخلفية لقاعة القداس، تحت السدرة العتيقة. فكّر لحظتها بأن لقاءهما في الكنيسة كان فكرة ذكيةً؛ مكان نابتٌ خارج المكان، لن

تصادف فيه أحدًا تعرفه، أنت الذي بثَّ تكره مكانك وتكره ناسه. عندما اخترقا زحامًا من الهنود، وامتلأ أنفه بروائحهم العطرية، أحسَّ أنه انخلع عن المكان الذي يؤلمه، كان قادرًا على أن يعزل الألم، وأن يبصق عليه.

في تلك الليلة تحدثا كثيرًا؛ حدّثته عن الوطن، وحدّثها عن الرحيل. حدّثته عن الإيمان، وحدّثها عن الشك. حدثته عن النصر، وحدثها عن الهزيمة. في تلك الليلة عرف كم تغيّرت أثناء سجنه، كم غيّرها سجنه. أتدري؟ حضرت مسيرة كرامة وطن. قالت تبتسم مزهوّة. لكنه أشاح بوجهه ولم يعلق. لا جدوى دانة، الخصم أضخم من أن نتصدى له جميعًا. لم يقل ذلك، ولكنه فكّر فيه. صارت تتحدّث عن قضية الإيداعات المليونية، وتتذكّر بلاع البيزة، ولم يُسر بتلك النبرة الغاضبة في صوتها، ولا من الطريقة المذعورة التي تنظر فيها إليه، كما لو كان شخصًا آخر. لقد كان فعلًا شخصًا آخر، لكنه كان مسرورًا لمجرد النظر إلى أشجار الكينا المنتشرة في المكان، وسماع رنين الأساور في معصميها. استسلم للصمت، وراح يعبُّ من سكون الليل، يتنشّق ضوع العنبر والورد، ينظر إليها والخدر يزحف شهيًا إلى رأسه.

جلسا على عتبةٍ إسمنتية. أفتقدُ العتمة. قال. إنهم لا يطفئون الأضواء في السجن. أراحت رأسها على كتفهِ وأغمضت، رغم ألمِها كله. كان مبتهجا لسماع صوت أنفاسها. وسقط كلاهما في شرك الخديعة. لقد ظنَّ فعلًا أنهما في مأمن. كيف وصلت صورهما إلى راكان؟ وكيف فاتهُ أن يكون تحت المراقبة؟ أنا آسف دانة. همس. آسِف.

الفصل الثّامِن

الحداق

1

لم يرد جاسم على أيِّ اتصالٍ من صاحبهِ منذ ثلاثة أيّام. كان الشعور الرماديُّ ينتشرُ داخله ببطء. شعورٌ بارد ومفرّغ من المعنى. لم يستطع حمل نفسه على فعل أي شيء. الأكل، الجلوس، النظر إلى الوجوه. لكنه لم يمنع نفسهُ من صياغةِ الجمل داخل رأسه؛ كل شيء باطل. هذا ليس حزنًا. الحزنُ يسيلُ وهذا الشيء اللعين يتكلّسُ في الصدر. شيءٌ يشبه الحاقّات. في هذا المكان الدموع لا تسيل، إنها تتجمّد وتجرح جفني.. كان يصوغ الجمل في رأسه صامتًا، محدّقًا في السقف. في تلك الأيام، ترك الشعور الرمادي يغلبه، ويأتي على كلّ حياته. لم يجد سببًا لمقاومته. لم يفكّر بالهرب، ولا حتى امتلك القوة اللازمة لترتيب حجوازته إلى لندن. شعر في أعماقهِ أن العالم مدينٌ له بأن يسقط ولا يعاود النهوض. في تلك الأيام لم يكن يقوى على الجلوس. كان يتمدد على جنبهِ، في سريره، في الديوانية، وفي غرفةِ الضيوف، يحدّق في شاشة التلفزيون، أو في السّقف، أو في الجدارِ أمامه، دون أن يرى شيئًا. مرّت ثلاثة أيامٍ..

ثمَّ جلس.

أحسَّ فجأةً أنَّ ظهره يقدرُ على الأمر، اعتدلَ جالسًا ومال بجذعهِ إلى الأمام، ليسكب لنفسه استكانة من الشاي. كانت جريدة اليومِ عن يمينهِ، وجهاز الريموت كنترول على الطاولةِ أمامه، مع أواني الفستق الحلبي والعلك البصري. تنشّق بخار الشاي. كان دافئًا، وكان في قلبهِ صقيع يكويه، صار يفهمُ لماذا توجد أودية زمهرير في الجحيم، وكان الجحيمُ في داخِله.

التقط الجريدة عن يمينه، قلّبها بسأم. كانت نسخة يوم الأحد، وكانت ناقصة، لأن مقالة عبد المحسن العظيمي لم تعد تتصدّر الصفحة الأخيرة. فكّر لحظتها؛ كم أَحَبَّ مقالات أبيه! لغته المتهكّمة، المفخخة بالبذاءات، وذاكرة ما فتئ العالم يحاولُ محوها. حياة لم يشهدها، فردوس مفقود لبلادٍ يصرُّ والده أنها مختطفة. لكن عبد المحسن العظيمي ما عاد يكتب، وجاسم ليس الوحيد الذي يعرفُ السّبب. يسأل نفسهُ الآن، وهو يقلبُ الجريدة على وجهها، ويرى صفحتها الأخيرة من دون مقالةِ أبيه. هل ندمَ على ما كتبهُ قط؟ يبدو أنه لم يجرؤ، منذ أربع سنواتٍ، على التفكير في الأمر. كان هناك زمنٌ قرأ فيه جاسم مقالات والده وهو يقهقهُ، وتمنّى من صميمِ قلبه أن يكتب مثلها. كانت مقالة الأحد لأبيه تبدو وكأنها الدقّة لبقية أيّامِ الأسبوع. شيءٌ يشكّل ملامح الأيام القادمة، يقرّر الهاجس، النبرة، الكلمات الرنانة التي يتداولها الرجال في الديوانيات والندوات. على ضوءِ ما يكتبُ عبد المحسن العظيمي يتشكّل الرأي العام، لقد سبق الجميع إلى تسميةِ الأشياء بأسمائها، ومن بعده صار الجميع يستخدم الأسماء التي اخترعها. لقد

استتبتَ كلماته في لغةِ الآخرين، وصارت مقالته في بداية الأسبوع تفرّخ مزيدًا ومزيدًا من المقالات؛ مقالات تكتبُ في ضوئها، مقالات تكتب عنها، ومقالات أخرى تكتبُ للرّد عليها، كان يستمتع بها أكثر من سواها، يقرأها وسيجارتهُ عالقةٌ في زاويةِ فمِه، يشير بإصبعه إلى المقالة ويبدو كأنّه يحدّث نفسه؛ «شوف الخبل شيقول». كانت واحدة من المتع الأثيرة التي وجدها في حياته.

قبل أربع سنوات، عندما كتب تلك المقالة في مدونته ردًّا على أبيه، لكي يعرّي الأشياء من أسمائها، كان يشعر وكأنه ينتهك حُجُبَ قدسيةٍ تغلّف والدهُ منذ عشرين عامًا. ورغم أن عبد المحسن العظيمي قد اعتاد طوال حياتهِ على قراءة عشرات المقالات التي تردُّ عليه، حتى إنه خصّص بعضًا من وقته أحيانًا للرَّد عليها، من باب التسلية المحضة، إلا أنّه، بعد مقالة ولده، كفَّ عن الكتابة تمامًا، ودخل في الصّمت العظيم، تاركًا كل الأشياء بلا أسماء.

ألقى بالجريدة من يدِه، شغل التلفزيون وسرحَ في مباراة للتنس الأرضي. كانت أمّهُ قد دلفت لتوها إلى غرفة الجلوسِ، ترتدي ثوب صلاتها وتحملُ مصحفًا. عندما رأتهُ، تسمّرت مكانها وابتسمت، ولم يفهم لماذا كانت تنظرُ إليه وكأنّها تراهُ للمرة الأولى. جلست على المقعد المقابل، تربّعت وشرعت تقرأ بصوتٍ خافت. كأنها تخاف أن تؤتي حركة تجعله يتحرّك من مكانِه. كانت ترفع عينيها بين دقيقة وأخرى لتنظر إليه، ولم يفهَم.

– شفيچ يمّه؟

– شنو؟

– تطالعيني..

ابتسمت عيناها.

– يتهيّأ لِك.

ولم يكن يفهم ما هو الشيء الذي لا تريد إخبارهُ به، ولماذا تلتمع عيناها بكل هذا الدّهاء. "وينه أخوك؟ تأخّر!" أغلقت دفّتي المصحف. كانت قد أتّمت قراءة وِردها اليومي. "عفية يمّه اتصل فيه، مو عادته يتأخّر". منذ وفاةِ أبيه، وبرّاك يتناول غداءهُ مع أمّه. يصطحب نورة أحيانًا، وبناته أحيانًا، ويجيء وحيدًا في الغالب كي لا يترك أمّه وحيدة. كان من الواضح أنه لا يستطيع الاعتماد على شقيقهِ لملء الفراغ الجديد.

في تلك اللحظة، دخل براك البيت ترافقه كبرى بناته، وتسمَّر واقفًا مكانَه ينظر إلى شقيقه المتربّع

على الأريكة، أمامه استكانة الشاي وأواني الفستق، ومنفضة سجائر مليئة بالرّماد، وجريدة يوم الأحد. لم يفهم جاسم لماذا اغرورقت عينا أخيه. حتى أمّه، كانت تنظر إلى أخيه كأنّها تفهم، وابتسمت.

– شفيكم؟

هزّ براك رأسه كأنه يطرد فكرة:

– ماكو شي.

– خلصوني شصاير؟!

– عبالي أبوي رجع.

استطاع في لحظةٍ أن يرى الأمر من خارجه. كان هناك، متربّعًا في بقعة والده الأثيرة، مع جريدة وسيجارة وشاي. يتفرّج على نشرة الأخبار عن تحركات داعش في مدينة الرقة السورية، وجهاز التحكّم بين يديه. كان يجلس في مكان أبيه، وسطَ قبيلةٍ من التفاصيل، حاملًا وجه والده ويداه وصوته. كان عبد المحسن العظيمي العائد من القَبر. "رحمة الله عليك يبه!" همس شقيقه، ثم اختنق بغصّته، دخل إلى حمام الضيوف وأقفل الباب.

2

"بسم الله"، قالت أمّه، وهي تنظر إلى ولديها، إلى الصحنين المملوئين بالأرزّ وقطع اللحم والمرق. كان جاسم ينظر إلى النقوش على زاوية الصّحن. وكان برّاك ينظرُ إلى جاسم. نهضت أمّه من مكانها لتسكب في كأسهِ وكأس شقيقه بعض اللبن. ثمَّ عادت تردّد "بسم الله". تظاهرت أنها تأكل، لكنها هي الأخرى لم تقدِر. ألقت بالملعقةِ من يدِها وأسندت جبينها إلى راحتها وهمست "أعوذ بالله من الشيطان الرجيم"، في تلك اللحظة همهمَ جاسم. "إكلي يمّه، إكلي". نظرت إلى صحن براك الممتلئ ورفعت إليه عينين جزعتين. "شفيك يا يمّه، ليش ما تاكل؟" ليس من عادته ألا يأكل. هذا أمرٌ يمكن أن يبدر من جاسم، ولد السوءِ. لكن برّاك؟ رفع عينيه إلى شقيقه، ثم أسند كوعيهِ إلى الطاولة وسأل:

– أقول لها؟

لم يفهم جاسم.

– عن؟

– عن الكلام اللي دار قبل يومين.

شصاير؟ تسأل الأم. فهمَ جاسم. ولم يتخيّل أن شقيقه قد كتم الأمر عن أمّه حتى اليوم. يبدو أنه اليوم قد ضاق بهِ تمامًا، لكنه يتصرّف كشأنه دائمًا. يحمل على كتفيهِ عبءِ الكلامِ. لو عاد الأمر إليه، لأخبر والدته قبل ليلة أنه عائد إلى لندن، أو ربما يحجز موعدًا متأخرًا في الطائرة، كي يتسلل من البيت أثناء نومِها، ثم يرسل لها من هناك أنه قد غادَر. رحيلٌ بسيط، نظيفٌ، ومن دون بلبلة، يشبه رحيله الأول.

في رحيله الأول، كان موعد الطائرة هو الثانية بعد منتصف الليل. نايف ينتظره في سيارته خارجًا. في اليوم السابق، قَبِل مجامِلًا دعوة أمّه على العشاء في مطعمٍ يحبّه، كان شرطه الوحيد أن يطلّ المطعم على البحر. تظاهر الجميع يومها أنه ذاهبٌ لأجل الماجستير فعلًا. أراد الجميع أن يصدّق الأمر، سعدوا لقراره الحكيم بإعادة النظام إلى حياته. كانت أمه تدعو له، بين لحظةٍ وأخرى، بالتوفيق والتيسير، وكان شقيقه يحدق فيه بعينين مليئتين بالخوف. يتذكر ذلك اليوم جيدًا، بنات براك حضرن، وامرأته، واثنتان من خالاته. تظاهرت أمّه أن والده آتٍ لولا ظرف طارئ داهمهُ في آخر لحظة. عرف أنها قد خططت لتلك

الكذبة مبكرًا عندما تمتمت "بنچرت السيارة وهو بنصّ الطريق"، وكان يضحك في قلبه على محاولاتها لرأب كل هذا الصّدع. وخطر له في تلك اللحظة أن يشاغبها ويسأل؛ "وين بأي شارع؟ ألحين أروح أصلّح سيارته". لولا أنه كان ثقيلًا مثل كيسٍ من الرّمل، ويعرفُ أن الأمر كله بلا معنى. تبادل مع شقيقه النظرات وحاول الاثنان كتم ابتساماتهما. ولأن عبد المحسن العظيمي لم يحضر العشاء الأخير لولده فقد مرَّ كل شيءٍ على ما يرام. بعد عودتهم إلى البيت، قبّل رأس أمّه، احتضن شقيقه وبناته ثم دخل غرفته ليرتاح قبل الرّحلة، وأبلغ الجميع أن نايف سيتولى نقلهِ إلى المطار. مطّت أمّه شفتيها. أحسَّ بوخزةٍ في قلبه لما نظر إلى عيني برّاك، لكنه كان متعبًا من البلاد والناس وأعفى نفسهُ من ثقلِ المجاملة. عندما تجاوزت الساعة منتصف الليل، خرج من غرفتهِ مع حقيبتي سَفر، نزل الدّرجات بهدوء، كي لا يوقظ أحدًا. رأى والده جالسًا على أريكة غرفةِ الجلوس. ارتجف قلبه. هل كان في انتظاره؟ حاول أن يخمّن ما يدور في رأس أبيه. تراه سيفتحُ له الباب مودّعًا؛ الباب اللي يودّي ولا يجيب، أم أنّهُ..

– يُبه؟

لم يحدث، في حياته، أن رأى والده يبذل كل هذا الجهد للعثور على الكلمات.

– خلاص عزّمت؟

لم يفهم إن كان والده يحاول استبقاءه، أم أنه فشل وحسب في العثور على جملةٍ مفيدة. حتى صار يسأل عن الواضح، ويستفهم عما هو بديهي.

– إي خلاص.

أشاح والده برأسهِ. يتذكّر جاسم ذلك الآن، ويتساءل إن كان قد فعل ذلك لإخفاء دموعه. في تلك الليلة، لم يكن قادرًا على تخيّل دموع أبيه. لكنه يعرف أنه عندما عاد ونظر إليه، كانت عيناه حمراوان. لكن متى لم تكونا حمراويْن؟ دسَّ والده يده في جيبِ دشداشته البيتية؛ خِذ. قال وهو يخرج رزمة من الأوراق من فئة العشرين دينار. هز جاسم رأسه:

– ما أحتاج.

حمل الحقيبتين وسار بخطٍ مستقيم إلى الباب الذي سيغادر منه إلى الأبد، أو هكذا كانت الخطّة. فتح الباب. صرّت مفاصله. سمع نباح صلبوخ ورأى أضواء سيارة نايف تنتظره خارجًا. عرف أن والده لن يقذفه هذه المرة بالأشياء. همس:

– مع السلامة.

استوقفهُ أبوه.

– جاسم!

التفت ينظر إليه. كانت أصابعه ترتجف. في تلك اللحظة لم يكن يشبه نفسه.

– خير يبه؟

اختنق بسؤاله:

– بترجع؟

طأطأ برأسه:

– لأ.

غادَر.

كان رحيلًا نظيفًا، من دون بلبلة. يشبه خروج الشعرة من العجين، وهو ما أراده لرحيله الثاني. أن يتسلل إلى غرفةِ أمّه في ساعةٍ متأخرة ليقبّل جبينها ويديها، ثم يهمسُ لها بأن تعود إلى النوم، ويخبرها أنه مضطر للعودة إلى لندن، لأن لديه اختبارٌ مهمٌ في نهايةِ الأسبوع. ولكن برّاك. برّاك يريدُ أن يتشاجر. فهو لا يمكن أن يخطئ نظراته تلك. يعرفها منذ صغره، لكنها اليوم لا تبدو مسليّة.

– يمه جاسم راجع لندن هاليومين.

لم يبدُ على أمّه أنها فوجئت. أومأت ببساطة؛ إي طبيعي يا يمّه، أخوك يدرس دكتوراه، يأخذ الشهادة ويرجع. ابتسم برّاك.

– وإذا ما رِجع؟

– اسم الله على عقلِك! وليش ما يِرجع؟!

سدّد برّاك نظراته إلى شقيقه، وأشار برأسه إلى أمّه:

– جاوِب.

نكّس جاسم عينيه.

– على شنو أجاوب؟

– بترجع ولا لأ؟

قلّب عينيه في المكان.

– يصير خير.

– جاوِب أمّك. بترجع ولا لأ؟

نظر جاسم إلى شقيقه شزرًا. أحسَّ بالغضب يتدفق في عروقه.

– إنت حيوان؟

– احترم نفسك.

– شفيك تدوّر مشاكل؟ تبي تكسِر قلبها؟

– إنت اللي تبي تكسِر قلبها!

انكمشت الأمُّ في مكانها، تمرر عينيها على وجهي ابنيها..

– يمّه جاسم مو ناوي يرجع. جاسم مو مسافِر يدرس، جاسم مهاجِر.

راحت تمسح بيديها على ساعدِ برّاك.

– ميخالف يا يمّه اهو يقول چذي، ما تعرف سوالف أخوك يعني؟ بس مردّه يرجع، وين بيروح يعني؟

ولم يظهر على براك أنه سمع كلمة واحدة. كان يحدق في وجهه؛ "أنا مو هذا سؤالي جاسم، أنا أدري إنّك مو راجع". وتساءل جاسم في قرارته، لماذا لم ينهض من مكانه ويغادر إلى غرفته. لماذا يشعر بشيءٍ يشدّه إلى عتمة الحقيقة في كلماتِ أخيه.

– أنا أبي أفهم ليش؟

سأل برّاك.

– شنو إللي ليش؟

– ليش ما راح ترجع؟

– وليش أرجع؟

– لأن أبوي ماتْ.

وبدا أن شقيقه يقاوم غصةً أخرى.

– أبوي مات ومالك عِذِر.

لم يستطع جاسم أن يشرح لأخيه، أن عبد المحسن العظيمي هو فكرة أكثر من كونِه رجلًا. أنه صرخ في الصاجة باسم أبيه. أنه مِردم، أن دانة دُهست حتى الموت. أنها انتظرت طوال حياتها أن يحبّها، وماتت تنتظر. لم يستطع أن يخبر شقيقه بحقيقة الأمر؛ لقد فشل تمامًا.

– أنا محتاج لِك.

همس براك.

– أوّل مرة بحياتي أطلب منك شي.

عندما يصطاد المردم نفسه بنفسه، عندما يتخبّط في الجدران ويدخل البيوت، ويشرع في الصياح حتى يكتشف الجميع مكانه، ويهرع صبية البيت للإمساك به.. عندما تحدث هذه المأساة، يكون هناك صبيٌ واحد راغبٌ بإطلاق سراحه. هذا الصبيّ هو برّاك. وبسبب جاسم تحديدًا، أصبح برّاك على ما هو عليه. إنه لم يترك له فسحة ليجرّب أي شيء، وقد استحوذ وحده على حقِ الخطأ. يعرف جاسم كل ذلك. يمتلئ بالذنب وهو يستحضر كل تلك اللحظات. لكنه يعرفُ أن الحُب لا يكفي. قبل أربع سنوات، لم يكن حبّه لها كافيًا لكي يبقى. واليوم.. حتى الموت لا يكفيه. نكّس رأسه.

– أنا آسف.

كان يعرف تمامًا على أي شيءٍ يعتذر، وشقيقه أيضًا كان يعرف. دفع كرسيه إلى الوراء ونهض واقفًا؛ تعبان. زفر، ثم سار على مهلٍ، باتجاهِ غرفته.

3

في تلك الليلة، قرّر جاسم أن يحجز مقعدًا على أوّل طائرةٍ ستأخذه إلى لندن، في اللحظة التي دخل فيها إلى موقع خطوط الطيران على شاشة هاتفهِ، يقارنُ بين الأسعار والمواعيد، رنَّ الهاتف في يدهِ. كان نايف. قرّر، قبل أن يردَّ حتى، أن يعتذر عن أية دعوة، لكنه لم يتوقّع أن يسمع تلك الكلمة:

– حداق؟

حَسِبَ الأمر في رأسهِ فورًا؛ موسم الشبط. يستطيع أن يظفر بأسماك الشعم، والسبيطي، وهو يحبُّ السبيطي. رأى نفسه ذاهبًا إلى محل الدواجنِ ليظفر بشيءٍ من مصارين الدجاج، رأى نفسه يجلس الساعات الطوال دون أن يفعل أي شيء. يدندن؛ يا نديم الراح، ويشمَّ رائحة البحر. فكّر رأسًا أنه يحتاج إلى قارب، يفعل أيّ شيءٍ ليجد نفسه على متنِ قارب، يتنفّسُ الملح والليل. سأل صاحبه؛ عندك طرّاد؟ لأ. وين المكان؟ المنقف، عند النادي البحري. كان في العادة يتولى اختيار البقعة التي سيخصصانها للصيد؛ نقعة الفنطاس هي الأثيرة لديهِ، لكنّه يحتاج إلى قارب وما عاد يملكُ قاربًا. مع ذلك فالأمر يستحق، سيبقى يلعن نفسهُ طوال عمرهِ إذا عاد إلى لندن دون أن يذهب للحداق مرة واحدة. ورغمَ أن البرد في الخارج يجمّدُ قلبه، إلا أنه مستعد لأن يجلس على الرمل ويرمي خيط الصيد ويصمت إلى الأبد، أو إلى طلوع الفجر، لأنه الوقت المثالي لصيد السبيطي، شيءٌ أخير واحد يريده من هذي البلاد؛ أن يصطادَ سمكًا.

وصلته رسالة نصية من نايف؛ "وصلت". نزل الدرجات ووجد أمّه تراجع حفظها من القرآن. عندما رأته طوت دفّة المصحف وابتسمت: "نورة جاها الطّلق، أخوك أخذها المستشفى قبل شوي". ابتسمت ابتسامة أخرى. كأن عبد المحسن العظيمي يعود إلى العالم. تشنّجت ملامحه. تمتمت أمّه؛ الله يهوّن عليها. تلعثم؛ آمين. بدا وكأنها انتبهت فجأة إلى خروجه من غرفته:

– وين رايح يمّه؟

– حداق.. مع نايف.

افتعلت ابتسامة. لم تكن تحبُّ صاحبه، صاحب السوء، الذي ينتزعه من بيته ليحشو رأسه بالأفكار الهدامة. كل شيءٍ فعله في حياته؛ منذ التدخين، مرورًا بالمشاركة في المظاهرات، وانتهاءً بالسجن، كان

بسبب "أصحاب السوء"، كما تظن. لكن جاسم لا يعتقد أن هناك من هو أسوأ منه.

– إذا ولدت نورة طمنيني يمّه.

هزّت رأسها. ثمَّ فتحت المصحف وشرعت تقرأ. يحدس بكل الأشياء التي تريد قولها؛ لا تتأخر برّا البيت، الله يبعد عنك عيال الحرام.. لكنّها لم تنبس بما لا يحتملُ سماعه. وعليهِ أن ألا يطيل على صاحبه أكثر.

ما إن ركب جاسم إلى يمين صاحبه، انطلقت السيارة بسرعة. لم يشم جاسم في السيارة رائحة الطّعم الذي يحتاجه، ولا توجد قوة في الدنيا تستطيع إخفاء رائحة مصارين الدجاج النيئة. التفت خلفه ولم يجد أية صنانير، أو خيوط صيد. كان على وشكِ أن يفتح فمهُ عندما سبقه نايف:

– جاسم أنا آسف.

– ليش؟

– حنّا مو رايحين نحدق.

– نعم؟

– كنت مضطر..

– وين رايحين؟

– ولا مكان.

كانت عينا صاحبه تلمعانِ على نحوٍ أرعبه.

– شصاير؟

أوقف نايف السيارة بجانبِ الشارع، نظر إليه. كان عليّ أن أكذبَ عليك. قال نايف؛ خفت أن أتصل بك وأجدك في الطريق إلى المطار، وبدا لي أن الحداق هو الشيء الوحيد الذي يمكن أن يبقيك يومًا آخر. أعرفُ أنني حوّلتُ حياتك إلى جحيم في الأيام الماضية، وأعرفُ أنك تعبت ولكن.. اليوم، اليوم صباحًا ذهبتُ إلى مقرّ عمل دانة، وهذه المرة لم أبحث عن هديل. قرّرت أن أسأل أول شخصٍ أراه أمامي عن راكان وأنظر في عينيه لأرى إن كان قد فعلها حقًّا. ذهبت في التاسعة، وسلكتُ ممرًّا لا يفضي إلى مكتب هديل، كانت هناك امرأة تراجع بعض الأوراق، كانت هدى. حيّيتها وسألتها؛ أين يوجد مكتب راكان.

ارتفع حاجباها وسألت؛ من حضرتك؟ وكنتُ قد حضّرت الكذبة مسبقّة؛ أنا ولد خالته. حينها انتصبت المرأة واقفة وأشارت إليَّ بالانصراف وإلا نادت الشرطة، وأنا لم أفهم السّبب. عفوًا أنا ولد خالته وجاي أسلم عليه.. احمرَّ وجهها وطلبت مني الانصراف، راحت تصرخ في الممر تنادي رئيس القسم، تجمّع من حولنا الموظفون وهم ينظرون إلي، كما لو كنت لصًّا، اتهمني الجميع بالكذب. كان عليّ أن أنسحب وأنا أغلي من الغضب والخزي، لم أفهم كيف لهم جميعًا أن يعرفوا بأنني كاذب. انتظرتُ هديل حتى نهاية ساعاتِ العمل. جلستُ في المصلّى، أراقب الممر من ثقوب المشربيّات الفاصلة بين المصلى ومخرج الإدارة. انتظرت لثلاث ساعات، بدأ الموظفون في المغادرة تباعًا، ثم لمحت هديل تغادر، تبعتها أمشي بين فلول الموظفين العائدين إلى بيوتهم، أطأطئ كي لا يلحظ أحدٌ وجهي، عندما صعدت سيارتها وصارت وحدها تمامًا طرقتُ على زجاج النافذة وأنا أنتفضُ من الغضب. وهي.. عندما رأت وجهي أصابها الهلع، وكانت على وشك أن تدوس بقوة على مكبس البنزين، لكنها تراجعت بعد لحظاتٍ وفتحت النافذة. قبل أن تبدأ بقول أي شيءٍ سألتها؛ وين راكان؟ ويبدو أنها فهمت كل شيء. لقد سمعت ثرثرة الموظفات عن المحتال الذي جاء صباحًا ليسأل عن راكان مدعيًا أنه ابن خالته. تنهّدت. أنت مجنون، قالت. سألتها ممكن نتكلم؟ ولم تشأ أن تسمح لي بالركوب إلى جانبها كي لا يرانا أحد، فأعطتني رقم هاتِفها لأتصل. لوهلة خطر لي أن تلك المحتالة قد ضحكت عليّ برقم مزيّف لتهرب مني. لكنني عندما اتصلت بالرقم أجابت وأخبرتني بما كنت أعرفه، أن ما فعلته اليوم كان جنونًا. من تظنُّ نفسك؟ تنتحل أية صفة وتأتي إلى بيئة عمل وتظنُّ أن أمرك لن يُفتضح. يبدو أنك ستجلب لي المشاكل، وأنا لم أكن لأتحدّث إليك أصلًا لولا ابن خالي.. وكانت الثرثارة على وشك أن تستمرَّ في ترديد السخافات لولا أنني قاطعتها بسؤالي؛ وين راكان؟ سكتت لحظة ثم أجابتني: "راكان توفى". هذا ما لم أتوقّعه أبدًا. بوغتُّ وسألتها؛ "ليش ما قلتي؟" ردت ببساطة: "إنت ما سألت!"، يا له من عذر! الأرجح أنها كانت خائفة، لا تريد التورّط بالمشاكل. "متى توفى؟" سألتُها. لا أذكر تحديدًا، قالت بأنه مات بعد شهرين تقريبًا من وفاةِ دانة. سكتت لحظة وقالت؛ وأنت بدوت كالأحمق، ابن الخالة الذي لا يعلم بوفاة ابن خالته. كيف مات؟ سألتُها، صمتت لحظة وأخذت تستغفرُ مرارًا. شلون مات؟ أعدت السؤال، بهدوء. بعد أن استغفرت تلك العاهرة لمدة دقيقةٍ ونصف، تكلّمت أخيرًا؛ "يقولون انتحر". في تلك اللحظة بدت تلك المرأة على حقيقتها، تزعم أنها تتعفّف عن الشائعات والأقاويل والنمائم، والحقيقة أن لديها حكاية طويلة عن العاشق الذي قتل حبيبته الخائنة ثم انتحر. طلبتُ منها أن تعطيني الاسم الكامل لراكان لأبحث في الجرائد، أنهيتُ المكالمة فورًا.

أحسَّ جاسم بجفافٍ مفاجئ في فمِه. كان ينظرُ إلى صاحبه الذي يحدّق في الشارع أمامهما، مزموم الفم، وقد أخذت أصابعه ترتجف. استلَّ نايف سيجارة وأشعلها. كان عليَّ أن أعرف.. ولم يفهم جاسم بماذا يهرفُ صاحبه. بحثتُ في الإنترنت. أردف نايف. بحثتُ في محرك البحث وعثرت على اسمه في صفحة الوفيّات. لقد توفّي بعد سبعة وخمسين يومًا بالضبط من وفاةِ دانة. بحثت عن أخبار مرتبطة

بالوفاة، إذ استبعدتُ ألا تكتب الصحف عن شابٍ ينتحر بسبب حبيبته الخائنة! قرّب نايف السيجارة من فمهِ واستلّ نفسًا. ثم راح يهزُّ رأسه مرة بعد مرة. شرع يشتم. ماذا وجدتَ في الصّحف؟ سأله جاسم. رفع سبابته ووسطاهُ في وجهِ صاحبه يردّ؛ خبريْن. نفث الدخان من منخريه ثم ألقى بعقبِ السيجارةِ من النافذة. وجدتُ خبرين، أحد الخبرين كان الرواية العاطفية التي أخبرتني بها هديل. انتحار مواطن بسبب قصّة حبٍ فاشلة. كعادة كل ما تكتبه الصحافة الصفراء، لم تكن هناك أسماء، هذه المرة لم تذكر الجريدة حتى الحرف الأول من اسمه، كان الخبر مليئًا بالهراء، شيء على شاكلة؛ العثور على جثة مواطن انتحر في سيارته، قرابة الساعة التاسعة صباحًا، بعد أربع ساعات من حدوث الوفاة. كانت هناك أقاويل تنتشر في المنتديات ومواقع التواصل الاجتماعي عن علاقة الشاب الذي انتحر بحادث الدهسِ الذي راحت ضحيته فتاة أحبها. يقول الخبر أن سبب الوفاة هو تناول كمية كبيرة من الحبوب المنوّمة أدت إلى هبوطٍ حادٍ في ضربات القلب مما أدى إلى الوفاة.. بصق نايف خارج النافذة؛ تِف. بدا لجاسم أن صاحبه يقاومُ بصعوبةٍ تقلّبات معدته، بدا غاضبًا كما لم يره من قبل. وجّه عينيه إلى عيني جاسم وأردف؛ أما الخبر الثاني، فهو العثور على جثة مواطن (ر. ع) في سيارته إثر تعاطيه جرعة زائدة من الهيروين، وقد حدثت الوفاة في مواقف السيارات القريبة من النادي «إكسيد» الرياضي الذي يرتاده، وقدّر الأطباء الشرعيون أن الوفاة حدثت في تمام الساعة السادسة صباحًا، بعد خروجه من النادي، وقد عثر في سيارته على مجموعة من الحقن والمخدرات.

نظر نايف إلى جاسم بعينين حمراوين، محتقنتين. أنا لا أصدق هذا الهراء، وأعرفُ أنَّ الذي ينتحر بتناول حبوبٍ منومة لن يموت مرة ثانية بحقنة مليئة بالهيروين، أعرفُ أن الخبر الأول قد تعمد ألا يذكر الحرف الأول من اسم المتوفي، ولا اسم النادي الرياضي، لأجل أن يحافظوا دائمًا على احتمال أنَّ الخبر يخصُّ شخصًا آخر. وهذه القصة الغبية، قصة الشاب الذي قتل حبيبته ثم انتحر، والتي انتشرت في الإنترنت من مجهولين ثرثارين، فالأمر يشبه الأفلام الهندية، لذلك فأنا أميل إلى تصديق ما ورد في الخبر الآخر، لم تكن حادثة انتحار، كانت وفاة بجرعة زائدة. وأخشى أننا نعرفُ جيدًا ما يعنيهِ ذلك.

4

أوقفَ نايف سيارته في عرضِ الشارع ونظرَ إلى عينيّ صاحبه؛ وصلنا. أحسَّ جاسم بتلك القشعريرة تهبط من كتفيهِ إلى أسفل ظهره. ثقلٌ غريب يدبُّ في رأسه. التفت لينظر عبر النافذة إلى مدخل النادي الرياضي عن يمينهِ. أومأ لنايف فزمَّ الآخر فمه، خيّم حزنٌ غريبٌ على الاثنين. لقد حدث الأمر هنا، في واحدٍ من مواقف للسياراتِ الممتدة بطولِ الرّصيف، ربما على بُعد سبعة أمتار، ثلاثة أمتار، أو حتى نصف متر من هنا.. فقد أحدهم حياته.

ترجّل الاثنان من السيارة، عبرا المدخل الزجاجي للنادي الرياضي. أخبرا موظّف الاستقبال بأنّهما يرغبان بجولة في النادي. على الجدار المقابل، كانت هناك ملصقات لعروض ترويجية عن مكمّلات غذائية، وإعلان عن ساعات عمل النادي التي تمتد طوال أربع وعشرين ساعة يوميًا. أخذا جولة في قاعة التدريب، بين المتدرّبين المنهمكين في الركض على الأجهزة ورفع الأثقال.

وقف الاثنانِ عند المدخل عندما اقترب منهما رجلٌ عظيم الزندين، حليق الذقن، يرتدي سروالا مطاطيًا قصيرًا كاشفًا عن فخذين غليظين، وقد تضخمت العروق في ساعديه وحتى أطراف أصابعه. كان هناك عرقٌ ناتئ بين حاجبيه، له عينان رماديّتان. يرتدي شارة المدرّب، وكان اسمه "ڤيكتور".

كان يمشي كالقبقب. أو هكذا فكّر جاسم وهو يقيس بعينيه الفراغ بين ذراع الرجل وجانب جذعه. حدّثهما بإنجليزية مطّعمة بكلماتٍ عربية، يتخلّلها الكثير من حرف الخاء، حتى أنّه عندما أراد تحية الاثنين سألهما؛ كيف خالك؟ وبين جملة وأخرى، كان يدسُّ كلمة "خلو" و"خبيبي"، وهو يشرح لهما عن نظامِ الاشتراك في النادي. أنصت الاثنان بصبرٍ إلى معلومات بدت لهما بلا معنى، مثل عدد المنتسبين؛ تو خندرد مور، على حد تعبيره، وساعات الذروة؛ ساعة واخد نون، علّق بشكلٍ غريب على البُنية الهزيلة لجسديّهما، في البداية لم يصدّق جاسم ما فهمه؛ ما من امرأة ستنتظر إلى رجلٍ له قامة تشبه سحّاب سرواله؟ لم يكن متأكدًا أن هذا هو المقصود، لكن الرّجل أخذ يرفعُ يمناه ويُنزلها مرة بعد مرّة أسفل بطنه، حتى إنَّ وجه نايف قد اصطبغ بالأحمر وهو يهمسُ لصاحبه "شهالخبل؟"، ولم يتمكّن جاسم من كتمِ ضحكاته. ضحك الثلاثة فجأة، سالت الدموع على خدّي الاثنين، والرجل ينظر إليهما ويضحك وهو يردّد "خبيبي.. خبيبي".

بعد أن خمدت موجة الضحك، صافحهما فيكتور وهمَّ بالعودة إلى عملهِ، عندما استوقفهُ جاسم؛ ون

مومنت. أخرج محفظته من جيبهِ وأخرج منها أربع ورقاتٍ من فئة العشرين دينار، فاتسعت حدقتا الرّجل، وارتفع حاجباه عاليًا. همس جاسم: أنا مو جاي أشترك.. وأضاف بالإنجليزية: نحن نبحث عن معلومات. انفورميشن فيكتور. ارتبك الرّجل. قاد الاثنين بصمتٍ إلى ركنٍ خالٍ. تلفّت حوله ثمَّ سأل:

– يو آر پوليس؟

– لأ. نو پوليس.

– وت إنفورميشن؟

– إنفورميشن عن واحد نَفر.

وفكّر جاسم أن الرجل ليس غبيًا كما يبدو. نظر إلى الأوراق في يدِ جاسم وسأله بالإنجليزية:

– هاو متش؟

– ثمانين دينار.

– خندرد. ون خندرد.

ابتسم جاسم وأخرج ورقة أخرى من فئة العشرين دينار. في لحظةٍ مدَّ المدرّبُ يدهُ وقبض على الأوراق، دسّها بسرعة داخل سرواله المطاطي الخالي من الجيوب. فكّر جاسم لحظتها أن الرجل قادر على أن يطيح بهما بلكمةٍ واحدة، وأن يظفر بمالهِ كلّه، دون أن يعطيه شيئًا في المقابل، لكنَّ المدرّب، بعد أن قبض مقدمًا ثمن المساعدة التي سيقدّمها، سألهما؛ وت إز إت؟

أخرج نايف من جيبه قصاصة الورق التي تتضمن الاسم الكامل لراكان. أعاد كتابة الاسم بأحرف إنجليزية وأعطى الورقة لفيكتور. "آي تشيك". سوف أبحث، قال المدرّب، وطلب من الاثنين أن يتبعاه إلى غرفةِ القياسات. فتح جارورًا وراح ينبشُ في الملفّاتِ حتى استخرج واحدًا وهتف، كمن عثر على كنز؛ "آي فايند!"

انتزع جاسم الملفَّ من يدهِ، كانت تلك أول مرة ينظر فيها إلى وجه راكان، في صورة شخصية مثبّتة أعلى الورقة. ورغم أنه كان من المفترض أن يبحث عن بياناتٍ يتقصى فيها قضية موته، إلا أنه في تلك اللحظة لم يفكّر إلا بأمرٍ واحد؛ كيف يبدو؟ وكان ذلك هو الشيء الوحيد الذي يهمّه. أن ينظرُ إلى وجه الرجل ليعرف إذا ما كانت دانة قد أحبّته أم لا. ورغم أنه كان شابًا لطيفًا، بحاجبين أزجّين وعينين ناعستين، إلا أنه لحظتها عرفَ على نحوٍ لا يقبل الشك، أنَّ دانة لا يمكن أن تحبَّ الرجل في الصّورة،

لأنّه ببساطة.. لا يشبهه.

– علامك؟

نهرهُ نايف، انتزع الملف من يدهِ؛ "هذا وقته؟!" راح يطابق الاسم مع ذاكرته ويراجع بقية البيانات. ثمَّ رفع رأسه ونظر إلى فيكتور؛ "تعرفه؟ يو نو راكان؟" أجاب فيكتور أنه يرى في اليوم الواحد مئة وجه؛ خندرد فيس. وأنه لا يستطيع تذكّر كل شيء. "ذس مان".. رفع نايف الصورة في وجهِ المدرّب؛ "هذا نفر موت في سيارة عند النادي. ذس مان داي هير". "داي خِير؟! أووووه!" ضرب الرجل كفّاه ببعضهما وهتف؛ "يِس! يِس!" منذ سنوات.. صحّح له نايف؛ سنتين.. هزَّ الرجل رأسه؛ "آي واز ساد. خورِبل! خورِبُل!" سأل نايف صاحبه:

– شيقول؟

– كان حزين.. فظيع، فظيع..

صار المدرّب يهزّ رأسه. أخبرهما بكل ما يعرفه؛ قبل سنوات.. (سنتين! صحّح له نايف). يِس، يِس.. قبل سنتين مات، آي سي نوثنغ. لم أشاهد شيئًا، المارّة اشتبهوا أنه ميت، اتصلوا بالإسعاف. جاءت سيارة الإسعاف وأخذته. ذي تيك هم تو خوسپيتل. بعدها جاء متدرّبون كثر.. توك توك توك.. يتكلمون كثيرًا عنه. قالوا إنهم قرؤوا الخبر في الجرائد. سَمْ ساي.. البعض يقول أنه قتل نفسه. "أوزُر ساي".. الآخرون يقولون بأنه كان مدمنًا على المخدرات ومات بجرعة زائدة.

وما رأيك أنت، فيكتور؟ سأله نايف. وت دو يو ثنك؟ عفطَ الرجل وضرب الطاولة على يمينهِ، كأن الأمر يغضبه منذ سنوات؛ ذاي ستوپد! خُمارة! خيروين نو! إمپوسبُل..

– ليش إمپوسبل؟

– ذس مان ترين! ذس مان وورك! ذس مان إييت..

نظر نايف إلى صاحبه:

– شيقول؟

– يقول إنه الرجال كان يتدرّب، ويشتغل، ويأكل..

فرد ڤيكتور أصابع يمناه في وجهِ نايف؛

– فايڤ أوكلوك.

– كان يتدرّب الساعة خمس الفجر..

– آفتر موسْك.

– بعد المسجد.

– إيت بروتين.

– يأكل بروتين..

– ڤيري سترونغ.. ڤيري سمارت.

رفع نايف يدهُ في وجه صاحبه؛ خلاص فهمت! قلب صفحة الملفّ أمامه، بحث عن العنوان وأرقام الهواتف. صوّر الصفحة بهاتفهِ وأشار برأسه لصاحبه؛ سرينا؟

5

كأنَّ قتله لا يكفي، اضطروا أيضًا إلى تشويه سمعته. بصق نايف من نافذة السيارة المفتوحة عن شِماله. لا يذكرُ جاسم متى كانت آخر مرّة رأى فيها صاحبهُ غاضبًا هكذا. ربما مع فضيحة الإيداعات المليونية، أو بعد أن أصدرت محكمة أول درجة قرارها بحبسه لسنتين. تساءل جاسم لماذا لا يساوره الغضب ذاته، لماذا ينتشي بهذا السرور الآثم، لمجرد أنه اكتشف، من النظر إلى وجه راكان، أن دانة ما أحبّت غيره. كان ممتلئًا بالخزي. بعد أن مات جميع أبطال الحكاية الحقيقيين، جاء هو، مثل راوٍ عليم.. يبتهجُ لأن البطولة لم تكن له قط.

رمق نايف بطرفِ عينه، كان مشغولًا بترديدِ الكلام نفسه مرّة، بعد أخرى؛ لقد سمعتَ الرّجل.. شاب يتدرّب في الخامسة فجرًا. يصلي الفجر في المسجد، يذهب إلى عمله في الثامنة، ملتزم بحمية غذائية. هذه ليست حياة مدمن على الهيروين. لقد ماتَ بطريقةٍ لا تشبهه، هل تعرف ما يعنيه هذا؟ هل تعرف؟ لقد قُتل الاثنان.. دانة وراكان. اللعنة! قال ذلك ثم أوقف السيارة فجأة في حارةِ الأمان القريبة، خرج منها يلفُّ وجهه في شماغهِ، يخفي دموع غضبه.

ترجّل جاسم. وقف إلى جانبِ صاحبه مستندًا إلى السيارةِ وأشعل سيجارة. أخذ نايف السيجارة من يدِ صاحبه. عبَّأ صدره بالدخان.

– أبو النّيف..

– مو قادر أسامح نفسي.

– على شنو؟

– أنا ويني من سنتين؟ ليه ما سوّيت شي؟

طأطأ جاسم. حتى هو، تأخر في الوصول كثيرًا، ثم عاد ليخوض في أسماءٍ اخترعها آخرون. "كنت شاك إنه الحادث مدبّر، أنا كنت معاها من قبل لا تموت، ولا سويت شي!" قال نايف. ضرب سطح السيارة بقبضته وشتم. طبطب جاسم على كتفِ صاحبه.

– بس هذا إنت جيت.

قال محاولًا مواساته، رغم أنه يعرف بألا جدوى من الأمر. وفكّر جاسم لحظتها أننا لا نولد مرادم، لكن النظام يحوّلنا إلى مرادِم. كل ناشط ومهتم بالإصلاح سيتحوّل إلى ضحية حماقته الخاصة، لأن الرغبة بالتغيير هي أم الحماقات جميعها.

إنهم ينسجون الفضائح. قال نايف؛ لا أحد مستعد لسماعِ كلامٍ ممل عن الفساد والرشاوى والسرقات إذا كان البديل هو فضيحة آداب عامة. فتاة تخونُ حبيبها، يقتلها وينتحر. هذا الشعب يحتاج أن يعيد تعلّم بعض الكلمات. كان صوتهُ يرتجف.

أخذ جاسم يحدق في المكان حوله. أعمدة إنارة الشوارع الصفراء، الليلُ البارد والوحشة. كان في تلك اللحظة يشعرُ، مرة أخرى، أنه برغوث، وأن الحكاية لا تخصّه.

تصدّق؟ قال جاسم؛ كلنا فكرنا أنني كنت تحت المراقبة بعد السجن، لكنني لم أكن الشخص المراقَب. كانت دانة. كانوا يريدونها هيَ.

تذكّر كلمات دانة. كلما خرج للاعتصام كانت تجنُّ من الخوف. كانت تقول هذه ليست ثورة، ولا نصف ثورة، ولا حتى ربعها جاسم، وسيجيء يومٌ لن نعود فيه قادرين على إحصاء الخسائر، ولما سألها؛ شنو البديل؟ قالت؛ الإصلاح. قبل أربع سنوات، كان جاسم هو الطرف المشاغب، الباحث أبدًا عن المشكلات، الكاتب المزعج الذي يهدد النظام. سيبدو الأمر منطقيًا لو أنه كان تحت المراقبة، ولكن دانة، التي تحدّق بدأب نملةٍ في الأرقام والعقود.. كانت تخيفهم فعلًا. لقد أرادوها هي. راكان أيضًا أخافهم. أردف نايف. كانا يعرفان أكثر مما يَجِب. أحسَّ جاسم أنه يريد أن يعرف. هذا الشيء الذي يكتشفه المرء ويكون ثمنه حياته. ليس عنده شيء يعيشُ من أجله، ودانة هناك. على الضفة الأخرى من نهرِ العدم. ربما يكون الموت هو العلاج الوحيد الفعال لألمِ الذاكرة. كانت تعتريه شهوة مضطرمة لتدمير نفسه، وكل شيءٍ آخر.

– شنو نقدر نسوي؟

– لازم نعرف ليش، لازم الكل يعرف..

وربما إذا عرف الجميع لن يضطر أحدٌ للموت، ولكن لماذا كان على دانة أن تموت؟ في اللحظة نفسها وصلتهُ رسالة نصيّة على الهاتف. كان شقيقه يحملُ إليه الخبر السعيد؛ نورة ولدت، جابت لنا عبد المحسن براك العظيمي.

فلتبدأ الحكاية، إذًا، مرة أخرى.

الفصل التّاسع

إيكاروس

1

في تلك الليلة رأى جاسم الحلمَ نفسه.

كان يقفُ أمام الجدار إياه، يسمعُ دانة تصرخ باسمه من الطّرف الآخر. اقتربَ مِن الجدار، يتحسّسه بأصابعه. وجدهُ صقيلًا وباردًا. كان جدارًا من زجاجٍ عاكس. ألصق وجهه بالسطحِ الزجاجي فرأى، عَبرهُ، دانة جالسة أمام طاولة، بيدين مصفّدتين. الأضواء الكاشفة مسلّطة على وجهها. كانت تناديه. تَراجَع خطوة وتعثّر، ازدرد ريقه.. جاسم يعرفُ هذه الغرفة، غرفة التحقيق، لكنه لا يفهم لماذا يجد نفسه في غرفةِ المراقبة. أخذ يخبطُ على الجدارِ بيديه؛ دانة! دانة! لحظات وفُتح باب، دخل رجلٌ ببزةٍ عسكرية وجلس على طرف الطاولة. التفت الرجل صوب الزجاج العاكس، لكنه، على عكسها، كان يستطيع رؤيته. جسّوم يا وِلد السُّو! صاحَ الرجل. استيقظ متعرّقًا، عرف بأنه، حتى في الحلمِ، قد وصل متأخرًا.

عندما استيقظ كانت السَّاعة قد تجاوزت الواحدة ظهرًا. لم ينم جيدًا ليلة أمس، ظل يتقلّب حتى سمع أذان الفجر. ثم عندما نام رأى الجدار ذاته. تفسير الأحلامِ ليس أمرًا مسليًا، مثله مثل اللعب بالنّار والمشي بين الألغام وتصفح الصور القديمة، وكل ما هو خطِر. ليس ثمة متعة في أن تذهب في تأويل أسوأ مخاوفك. والدك في بزّةٍ عسكرية، أنت في غرفة المحققين، ودانة تحت الاعتقال. جاسم يعرفُ ذلك العالم جيدًا، ومع ذلك، ما زالت أحلامه قادرة على مفاجأته. هزّ رأسه. لن يفكّر في متتالية الكوابيس التي تجثمُ على لياليه. أغمض عينيه وتذكّر الليلة الماضية. كان قد أمضى الساعات ينبشُ في هاتفه باحثًا عن الصّور التي تجمعهما معًا؛ سوق الجمعة، المباركية، ساحة الإرادة.. تساءل لماذا لم يأخذها لصيدِ السّمك حتى ولو لمرّة واحدة؟ يذكرُ أنها أخبرتهُ ذاتها مرة بأنها ترغبُ في زيارة جزيرة فيلكا، تريد أن ترى آثار الإسكندر المقدوني وما كانت تبدو عليهِ الجزيرة في زمنٍ كانت فيه إيكاروس. تخيّل.. في حياةٍ أخرى كان يمكن أن نكون يونانيين، إيكاروسيين تحديدًا، أو أي شيء آخر. لا أحبُّ هذه الحكاية. قاطعها. أيّ حكاية؟ سألته. أرسل عينيه في البحر؛ إيكاروس.. ابن الإله الساذج الذي توهّم نفسه قادرًا على بلوغ الشمس. ابتسمت وهي تقبضُ على زندهِ؛ وأنت؟ ألستَ مثله؟ ضايقه السؤال. أجاب؛ المطالبة بالإصلاحات السياسية شيء والوصول إلى الشمس شيء آخر، لا أفهم لماذا تبدو أبجديات الحياة الأساسية مستحيلة على أمثالنا، لا أنا لستُ مثله، نحنُ، على عكسه، نعرفُ ما نفعل. في تلك الأيام، لم يكن ذلك الشيء الذي يسمّونه الإيمان قد غادر قلبهُ بعد. أنت تأخذ كل شيءٍ بجدية. تمتمت.. وعلى أيّة

حالٍ ليس هذا ما قصدتهُ. وما الذي قصدتهِ إذًا؟ أقصد.. أن تكون ابن الإله، ألا تظن؟ ألا تشعر أحيانًا بأنك ابن الإله؟ تذكّر والده، ابتسم. رفعت يدها عن زندهِ وتمتمت؛ ربما، في عالمٍ آخر، لن تكون أنت جاسم عبد المحسن العظيمي وأكون أنا دانة داود فقط.

– شقصدچ؟

– ولا شي..

غمغمت ثمَّ راحت تنظرُ إلى باخرةٍ ضخمة تعبر الخليج. كانت تلك المرة الأولى التي تشيرُ فيها إلى الجدار بينهما؛ جاسم العظيمي ودانة داود. إلى أيّ حدٍ يمكن لاسمك أن يحدّد مصيرك؟

وتساءل لحظتها، لماذا، من بين جميع المعارك التي خاضها ضد الجدران، والحكومة، والمعارضة، وضد والده شخصيًا.. لماذا جَبُنَ عن المعركة الوحيدة ضد نفسه؟ لماذا تركها تنسلُّ خارج حياته كما لو أن الأمر "أكبر منه؟" كل الأشياء أكبر منك. "دانة". همسَ باسمها. مرّت سنتان ولم ينادِها. الشوقُ يكوي قلبه.

اعتدلَ جالسًا، تربّعَ فوق السرير، بشعرٍ منكوشٍ ووجهٍ متعب. اتّصل بصاحبه:

– وينك؟

– بالشقّة..

– شالخطّة اليوم؟

– الوعد بعد المغرب.

أغلق الخط. ساعاتٌ تفصل بينه وبين موعده مع نايف. ماذا عساهُ يفعل بكل هذهِ الذاكرة؟ ألقى برأسه على الوسادة ثانية، أغمض. لن يُمضي الساعات القادمة وهو يقظ.

نام ورأى جدارًا آخر..

عندما اقتربَ موعدهُ مع نايف، خرج جاسم إلى الحوش ينتظر. أفرغ السَّطل في حوض النخلة، ثم أعاده تحت الصنبور وجثا بالقربِ منه، وهو يحدّق في فانيلته الداخلية التي تحيطُ بعنق الفوّهة. تساءل عما سيحدث لو أنه خلع الفانيلة عن عنق الصنبور. حاول أن يفك عقدة القماش المربوط فوق المقبض لولا أنه كان مبتلًا، ملتحمًا بالفوّهة. المشكلة هي الصدأ. تمتم لنفسه؛ لقد صدأ كل شيء وما عاد بالإمكان تحريك المقبض. قبض عليهِ بكلّ قوّته وحاول إحكام إغلاقه. تذكّر والده، إنه لم يحظ بفرصةٍ واحدةٍ للبرهنة

على صواب أفكاره. نحن غير مضطرين للتعايش مع الخطأ يا أبي. أدار المقبض بكلّ قوته، فبدأت خيوط الماء تتطاير في جميع الجهات وتخترق الهواء. أحدها حطّ على عينهِ ولوّث دشداشته. يا ابن الكلب! شتَم.. وفكّر لحظتها أن من حسن حظه أن والده قد مات. وكاد يسمعُ داخل رأسه صوت ضحكاتِه. مِردم! ما قلت لك؟ بلى يُبه، قلت! قلت! إنت دايمًا كلامك صح يُبه، مو چذي؟ كان يحدّثُ صنبورًا مكسورًا.

– شتسوي؟!

التفت خلفه ورأى نايف، ينظرُ إليه بعينين ضاحكتين. مرر نظراته على دشداشته المعفرة بالترابِ عند الرّكبتين، الملطخة بالبقع، وقطرات الماء على جبينه وأنفه. لقد صدأ ويجب اقتلاعهُ. قال متحججًا. ابتسم نايف؛

– ليه ألحين؟

– بس.

كان والده يردد في سنواته الأخيرة أن البلاد ليست جاهزة للحكومة المنتخبة. ليس هذا هو الوقت المناسب! كان يقول، وكان يردُّ بدوره أن الوقت المناسب لفعل ما هو صحيح هو الآن، ودائمًا. "ما تِفهم!" قال والده؛ "الأحكام السياسية دائمًا هي أحكام مقارنة". "مقارنة بأي شيء يبه؟" أن "تختار المرق الذي ستُطبخُ فيه"؟ المليارات التي ستسرق باسمك. التحوّل الوئيد إلى ديكتاتورية ناعمة. أن يحوّلك القانون إلى لحم مفروم لأخذ العظة. ليس هذا هو العالم الذي يريد العيش فيه، وهذا في النهاية هو مجرد صنبور مكسور، وكل ما عليه فعله هو استبداله.

بدأ التسريب يشتد. لو غادر الآن وترك الصنبور على هذه الشاكلة فلسوف يغرقُ الحوش كلّه. أدار المقبض بالاتجاه المعاكس، يريد أن يعيده إلى عهده القديم. هل قلت تطويع الخطأ لصنع الصواب.. يا أبي؟ كان يلهث، وقد تشنّجت عضلة زنده وهو يجاهد لإغلاق الصنبور. الخيوط المتطايرة في جميع الجهات خفتت، لكن بدلًا من القطرات المتسرّبة صار هناك خيطان يخترقان الهواء، أحدهما ينحرفُ يمينًا. ضحك.. نايف أيضًا ضحك. «والحل؟» سأل صاحبه. نحتاج إلى سطلٍ آخر. قال نايف، وهو ينظر إليه بطرفِ عينه. يكاد لا يصدّق أن صاحبه قد اتفق أخيرًا مع والده! نفخ، نهض وهو ينفضُ دشداشته، بحث في المخزن، عاد بسطلٍ ثانٍ.. وضعه على الأرض ليلتقف خيط الماء المتسرّب يمينًا. اعتدل واقفًا، ينظرُ إلى لطخات الماء والغبار على دشداشته. إلى الضحكات المكتومة في وجهِ نايف.

– كِل تبن.

أفلت الآخر ضحكاته.

– روح بدّل ملابسك.

2

عندما صعد جاسم إلى السيارة، لاحظ أن صاحبه قد تأنّق للمشوار فوق عادته، وأنه ارتدى شماغ جيفنشي الأبيض، وتعطّر بدهن العود. حتى تلك اللحظة، لم يكن يعرفُ أنه في طريقه للقاء أسرة راكان. لم يتوقّع أن يحدث الأمر بهذه السرعة. هذه المرة أيضًا أحسَّ بألمٍ يباغته في بطنِه، وفكّر؛ كم هي الكويت صغيرة.

لدينا كل ما نحتاجه. قال نايف؛ العنوان، رقم هاتِفِهِ.. الذي أشكُّ أنه سيكون ذا نفع، لكن الأهم هو الرقم الذي كتبه في حالة الطوارئ. كان رقمَ شقيقهِ.. اسمه خالِد. سنذهب لزيارتهم الآن.

– بصفتنا؟

– مالنا صفة.

بدا على وجهِ جاسم أنه لم يفهم. أضاف نايف:

– قلت لهم الصدق..

ثم نظر في عينِ صاحبه وأردف:

– محنا مضطّرين نكذب.. وأصلًا ماقدر أكذب على هالنّاس.

– شنو قلت لهم بالضبط؟

– قلت لهم إن إحنا أثنين طلّابة مشاكل، ومشتبهين في الموضوع، ونبي نعرف أكثر، ويمكن نقدر نسوي شي.

أشاح جاسم بوجهه:

– نسوي شي؟ ليش اللي راح ممكن يرجع؟

– قلت لهم صاحبي كاتِب..

– والمطلوب؟

– الكاتب يكتب.

سادَ صمت. أحسَّ جاسم أنَّ ما مِن شيءٍ آخر يمكنُ قوله؛ الكاتب يكتب. لماذا ستقبل أسرة راكان بلقائه إذا لم يكن قادرًا على فعل أي شيء؟ مرّت سنواتٍ طويلة على آخر مرّة أشار فيها أحدهم إليه بصفته كاتبًا. وما فعله نايف قبل قليل، كان بسيطًا إلى درجة مخيفة، كان يشبه تسمية الأشياء بأسمائها. الكاتبُ يكتب. لكنه يعرفُ بلاده، ويعرف ناسها. لا أحد يريد أن يكون بطلًا في الحكاية، الكل يريد أن يكون الراوي. هل ستقبل أسرة راكان أن ينشر قصة ولدهم، بكل ما يشوبها من مخدرات وانتحار وحبيبة خائنة، على الملأ؟

– نايف، الناس بهالبلد تبي السّتر.

– الناس تبي تعرف.

نظر إليه مليًا في عينيه، وأردف:

– من حقهم.

ألقى برأسه إلى الوراء. زفر. لم يسبق للكتابة أن كانت بهذا الوضوح داخل رأسه؛ أن تكتب لتعرف، ليعرف الجميع، لأننا ما عُدنا نملك ترف تصديق أوهامنا. أن تشير إلى الحقيقةِ نيئة، باردة الوجه ومروّعة، لكنها في كل الأحوال أفضل من مزالق الوهم اللامتناهية. أن تسمّي الشيء باسمِه.. تقريبًا. أليس كذلك يا أبي؟ هل انتحر راكان بجرعة زائدة أم قتِل بها؟ هل ماتت دانة بحادث أم بجريمة مدبّرة؟ هل كان حبًا أم صداقة؟

– وإذا ما قدرت أكتب؟

– لازم تِقدر.

– وإذا ما قِدرت؟

– خلاص جاسم!

"راح تِقدر". قال، ثم صمت لبقية الدّرب. لقد ضاق نايف بهشاشته، كانت ستة أشهر جاسم، مجرد ستة أشهر! ما زالت كلمات صاحبه تتردد داخل رأسه. لماذا كان عليك أن تتكسر إلى هذا الحد؟ نايف أيضًا سُجن، ضُرب بالهروات وسُحِل في الشوارع، صدرت ضده مُنوعات السّفر، ولكنه لم..

توقّفت السيارة أخيرًا. كانا أمام بيتٍ صغير، مبني بالطوبِ الأصفر، له سورٌ معدني أسود تتخلل

قضبانه أغصان الدفلى والجهنّمية. ضغط نايف زرَّ جرس المدخل، خلال دقائق فُتحَ الباب، ظهر رجلٌ يرتدي دشداشة رمادية وشماغًا أبيض، يدسُّ يدهُ في جيب الدشداشة يتّقي البرد. اقتربَ من البوابة وسأل؛ إنت نايف؟ ورأى جاسم أن له عينا أخيه، حاجبيه الأزجّين ونظراته الناعسة. أنا نايف الرمثي وهذا صاحبي جاسِم العظيمي. ابتسم الرجل وهو ينظر إليه؛ الكاتب. أضاف. ثم فتح البوابة ودعاهما للدخول؛ حياكم الله. سعُل مرارًا في الطريق، منبّهًا نساء بيته، وهو يردّد؛ درب! درب! ثمَّ فتح باب البيت وقادهما إلى غرفةِ الضيوف. بدا المكان مألوفًا لجاسم؛ رائحة القهوة العربية، التمر، الثريات على الأسقف وأيضًا؛ آياتٌ قرآنية مكتوبة بالخط الكوفي، معلّقة على الجدران. الشيء الوحيد الذي لن يجد له جاسم رديفًا في بيتِه هو الصور في البرواز. منضدة عامرة بالصّور، ويبدو أن صور راكان تصدّرت المكان. انتبه جاسم إلى الشيخ الجالِس على المقعد في الزاوية، كأنّه كان في انتظاره. اقتربَ منه صاحبه وقبّل رأسه، وفعل جاسم مثله. كان وجهه ممتلئًا بالكلمات. هكذا فكّر جاسم وهو يتفحّص ملامح العجوز. غضونه وحزن تجاعيده والغصّة القديمة بين الحاجبين. شلونك عمّي، شخبارك؟ بشّرنا عنّك؟ السّاعة المباركة اللي شفناك فيها.. كان نايف بارعًا في قول الأشياء الصحيحة، وكان قادرًا أيضًا على أن يعني كل كلمةٍ يقولها. جلس جاسم إلى جانبِ صاحبه. حيّاك الله يبه، ساعتكم أبرَك. انهمك خالد في تقديم القهوة والتمر للضيفين. في تلك الدقيقة اختلس جاسم نظرة أخرى إلى صور راكان المرصوصةِ على المنضدة المقابِلة. في إحدى الصور كان يرتدي روب التخرّج، وقد أقيم الحفل في الهواء الطلق بين الأشجار تحت سماءٍ شديدة الزرقة. أمريكا؟ تساءلَ جاسم. كان واضحًا أنه مولعٌ بالرياضة، يشارك في السباقات ويفوز. يركب فرسًا شقراء. في إحدى الصور، كان واقفًا على يديهِ، على الرمل والبحر من ورائِه. سمعَ الشيخ يهمس؛ الله يرحمك. كان يحدّقُ في الصور بدورِه. ولم يدر جاسم ما الذي يمكنُ قوله أمام حزنٍ مثل هذا. سمع صاحبه يسبقه:

– الله يرحمه عمّي.

زفرَ العجوز عميقًا.

– راح بسرعة..

ولا يدري جاسم لماذا تذكّر والده في تلك اللحظة، وهو يسأله قبل دقيقة من مغادرته بيت الهدام؛ راح ترجع؟

– منو فيكم الكاتب؟

سأل العجوز. احمرَّ وجه جاسم وهو يتلعثم: أنا عمّي. أردف الشيخ:

– راكان الله يرحمه.. كان يكتب، ما غير يخطّ بهالدّفتر، أقوله يوم إنك تكتب، ليش ما تنشر في

الجرايد؟ يقول مو مهم يبه.. الله يرحمه.

وتذكّر جاسم في تلك اللحظة، كل الأشياء التي تساقطت فوق رأسه بعد كلّ مقالة. كانت تلك طريقة عبد المحسن العظيمي الخاصة في الاحتفال بولده الكاتب.

– عمّي..

قاطعه نايف.

– عندكم تقرير طبّي عن وفاته؟

أومأ خالد.

– عندي.

– والتقرير يقول..

– جرعة زايدة.

– وإنت شتقول عمّي؟

– أقول محشوم.. محشوم وِلدي!

ضرب مقبض الكرسي بيديه. كان غاضبًا؛ أنا أعرف ولدي زين، راكان مصلّي مسمّي، راكان ما يخربِط!

اغرورقت عينا العجوز. نظر جاسم إلى خالد، كانت عيناه مبتلّتان بدورِه.

– عمّي سمعت عن وحدة اسمها دانة داود؟

هزّ الشيخ رأسه نافيًا.

– توفّت قبل راكان بشهرين، كانت تشتغل معاه.

رفع الرجل رأسه ينظر إلى نايف.

– والله يابوك ما أثبّت الأسماء. راكان ما كان يسولف عن الشّغل.

نهض جاسم من مكانِه وجلس قريبًا من خالد. قرّر أخيرًا أن يخرج من صمتِه؛ خالد.. ليس لدينا

أية أدلة على أن الأمر حدث فعلًا بتدبير. ولا بأنَّ موت أحدهما مرتبط بموتِ الآخر. غصة مؤلمة كانت تنبتُ في حلقه. ليس لدينا أي إثبات، وكل ما لدينا هو بعض الافتراضات، وبعض الحدس، وأنت تعرفُ بأن ذلك لا يكفي. لكن، منطقيًا.. إذا كان لموت راكان علاقة بموت دانة.. يقاطعه نايف؛ إذا كان لموت راكان علاقة بموت دانة، فهذا يعني أن الأمر قد حدث بسبب فضيحة في الهيئة، وأنا.. أحاول منذ الأمس أن أحصل على وثائق ومستندات عمل عليها الاثنان، ولكن بعد مرور سنتين، يبدو الأمر مستحيلًا. أومأ جاسم؛ أحتاج أن أعرف على ماذا كانا يعملان، أية معلومة، من أي نوع، يمكن أن تكون مفيدة.

نظر خالد إلى وجه جاسم وقد لمعت عيناهُ ببصيصٍ غريب.

– هو دايمًا يشيل معاه أوراق وملفات..

– ما قط تصفحت أوراقه؟

– أغلبها عقود أجنبية.. أنا ماقرا إنجليزي.

– أنا أقرا.

انتصب خالد واقفًا، ينظر إلى والده:

– يبه أنا رايح أدوّر على أوراق راكان..

يجيب الشيخ:

– خذ الشباب معاك.

3

لم يكن العثور على الأوراق صعبًا. في خزانة عتيقة بسرداب البيت كانت الأوراق كلها في انتظاره، مع دفتر يومياته، إلى جانب ألبومات صوره وشهاداته وعشرات الكتب التي قرأها عن تأسيس المشاريع وإدارة الأعمال والريادة. قال خالد بأن شقيقه كان يتمنّى أن يمتلك ناديًا رياضيًا في يومٍ ما. كانت الأوراق مرتبة ومؤرشفة، تحمل الشعار الرسمي للهيئة، مزودة بالأختام والتواقيع. وتساءل جاسم لماذا يحتفظ راكان بأرشيفِ عمله كاملًا في البيت. لم تكن لدى خالد إجابة حقيقية، ولكن جاسم سوف يحدس بالسبب لاحقًا، بعد أن يقرأ الأوراق.

ودّع الاثنان خالد ووالده. طبع جاسم قبلة على رأس الشيخ وقال بأنه سوف يمضي الساعات القادمة في قراءة كل سطرٍ في هذه الأوراق. وقال بأنه سوف يتّصل بهما فيما لو وصل إلى نتيجة، وسأله العجوز:

– بتكتب؟

ولم يدرِ بماذا يرد.

تدخّل نايف:

– إي عمّي، أكيد بيكتب.

هزَّ الشيخ رأسه، وقال بأنَّ على الجميع أن يعرف بأن ولده بريء. ثم نظر إلى جاسم كأنه تذكّر أمرًا:

– شيصير لك عبد المحسن لِعظيمي؟

احمرّ وجهه.

– أبوي.

– والنِّعِم!

– والنِّعم فيك عمّي.

– الله يرحمه. كان شجاع. والله خسارته خسارة، عظم الله أجرك يا يُبه.

– أجرنا وأجرك.

وانسحب سريعًا، قبل أن يتذكّر الشيخ حكاية الولد الذي كتبَ مقالة كسرت قلب أبيه، وقلمه. قبل أن يفطن بأن مصير أوراق ولده قد انتهى إلى صعلوكٍ مثله، خريج سجون، ومغضوب عليه من البلاد بأسرها.

– فمان الله عمّي..

– فمان الكريم.

غادر الاثنان سريعًا. ركبا السيارة وتوجّها فورًا إلى شقة نايف في السالمية. أزاحا الطاولة، وفرشا الأوراق على الأرض. أحضر نايف دفتره وأقلامه وشرع الاثنان في قراءة الأوراق وكتابة الملخّصات. مع أول ورقة قرأها جاسم، تذكّر صباح ذلك الجمعة، عندما تسمّرت دانة أمام حصّالة بلّاع البيزة، وأخبرتهُ عن مشكلة في العمل. تربّع جاسم على الأرض، وشمّر عن ساعديه. كل ورقة يقرأها كان يترجم مضمونها لنايف الذي يدوّن، على ظهرها، ملخصًا لما تحويه. كان هناك عدد من العقودِ المبرمة مع شركاتٍ من الصّين والهند وبريطانيا وأمريكا، مراسلات مع مديرين ومسؤولين، وهناك أيضًا أجندة كان راكان يدوّنُ فيها رؤوس أقلام، لما افترضَ جاسم أنها يوميّاته.

في تلك الساعات بدا كلّ شيءٍ منطقيًا، ولم تعد هنا أحجية تحتاج إلى حل. كانت الحقائق واضحة، سهلة القراءة، مثل الأرقام. وعلى غير العادة، لم تكن الحقيقة حمّالة أوجه، أو نسبية، أو متعددة. كانت بسيطة على نحوٍ لا يُغتفر. لقد فهمتُ كل شيء. قال وهو يرمي بالأوراق على الأرض. ولم يكن يفهمُ لماذا كان يبتسمُ بهذا الشكل الغريب، محدقًا في الجدار أمامهُ، في قصاصة خبر عن مواطنة تُدهس ليلًا في قلب المدينة. آه يا دانة! ورغم أنه تخيّل نفسه مرارًا، في موقفٍ كهذا، يخرُّ على ركبتيهِ وينتحب، إلا أنه في الحقيقة أخذ يضحك. وكان الضحك يؤلمه، ضحك فاردًا يديه أمام صاحبه، شاخصًا فيه بعينين مذعورتين؛ قتلوها! قتلوها عيال الكلب.. ورغم أنه رأى المشنقة بأم عينه، وانحدر عميقًا إلى زنازين الصاجة، رغم أنه ضُربُ بالهراوات في المظاهرات، وتنشّق الغاز المسيل للدّموع، كان ما يزال متفاجئًا لما يمكن للوطنِ أن يفعله بالإنسان. في تلك اللحظة تمنّى لو أنه لم يعرف. لو أنَّ الأمر كان متواليةً من المصادفات المشؤومة. ماذا لو كان هناك معنى، وماذا لو كان المعنى بهذا القبح؟ الحقيقة أنه ثمة أمور لا يحقُّ لك أن تعرف عنها، ويبدو أن الموت هو ثمن المعرفة. أتعرف ما يعنيه ذلك؟ هذا يجعلنا على قائمة المطلوبين. لقد أكلنا من الثمرة المحرمة. ضحك وهو يهزُّ رأسه غير مصدّق، نايف ينظر إليه.

يعرفُ جاسم هذه النظرة جيدًا؛ نظرة الشّفقة. لا تفقد عقلك الآن. قال نايف. اشرح لي ماذا وجدت.

نهض من مقعدهِ على الأرض وجلس على طرفِ الأريكة. كان يبتسم وهو يحدّق في الجدار، ويروي الأمر لصاحبهِ مثل حكاية.. كان يا ما كان، كانت هناك شركة محلية تقدمت للهيئة باقتراح لإدارة صندوق مالي. قالت الشركة بأنها تنوي استثمار عائدات الصندوق في مشاريع تعليمية. متى كان ذلك؟ عام 1991، بعد سنةٍ من التحرير. في تلك الفترة كانت البلاد قد خرجت للتو من احتلالٍ استنزف الكثير من مواردها، ويبدو أنها واحدة من المبادرات التي اتخذت لضخّ رؤوس الأموال وإنعاش الاقتصاد. قاطعه نايف؛ لا تتفلسف.. كمّل. تابع؛ الهيئة وافقت. ولكنَّ الصندوق لم يُنشأ على الإطلاق، لأنها شركة ذات مسؤولية محدودة، وهذا يعني أنه لا يحقُّ لها إدارة أموال الغير. رغم ذلك، فإن نسبة من أموال العقود المبرمة مع الشركات الخارجية كانت تذهبُ مباشرةً إلى جيب الشركة. بقي المبلغ هناك لسنوات طويلة، ولم تكن هناك أية متابعة من قبل الهيئة طوال تلك الفترة. أتدري كم بلغت قيمة المبالغ المحوّلة من تلك العقود؟ مئتي مليون دولار تقريبًا. تريدُ معرفة المضحك في الأمر؟ هذه المبالغ بقيت في حيازة الشركة لسنوات، ولما بدأت دانة في الاستفسار عما حل بتلك الأموال، أبرمت الشركة عقد تعاون مع عددٍ من المدارس والجامعات الخاصة لتوفير بعض المقاعد بتلك الأموال. وبدأت إدارة الشركة في الرد على استفسارات دانة بأنها تقوم بوساطة مالية بين الشركات الأجنبية والقطاع التعليمي في الكويت. ولكن هذا لا يغيّر حقيقة ما حدث. أنَّ المال.. المال العام.. كان موجودًا طوال تلك السنوات في حيازة شركة خاصّة بشكلٍ غير قانوني. ليس هناك وثائق عما فعلتهُ الشركة بتلك الأموال، ولكنك لست بحاجة إلى كثير من المخيّلة لتعرف بأنها كانت تستثمر تلك الأموال لصالحها. رأى جاسم وجه صاحبه يحمرُّ. نهض نايف من مكانه وجلس بدوره على الأريكة المقابلة. كان ينظرُ في وجهه صامتًا، كأنه سئمَ من ترديد الكلام نفسه مرة بعد مرة؛ إنها دائمًا الحكاية نفسها، أليس كذلك؟ زفر جاسم؛ وماذا غير ذلك؟ ثم مال بجذعه والتقط ورقة من الأرض، أعطاها لصاحبه؛ هذا عقد تأسيس الشركة، انظر إلى الأسماء. هل ترى؟ راح نايف يضحك؛ إنهم سادة العالم. أحسَّ بمعدته تجيش. يجب أن يعرف الجميع! همس نايف. ولكنَّ جاسم كان قد ذهب أبعد في الحكاية. يبدو أن دانة صعّدت الموقف، وأصدرت تقريرًا يطالب بإلغاء العقد مع الشركة وتحويل القضية إلى النائب العام. هل قالت هديل شيئًا عن إلغاء اللجنة التي تضمنت دانة وراكان؟ يبدو أن هذا ما حدث. ألغيت اللجنة، وشُكِّلت لجنة أخرى، لتقدم توصية مختلفة، ويطوى ملفّ المخالفات إلى الأبد. المشكلة لا تخص الشركة في الواقع، إنها مشكلة الطرف الذي منح الموافقات، وغضَّ طرفه عن كل هذا الهراء.. مسؤولون كبار كما يقولون. عيال الكلب! لماذا قتلوها وهم يستطيعون دفن الجثة بين دفاتر وملفات الهيئة؟ لأنها على الأرجح كانت ستلجأ إلى النيابة، ولأن حياتها أقل أهمية بكثير من كل تلك الملايين. وراكان أيضًا، وأنا.. وأنت. كلنا. وكل تلك الإشاعات، والحساب على تويتر، و.. هزَّ نايف رأسه، كأنه لا يصدّق أن الأمر كاد ينطلي عليه.

نظر جاسم إلى الجدار العامر بالصور، إلى صورتهِ العالقة بين أخبار المسيرات. كان يتحدّث بهدوءٍ غير متوقع، مثل معلّق رياضي على مباراة مملة انتهت منذ سنوات؛ أرادوا التخلّص من الاثنين. راقبوا تحرّكاتهما. لقاءنا في الكنيسة كان مادّةً مثالية لافتعال فضيحة؛ عناق، وفي كنيسة.. سوف تحتاج إلى فضيحة لمداراة الفضيحة. فيلم رديء آخر ولن يكترث أحدٌ لكل ذلك الهدر.

انحنى على الأوراق يلملمها. جمعها تحت إبطه وانتصب واقفًا. صاحبه يسأله؛ وين رايح؟ يرتدي نعليه، فيما عيناه تهيمانِ في جدار الصور. رايح البيت، عندي شغل. لم يسبق له أن رأى الأشياء بهذا الوضوح؛ كانت كل الأشياء مسمّاة، شفافة ونقيّة. كان يعرفُ من هو، وما الذي يُفترض به أن يفعله، لا يذكر آخر مرّة شعرَ فيها بشيءٍ مشابه؛ أن يكون في المكان الصحيح، ليفعل ما قُدِّر له، طوال حياته، أن يفعله..

أن يكتب.

4

عندما نبش جاسم في أوراق راكان، أحسَّ نفسه يتضاءل وهو يرى حجم العمل الذي قام به، هو ودانة، لأجل تصويب ما هو خاطئ، وأحسَّ بعبثية الأمر برمّته، وعبثية الكتابة فوق أي شيء، ولكنه مع ذلك شعر بأنه ليس مخيّرًا في الأمر، وبشكلٍ أو بآخر، تناغمت مجموعة من المصادفات والوقائع بشكلٍ تمخّض عن معنى، وصار عليهِ، بصفته كاتبًا، أن يكتب.

لم ينتبه جاسم إلى الوقت. لم يفطن إلى مرور ساعةٍ ونصف لم يكن فيها قادرًا على قراءة حرفٍ واحد. كان يضع دفتر يوميات راكان على حضنه ويحدّق في الجدار، ويتذكّر صباح ذلك اليوم، عندما وجد البلاد وقد انقلبت رأسًا على عقِب بسبب مقالةٍ كتبها أحد شباب الحراك، للّرد على والده. يتذكّر كيف كان قلبه يضربُ بجنونٍ وهو يفطنُ لما فعله. عندما كتب تلك الكلمات.. كان ثملًا، كتب الرد بعد أن نشر والده مقالته الأشهر عن "أطفال السياسة وحفاظات بامبرز" التي جعلت دمه يغلي. التقط هاتفه وبحث عن رابطٍ للمقالة على الإنترنت. كانت أكثر المواقع الإخبارية والمقالية قد أعادت نشر المقال، وكما هو الحال مع كل كتاباتِ أبيه، كانت تفرخ مقالات أخرى؛ مقالات تكتب بناءً على مقالته، من "قبيلة من الإمّعات" على حدّ تعبيره. كان والده يحتقر مؤيّديه أكثر من معارضيه، لسببٍ لم يفهمه جاسم قط.

أخذ قلبه يضربُ بشدّة، كما في تلك الليلة التي قرأ فيها تلك المقالة لأول مرة، وهو يضغط على الرّابط ليقرأ النّص كاملًا. ومثلما هي العادة، وهو يقرأ كتابات أبيه، كان يسمعُ صوته داخل رأسه؛ مبحوحًا، مشروخًا، يتسرّب منه صفيرُ أنفاسه، ويشتمُّ فيه رائحة سجائره.

شرع يقرأ من منتصفِ المقالة تحديدًا:

«أكثر من عشرين عامًا من الكتابة وأنا أتحرّش بالسلطة، ألعن الديموقراطية العرجاء، وتحالفها مع القوى الرجعية، والفساد الذي ينخر في عظامها، ومع كل أزمة تمرُّ بها البلاد كنت أقول بأنَّ الأمور لا يمكن أن تصير أسوأ.

كنتُ أتندّر دائمًا على ما يسمّونه آخر الزمان، وقد لا يكون للزمان آخر، ولكن هذا بالتأكيد زمنٌ رديء لكي ينتهي فيه أمرنا إلى هؤلاء الرعاع والطارئين والأقزام والدخلاء وأتباعهم الحمقى من أطفال السياسة، أفضل واحدٍ منهم يرتدي حفاظة بامبرز.

نكبنا بعد سنواتٍ من النضال والمطالبات والعمل السياسي بجيشٍ من "المرادم"، تتصدّره مجموعة من الخفافيش، وأصبحنا مضطرين للاختيار بين المتردية والنطيحة. هذا زمن وسخ فعلًا، لكي يضطر فيه رجلٌ في عمري لأن يكره الشيء الذي طالب به طوال حياته، الديموقراطية، التي أكفرُ بها اليوم، لأنها ستنكبنا ب. "عوير وِزْوير». ديموقراطية ستخرج من رحمها أسوأ الديكتاتوريات قاطبة.

الحكومة طوّلت بالها زيادة عن اللزوم. وهالأشكال مالها إلا الهراوات».

وضع الهاتف من يدهِ، وراح يحدّقُ في الجدارِ أمامه. أحسَّ ببرودةٍ في عينيه لكنه لم يكن متأكدًا من أنه كان يبكي. يتذكّر تلك الليلة، يتذكّر كيف كان يصرخُ على الهاتف وهو يردّد بأن والده قد "خان نفسه". إيّاكِ، إيّاك أن تسمحي لي بأن أتحوّل إلى أبي. لكنه فعل. هذه المرة كان متأكدًا من أنه يبكي، لأن دمعة سقطت على خده. لم يتخيّل أن قراءة تلك الكلمات سوف تجرحه بنفس الدرجة بعد مرور أربع سنوات. كان يرى الأمر بوضوح. كان الوحيد الذي يرى وضوح الأمر، أصلًا. فلا أحد يعرف عبد المحسن العظيمي كما يعرفه، وإذا كانت المقالة تبدو للوهلةِ الأولى، مثل بكائية عجوزٍ يتحسّر على زوال أيّامه، فهي في حقيقة الأمر كتبت لأمرٍ آخر تمامًا، هو إذلاله.

كل ضربة تلقاها من الأمن، كل مرة زجَّ فيها بغياهب الصاجة، كانت بمباركةٍ من أبيه. وجد نفسه يتوقّف مطولًا عند تلك الكلمة؛ الرّعاع والطارئين والأقزام والدّخلاء. أو كما يسمّيهم على طاولة الغداء؛ اللّفو. كان يظنُّ أن نايف واحدًا منهم، ويتصرّف كما لو كان سيد الأرض، وبأي حال، كان سيرفضُ زواجه من دانة. لأن ابن عبد المحسن العظيمي لا يمكن، بأي شكل، أن يتزوج من فتاة اسمها دانة داود. أحسَّ جاسم بأنه ينفذُ عميقًا، عميقًا، إلى رأس أبيه ويراه على حقيقته؛ في كل مرة طالب فيها بالديموقراطية، كان يفعل ذلك نكايةً في الآخر. كانت أفكاره مثل شيءٍ آخر يحقّق به تفوّقه. وعندما طالب الشارع بما طالب به هو، خرج إلى الشارع وكفر بكل ما آمنَ به في حياته. لحظتها فهم جاسم لماذا يكره والده مؤيديه، أكثر من معارضيه. كان يدافع عن اختلافه. لأنه لا يطيق أن يشترك مع الآخرين في شيء، لا في الأرض ولا الأفكار.

في تلك الليلة لم يهدأ هاتفه. كان الأمر واضحًا جدًا؛ لقد كتب والده كي يدمّره. إياكِ أن تسمحي لي بأن أتحوّل إلى أبي. ولكنّها، على الأرجح، اللحظة ذاتها التي تحوّلَ فيها إلى أبيه، عندما كتب بدوره لكي يدمّره. أقفل الهاتف وذهب إلى شقة نايف، شرب كثيرًا، سكر وكتب ونشر المقالة مباشرة على مدوّنته. "مرافعة أطفال السياسة" انتشرت كالطاعون، تداولتها المواقع المقالية والإخبارية وترددت طوال أيام على صفحات تويتر. عندما استيقظ في صباح اليوم التالي لم يتذكر كلمة مما كتب. وعندما قرأ المقالة، أحسَّ بألمٍ غير مسبوق، يشقُّ قلبه نصفين. كانت أول فكرة تبادرت إلى ذهنه هي حذف المقالة،

على أمل أن والده لم يقرأها بعد. لكنّ نايف أخبره بأن الأوان قد فات، أن معظم المواقع قد نقلت النص، وأنها ستظل تسبح في فضاء اللانهاية حتى لو ألغاها من مدوّنته. كان يرتجف، وهو يشعل سيجارته الأولى ذلك الصباح، ويتخيّل ما سيحلُّ بأبيه إذا قرأها.

أمضى اليوم بطولهِ في شقة نايف، يحدّق في هاتفه، يتابع انتشار المقالة وردود فعل الناس. ينتظر ذلك الاتصال من أبيه الذي سيكيل عليه صنوف الشتائم، لكن والده لم يتّصل. ولا أمه، ولا براك. وحدها دانة كانت تتصل كل خمس دقائق، ثم قررت أن تراه، وجاءت إلى شقة نايف للمرة الأولى. تربّعت على المقعد أمامه تنظر عميقًا في عينيه. كل شيءٍ كتبه في المقالة سبق وقاله لها. لم يكتب كلمة لا تشبهه. وربما كانت هذه المشكلة. لقد كان واضحًا إلى حدٍ لا يُحتمل، وعرَّى كل الأشياء من أسمائها. لقد كتبتُ الحقيقة، أليس كذلك يا أبي؟ لقد كتبتُ الحقيقة الأخرى. شيءٌ لن يكتبه عبد المحسن العظيمي أبدًا.

نظرت دانة في عينيه، تسأله:

– ندمت؟

– مادري.

– في كلمة كتبتها وما كنت تقصدها؟

– لأ.

– طيب شالمشكلة؟

– جَرَحْتَه دانة.. كِسرت قلبه!

وكان يكره أن تراه هشًّا. منقسمًا بين ما يؤمنُ به، وبين ما يحبّه. عندما قاربت الساعة العاشرة ليلًا، غادرت لأنها لا تستطيع التأخر أكثر. طبطبت على كتفيه تقول؛ "إذا بغيت شي اتصل". انتظر ساعتين أخريين ثم قرر أن يعود إلى البيت، لأن انتظار العقوبة أقسى من العقوبة ذاتها.

في طريقه إلى البيت، تذكّر جاسم كل الأشياء التي ألقاها عليهِ والدهُ. وخطر له أن والده، هذه المرة، سوف يتفوّق على نفسه حتمًا. سوف يلقي عليهِ كرسيًا يفجُّ بهِ رأسه. "راح تعدّي". كرّر على نفسهِ، وهو يوقف السيارة في الخارج، ليتعالى في فضاء الفريج نباح صلبوخ. هش! هش! يريد للكلب أن يفهم أنه ليس غريبًا. مال بجذعه إلى أسفل الباب، دسَّ إصبعه ورفع القفل. صرّت مفاصل الباب وهو يدخلُ إلى الحوش. كان الماء في السطل قد تجاوز الربع وعرف أن والده لم يغادر البيت مذ نشر مقالته.

صعد الدرجات، فتح الباب، أغمض عينيه يترقّب نعلًا ستخبط رأسه، لكن شيئًا من هذا لم يحدث. هل يمكن أن يكون والده قد نام؟ مدَّ يده باتجاه مفتاح الضوء، أحسَّ بوجيب قلبه يدوّي في رأسه. خطا إلى الداخل، فوجئ بأبيه جالسًا في مكانِه المعتاد، في الظلام، ينظر إليه بتلكما العينين الفارغتين، المشرّعتين على اللاشيء.

رفع ذراعيهِ يحمي رأسه من نعلٍ، أو هاتف، أو كرسي. لكن والده لم يحرّك ساكنًا.

– يُبه؟!

لم ينبس بحرف، ظل يحدّق في وجهه وهو يعبرُ أمامه، منكّسًا رأسه. كان يحدّق وحسب، كأنه ينظر خلاله، كأنه لا شيء.

– يبه؟

لم يرد. سار أمامه رافعًا ذراعيهِ قريبًا من رأسه، يحاول أن يتلافى ضربات محتملة، ضربات لم تأتِ قط. قطع الممر إلى الدرج دون أن يصاب بشيء. منذ ذلك اليوم بدأ الصمت، وصار الصدع أكبر من الجدار، ولم يعد العالم كما كان عليه. لقد توقّف عبد المحسن العظيمي عن إلقاء الأشياء على ولده، وعرف جاسم، لأول مرة، معنى الخوف.

5

مرافعة أطفال السياسة

آباءنا الأعزاء..

أنتم على حق. نحن فعلًا حمقى.

المشكلة أننا صدّقنا كل الترّهات التي تفوّهتم بها. أننا جزء من الحلم. أننا حملة الشُّعلة.. مرادم، أطفال سياسة فعلًا. كان علينا أن نكفر بكم لكي نستحق ثورتنا. لأنَّ الذي يصفق للقنابل والهراوات لا يمكن، ولا بأي شكل، إلا أن يكون ديكتاتورًا.

كلماتكم القديمة التي طالبت بالحرية والديموقراطية تدينكم، لأنكم تستخدمون الكلمات مثل اكسسوار.. ولكنَّ الحقيقة أنكم لا تريدون عالمًا عادلًا وحرًا. وأنَّ خوفكم على مستقبل البلاد هو في حقيقته عنصرية يشمُّ المرءِ رائحتها من أميال ضوئية، ولكنَّ الرائحة غدت مألوفة جدًا حتى ما عدنا نعرف أنفسنا عندما نكون قبيحين.

بوسعكم أن تتحدثوا طوال الوقت عن خوفكم من الشر الذي سنأتي به، ولكن الحقيقة أننا نراكم كما أنتم. ولا شيء يجرحنا إلا دماؤكم الملعونة في عروقنا. إن ثورةِ حقيقية لا يمكن أن تبدأ من الشارع، والأصنام التي ينبغي لها أن تهدم قبل غيرها هي تلك المنصوبة في البيوت، والديكتاتورية الأكثر شراسة هي أبوّتكم.

كنا نتمنى ألا نفقد القدرة على تصديق أوهامنا بأنكم لستم ما أنتم عليه. ألا نرى تناقضاتكم وعنصريتكم بهذا الوضوح وألا نتمنى، في لحظة، لو أننا نبتنا من الأرض كالفطر والعفن على أن نحمل أسماءكم فوق كواهلنا. ولكن الحقيقة التي لا يقولها أحد هي أن عليكم أن تجاهدوا لتصيروا مثلنا، بدلا من أن تصيّروننا مثلكم. نحن لا ننتمي إليكم، بقدر ما ننتمي للغد. والغد هو المكان الذي لن تعرفوه أبدًا.

....

....

....

شكرًا على الدّرس..

مِردم.

مرّت أربع سنواتٍ على كتابة تلك المقالة. كانت آخر شيءٍ كتبه جاسم، وطوال السنوات الماضية كان يحاولُ أن يفهم، أين أخطأ؟ لقد كتبَ الحقيقة. وعرف وقتها أن الحقيقة شيءٌ لا يُحتمل، لكنّه، على أية حال، كتبَ لكي يزعج، كما علّمه والده. ألقى بالهاتفِ من يده بعد أن قرأ المقالة للمرة الثانية، استلقى على ظهره فاردًا يديهِ فوق أوراق راكان ودفاتره. هاتفه يرن.

نايف على الخط:

– كتبت؟

– لأ..

– شتسوي طول هالوقت؟

– أفكّر..

أغمض عينيه ورأى ابتسامة صاحبه على الجانب الآخر. حدثه نايف عن تفاصيل؛ ستنشر هذه المرة في جريدة، وليس في مدونتك. اتصلت بالصحيفة وتحدثت مطولًا مع رئيس التحرير. يريدون نشر المادّة. سيفردون لها صفحة كاملة. أنهى المكالمة وهو يكرر عليه: "شِد حيلك". أغمض عينيه. لماذا بدت كلماته في المقالة وكأنها لشخصٍ آخر؟ كلمات حادة، قاطعة، لا تشبهه. تبدو كل الأشياء ملتبسة الآن، وكلها بلا أسماء. غفا وهو يرى جملًا من مقالته تطفو في فضاءٍ أسود، ورأى نفسه واقفًا على الأسكلة مع أبيه، يمسك كلاهما بصنّارته. التفت إليه أبوه وزفر:

– تعبان!

– ما يمديك يُبه.

– ملّيت، أبي أسبَح.

– وين تسبح يبه، محّد يسبح هني!

طوّح والده يده بلا اكتراث، ثمَّ ناوله صنّارته؛ "خِذ". ولّاه ظهره وسار بعيدًا. راقب ظل والده وهو

يختفي مبتعدًا في البياض، أحسَّ بشيءٍ يجذبه من صنارة أبيه، صاح؛ يبه! يبه في نابِر! يبه صادت! وقبل أن يتمكن من سحب الخيط صارت الصنارة تعاركهُ، والخيط يشدّه إلى البحر، وتساءل أيهما اصطاد الآخر؛ السمكة أم هو؟ وفي لحظةٍ هوى من الأسكلة إلى البحر، واستيقظ ليجد نفسه وقد سقط عن سريره.

نهض عن الأرض يلعن. التقطَ قلمَه ودفترهِ وشرع يكتب فورًا. كتبَ كل شيء. كتب الحكاية. لقد صار قادرًا على تخيّل ما حدث. كان يا ما كان. كانت هناك بنت، وكان اسمها دانة داود. أحسَّ نفسه، بعد سنتين من الحادثة، شاهدًا وحيدًا عليها. لا بدَّ وأن هذا ما حدث. في أحد الأيام، بعد أن تمّ حلّ اللجنة، أسرّت دانة لراكان أنها ستبلغ النيابة بشأن المخالفة. طلب منها راكان أن تتريّث؛ لا نملك أية أدلة، الأوراق كلها في مكتب "بو عبد الله". في الصفحات التالية من الأجندة سوف يرد اسم بو عبد الله كثيرًا، مدير الإدارة، العضو الثالث في اللجنة. بعد عدة صفحات سيكتب راكان؛ دانة ستطلب الأوراق من بوعبد الله. هذه بالكاد رؤوس أقلام، لكن في وسع جاسم أن يتخيّل البقية. يكاد يراها تجادل راكان؛ بو عبد الله أحد أعضاء اللجنة الذين شاركوا في كتابة التقرير، لا يمكن أن يمانع ذهابها إلى النيابة. بعد صفحاتٍ قليلة سيرد ذكرها مرّة ثانية. جاسم يتخيّل المشهد؛ دانة تطرق باب مكتب المدير. سوف أتوجّه إلى النائب العام، لا يمكن أن تُدفن قضية مثل هذه في الأرشيف. المدير – يتخيّله جاسم جثل الجثة، له لغد ضخم ولحية خفيفة، رغم أنه يعرف أن هذه التفاصيل من صنعه – يخبرها أنَّها خطوة متهورة، الزّج بأسماء هؤلاء الناس في قضية من دون أدلة قطعية. الإدارة رأت أن ما توصّلت إليه اللجنة لا يكفي لتوجيه اتّهام. واللجنة الثانية.. اللجنة الثانية؟ يتخيّل دانة تضربُ بيدِها على سطح مكتبه. ثمَّ يفكّر بأنها حركة مسرحية جدًا. هي على الأرجح ازدردت ريقها، وقالت بأنَّ في إمكان النيابة أن تحفظ التحقيق إذا رأت ذلك، ولكن حتى يحدث هذا الأمر يجب أن يصل الملف إلى النيابة أولًا. أو.. ربما كان هذا هو ما حدث؛ دانة تخبره أنها ستذهب إلى النيابة سواء اتفق معها أم لا، وأن من الأفضل له أن يعطيها نسخة من تقرير اللجنة على أن يبدو في نظر النيابة متواطئًا. ثمَّ ستغادر وتخبره بأنها ستعود صباح الغد لمعرفة قراره النهائي. في اليوم التالي يدوّن راكان في يوميّاته أن دانة حصلت على التقرير، أنها صوّرت منه نسختين، واحدة لها والأخرى له، ثمَّ أعادته إلى المدير. يتخيّل جاسم ما حدث لأن شيئًا لم يُذكر في اليوميات. بو عبد الله يجري بعض الاتصالات الضرورية، شخصٌ ما، مهمٌ جدًا، يعرفُ أن دانة في طريقها لتقديم شكوى في النيابة. كلّ شيءٍ يتمُّ تسويته؛ المدير يستبقي دانة حتى ساعة متأخرة ليلًا لإجراء تقرير المتابعة. عندما تخرجُ من الإدارة، بعد التاسعة، ستدهسها سيارة. وكان كل ما كتبه راكان في اليوم التالي لحادث الدهس هو "اليوم ماتت دانة". في الصفحات التالية، بين السطور المكتوبة بإنجليزية أنيقة كانت هناك كلمة عربية تخترقُ بقية الكلمات، لم يجد لها راكان رديفًا بالإنجليزية. كان يردّد "بلطجة، بلطجة". وكان جاسم يهز رأسه موافقًا وهو يردّد الكلمة مرّة بعد أخرى. لقد فهم الرجل الأمرَ كما هو. سيذكرُ راكان في صفحاتٍ لاحقة أنّه بحث عن نسخة دانة من التقرير في مكتبها ولم يجدها. ربما بعد

هذه الحادثة مباشرة قرّر راكان أن يحتفظ بنسخة من أرشيف عمله في البيت. بعد بضعة أيامٍ من الصمت الكتابي، كتبَ بأن بوعبد الله قد مرَّ بجانب مكتبهِ. ثمَّ أضاف ما اعتبره جاسم تفصيلة سينمائية؛ تبادلنا النظرات. عاد راكان إلى بيتهِ ذلك اليوم، وهو يتأبط نسخة التقرير كما لو كانت الشيء الوحيد الذي يضمن له خلاصه. هذا، على الأقل، ما يتخيّله جاسم. في صباح اليوم التالي بعد أن وصل التقرير إلى بيته، مات بجرعة زائدة أمام النادي الرياضي الذي يرتاده كل صباح. وتساءل جاسم إن كان قد خطط للذهاب إلى النيابة في نهار اليوم ذاته الذي مات فيه. لو أنّهم تأخروا قليلا عن موعد مغادرته للنادي الرياضي، لو أنه وصل إلى البيت وأخذ نسخته من التقرير وتوجّه مباشرة لتقديم شكوى. ربما كانوا سينجحون في اختطافه في منتصف الطريق، أو في التسبب بحادثٍ يودي بحياته، فهذه في النهاية وعلى حد تعبير راكان نفسه؛ بلطجة! ولكن ماذا كانت احتمالية أن يصل إلى النيابة، أن يهزَّ وكر الدبابير، ويحدث فضيحة. أي فضيحة؟ إذا كانت قضية الإيداعات المليونية قد حفظت لعدم وجود دليل على وقوع جريمة، ما الذي بوسعهم توقعه لقضية من هذا النوع؟

يتخيّل جاسم ما حدث على الجانب الآخر؛ بوعبد الله يرى في عيني راكان ما لا يعجبه، يجري اتصالاته، يأتي شخصان بسيارة سوداء معتمة النوافذ ويقفان إلى جانب سيارة راكان. ينتظرانه. يحاول جاسم أن يتصوّر ما حدث؛ قبل لحظاتٍ من ركوبه السيارة (أم تراه كان قد وصل إلى مكانه خلف المقود لحظتها؟) ينقر أحدهم على نافذته، يريه شارةً من نوعٍ ما. ربما يخبره أنه مطلوب للتحقيق. ربما كان مطلوبًا للتحقيق فيما يخص مقتل دانة داود المفاجئ. يركبُ راكان السيارة، في المقعد الخلفي، والساعة لما تتجاوز السادسة والنصف صباحًا. المكان فارغ ولا أحد يسمع صرخته الأخيرة. يستبعد جاسم أن يكونوا قد ضربوه قبل حقنه، الأرجح أنهم خدروه حتى غاب عن الوعي، ثم حقنوه بالسّم حتى فارق. في تلك الساعة المبكرة أمام النادي الرياضي، لم يكن من المستحيل إعادته إلى المقعد الأمامي من سيارته، مع حقنة تحمل بصماته، وكمية هائلة من المخدرات. سوف تصدر الصحف خبران، أحدهما أكثر تشويقًا عن الرجل الذي انتحر بعد أن قتل حبيبته الخائنة، والثاني عن مجرد شخصٍ آخر يضل الطريق ويقتل نفسه بالخطأ. يعرف جاسم بأنَّ الجميع سيرغب في تصديق القصة الأكثر إثارة، قصة عن الحب والخيانة واليأس. إنهم يفوزون دائمًا عن طريق القصص، يفكّر جاسم، وهو يخطُّ سطوره الأخيرة من المقالة التي يكتبها.

ولكن هذه القصة ليست سيئة أيضًا، قصّته، فهي بشكلٍ أو بآخر، ما تزال قصّةَ حُب.

الفصل العا شر

تسكير

1

عندما فرغَ جاسم من كتابةِ المقالة، كانت السّاعة قد جاوزت الثالثة والنّصف فجرًا. كان العرق يرشحُ من جلدهِ، وكان جسده يؤلمه في كل جزءٍ فيه، كما لو أنه أمضى الساعات الماضية يتعارك مع أشباحِ ماضيه. والحقيقة أن هذا هو، بالضبط، ما فعله.

ومع ذلك، عندما قرأ المقالة للمرّة الأخيرة قبل إرسالها بالبريد الإلكتروني إلى الجريدة، أحسَّ، رغم أنه انقطع عن الكتابة لسنوات، أنَّ كل كلمة كانت تقف في مكانِها الصحيح، ورأى المفردات تتضافر بشكلٍ غريبٍ لخلق معنى ما. وهو، رغم شكوكه القديمة بوجود أي معنى، إلا أنَّه، في تلك اللحظة، أحسَّ بنشوةٍ غير مفهومة. كان أشد ما يبهجه، أن يضع كلمة إلى جانب أخرى، ويشعر أن ثمة شيء ما يندلق، من الكلمة إلى التي تليها. متتالية كلمات، تتعاقبُ لنقل ذلك الفيْض؛ السابقون واللاحقون، الآباء والأبناء. وسواءٌ كانت الكتابة تعني أن تسمّي الأشياء بأسمائها، أو أن تعرّي الأشياء من أسمائها، فهو عندما شرعَ في الكتابة فعلًا، لم يتبيّن الفرق. كانت الأشياء تبدو شفافة جدًا، عارية، ولكنها أيضًا مسمّاة ومرتّبة. من قتل دانة داود؟ هكذا عنونَ مقالته، وأحسَّ ببرودةٍ في عينيه، وبجمرةٍ في قلبه. بدت الكتابة في البداية أشبه برصفِ الطوب؛ يضع كلمة، إلى جانب أخرى، ثم يحصل على جدارٍ يتّكئ عليه. في الفقرات الأخيرة صارت الكلمات شفافة، أثيرية، ومتطايرة. كل ما كان لديهِ هو الحكاية، فكّر.. إذا كان الطرف الفائز هو الطرف الذي يأتي بالقصة الأفضل، فهذه قصة ممتازة، وتشبه مكانها، قصة عن «بلاع البيزة» الحقيقي، الذي يرتدي غترة منشاة وتفوح منه رائحة دهن العود، باتصالٍ هاتفي واحد يقرّر أن ينهي حياة أحدهم. نعم؛ يهزُّ رأسه. إنها قصة جيدة، عن بلطجة المال، والقانون الذي تحوّل إلى هراوة أمنية. إنها القصة نفسها في كلّ مكان؛ قصة العالم الذي يتحوّل فيه الحالمون إلى مرادم.

أرسل المقالة إلى الجريدة، ثمَّ ألقى بجسده على السرير، بين عشرات الأوراق. خلال دقيقة جاءت موجة بيضاء وخطفته. نام كما لم ينم من قبل. وهذه المرة، عندما نام، لم يحلم بأي جدار.

عندما استيقظ في اليوم التالي كانت الساعة قد جاوزت الثانية ظهرًا. فزَّ من مكانهِ، استبدل ملابسه على عجلٍ وهرع خارجًا من غرفته. في غرفةِ الجلوس، كانت والدته ترتدي ثوب صلاتها وتقرأ وِردها اليومي من المصحف. قبّل رأسها ويديها. «تعال، تعال»، تمتمت وهي تشدّه من يدِه. «إقعد!» أخرجت هاتفها النقّال وأرته صورة ابن أخيه الوليد، يضمُّ قبضته اليمنى، ويقبض بيسراه على أذنه. كان، لدهشته، يشبهه كثيرًا، وهذا يعني أنه يشبه جدّه. أخذت أمّه تبسملُ وتهلّل مرارًا وهي تتصفّح صور الوليد.

– نسختك والله يا يمّه.

– لا يمّه، يتراوالچ.

– والله ما چذبت!

– يمه شوفي شكله، تقولين بخصَم.

– بخصم عاد!

– هالنتفة أغمسه بچاي وآكله.

ويبدو أن مزاحه قد روّعها، حتى إنها ضربته على ظاهر يدِه وهي تردّد؛ يا ويلك تقول هالكلام قدام أخوك ومرته! ضحك. قبّل رأسها وغادَر. نايف ينتظره خارجًا.

هذه المرة، دون أن يتبادل كلمة مع صاحبه، كان يعرف أين يذهب. في الطريق، أخبرهُ نايف أنَّ المقالة ستنشر في صحيفة الغد، وسأله إن كان قد حجز تذكرة عودته إلى لندن. ابتسم، لأن صاحبه ما عاد يحاولُ استبقاءه في الكويت لحظة أخرى. تمتم بأنَّه ثمة شيءٌ أخير يريد أن يفعله قبل أن يعود. ابتسم نايف يسأله:

– حداق؟

– إي والله.

قال نايف إنه سيرتّب الأمر في "نِقعةٍ" ممتازة، وأنهما يستطيعان الصيد ليلة الغد، وأنه سيحصل على قارب، وكل ما عليهما فعله هو شراء العدّة.

لمح جاسم سور المقبرة؛ سورٌ واطئٌ من الطُّوب، يعقبهُ صفٌ من أشجار الكوناكاربس. سارت السيارة في الشارع الفاصلِ بين مقبرة السُّنّةِ والمقبرة الجعفرية. أمام البوابة قرأ دعاء دخول المقبرة على اللافتة عن يساره؛ أنتم السابقون ونحن اللاحقون. سأله نايف:

– من الأوّل؟

– أبوي.

وركن نايف السيارة في مكانٍ قريبٍ من قبرِ أبيه. ثمَّ تركه وحيدًا، ليقف على قبرِ عبد المحسن العظيمي مطوّقًا برحيله. وحيديْن مثل أبٍ وابن، مجرد أبٍ وابن. كان بودّهِ أن يردّد؛ "يُبه أنا رجعت"، لكنه

لم يقدر، لأن الجثمان يتآكل تحت الثرى، لأن الحاجب المعقود والفم المشدود والعينين الحمراوين قد غابتا عن عالمِهِ إلى الأبد، لأنه يصل متأخرًا، لكنه، على الأقل، وصل أخيرًا، إلى المكان الذي يمكن أن يشعر فيه باليُتم، وكأنه قد استعاد حقّه في أن يكون ابنًا. لم يقرأ الفاتحة ولم يدعُ له بالجنة. ما زال يخافُ أن ينفق صوصٌ بين قدميهِ، والمكان الممتدُّ أمامه كله قبور. طأطأ؛ "أنا ماشي يُبه". وتساءل إن كان سيعود. في تلك اللحظة بدت المقبرة وكأنّها الشيء الحقيقيُّ الوحيد في البلاد. كانت النتوءات الرملية المغطاة بالحصى الأبيض تمتدُّ في جميع الجهات، "مع السّلامة". تساءل إن كان يجدر به أن يعتذر؛ لأنه كسر الزجاجة الخضراء، ودخّن خلف محوّل الكهرباء، وخرج في اعتصامات، وسُجن ولطّخ اسم العائلة، وكتب تلك المقالة. لكنّه فكّر.. ربما كان والده، في حقيقته، وتحت كل غضبه الظاهر، فخورًا بولدِهِ الذي يشبهه، ابتسم في سرِّهِ وغادَر، مبقيًا على هذا الاحتمال الهزيل، وكأنّه كل الأشياء.

عاد يمشي بين القبور عائدًا إلى سيارة صاحبه المركونة في الشارع المقابل. جلس في المقعد الأمامي، صامتًا. لم ينبس أيّهما بحرف. شغل نايف المحرّك وانعطف يمينًا، ثمَّ يسارًا، باحثًا عن مدافن المتوفّين منذ سنتين. في تلك اللحظة أحسَّ جاسم بقلبهِ يهوي؛ ماذا عساهُ يقول لها بعد كل هذا الصمت؟ أوقف نايف السيارة. أشار بيده:

– هذا الصّف، امش هالصُوب، لين تلاقي شاهد.. كل شي مكتوب.

قال وأشاح بوجهه في الاتجاهِ الآخر.

مدَّ يدًا مرتجفةً إلى مقبض الباب. فتحه وترجّل. كان العرق يتفصّد من راحتيه وكانت أطرافه ترتعد. سار بين القبور. كان بعضها قد اعشوشب دون البعض الآخر. مشى حتى اصطدم باسمها على الشاهد الرخامي. تقوّس فمه وفاضت عيناه. أرخى غترته على وجهه وتلثّم، ثم وقف أمام القبر صامتًا، يتملى في الاسم.. دانة! جثا بجانب القبر. اشتاق لمناداتها. "دانة أنا جاسم، لا يكون نسيتيني؟" الصدأ يأكلُ فمه. "طوّلت عليچ؟".

ماذا بوسعه أن يقول؟ وما معنى أن يعتذر عن كل الأشياء التي لم يقلها ولم يفعلها؟ كلمات بعينها استحوذت عليه؛ "ولهت عليچ". أحسَّ بدموعه تبلل لثام غترته. مرّر يده على الحصى. كانت هناك عشبةٌ هزيلة تشقُّ سطحه. هل ثمة معنى في أن يخبرها الآن أنه أحبّها؟ "نايف يسلّم عليچ". لماذا تبدو الكلمات بعيدة ومعطوبة أمام حقيقة رحيلها؟ نشق، جفّف عينيه بطرف غترته، ولأن كل الأشياء التي يمكنُ قولها بدت بلا معنى، قرّر أن يأتيها بالأخبار. "نوال نزّلت ألبوم جديد، ودّك تسمعينه؟ أنا ما سمعته إلى اليوم دانة، ناطر نسمعه مع بعض". أخرج هاتفهُ من جيبهِ، شغّل الأغنية، امتلأ قلبه بالموسيقى وأجهش. لن يفلتوا بما فعلوا دانة! فكرة أنها لم تستمع إلى أغنيات نوال الجديدة لأن أحدًا ما قد قرّر إنهاء حياتها فجأة،

جعلت الدم يغلي في عروقه. غدًا ستنقلبُ الكويت على رأسها من أجلك. والقتلة.. القتلة سوف يُقتادون إلى المشنقة دانة. سوف ترين. سوف يعرف الجميع بالحقيقة ولن يصمت أحدٌ بعد اليوم. سيخرجُ الناس إلى الشوارع ويطالبون بالعدالة، وأنتِ.. ارتاحي دانة. الله يخليك ارتاحي. أنا بخير.. مافيني شي. شوفيني مافيني شي.. مشتاق لك بس. مشتاق لك يالغالية..

2

كان جالسًا على الرّمل مع صاحبه، مستسلمًا للطقس القديم الذي يأخذه في أعماقِهِ. لم يشعر منذ زمن بأن أفكارهُ بهذا الصّفاء، وأن الكون كله قد انسحبَ إلى الخلف كي يبقى وحيدًا مع الخُطّاف في يده، والخيط الذي يرميهِ في البحر، وينظر إلى يده غير مصدّقٍ أنها لم تفقد ذاكرتها رغم السنوات. عبأ صدرهُ بهواء الليل، واندسَّ في فروته الدافئة، قابضًا على خيطه، أرسلَ عينيه في البحر. نايف منهمكٌ بزرع الطّعم في الميدار، وجاسم.. صار يحسُّ باهتزازات الخيطِ بين أصبعيه. تمتم؛ "في نابِر". استلَّ الخيط بسرعةٍ وظهرت سمكةٌ تلبطُ وتهتز. رفع جاسم السمكة أمام نايف، صعّر الآخر خدّه؛ "هذا مو سبيطي، هذا مزيزي!"، لكنَّ جاسم وجد الأمر كافيًا. بعدما اصطاد سمكته الأولى، شعر أنه والبلاد قد توصّلا إلى تسوية. حدّق في السمكة لدقيقة، ثمَّ أخرج الميدار من فمِها وقذف بها إلى البحر. تناول هاتفه وأجرى الترتيبات اللازمة لحجز تذكرة عودتهِ إلى لندن. لقد انتهى كلّ شيء.

نُشرت المقالة في الجريدة صباح ذلك اليوم. أحدثت ضجةً متوقعة، تداولتها المواقع الإخبارية وقنوات التواصل الاجتماعي. جاسم العظيمي يخرجُ عن صمتِه. غدًا سيتولى نايف أمر البقية. سيتصل بأسرة دانة وراكان بخصوص رفع قضية في المحكمة لمحاسبة جميع الأطراف. سيأخذ التقارير إلى النيابة. سوف يقلب الدنيا على رؤوسهم، وعندما يحدث ذلك سيكون هو في لندن.

اتصل به شقيقه ما إن قرأ المقالة. كان يصرخُ على الهاتف، يتهمه بالجنون، بأنه يحب أن يقحم نفسه في مشاكل أكبر منه، ولماذا يظنُّ الأمر بهذه السهولة؛ أن يتّهم «عيال النّاس» في ضمائرهم ويشوّه سمعتهم. قبل أن ينهي المكالمة، أخبره شقيقه أنه على حق في مسألة الهجرة. فهو لا يستطيع أن يبقى في الكويت دون أن يثير المشاكل، وأن آخر شيءٍ يريده هو أن يكسر قلب أمّه ثانيةً. ولكن لماذا لا يمكنك أن تغضب أيضًا على الفتاة التي دهسوها حتى الموت؟ لم يستطع كبح سؤاله، وسمع براك يقول بأن كل ما لديهِ هو حكاية، وأنه لا يملك أي دليل، وهناك دائمًا ذلك الاحتمال بأن يكون الحادث قتل بالخطأ، وأن الآخر قد انتحر، وأنَّ تقرير اللجنة الثانية هو الأقرب إلى الحقيقة. كل ما لديك هو احتمالات، هل تفهم؟ لكنك تضع هذه الاحتمالات بجانب بعضها البعض وتخترع قصة. من تظنُّ نفسك؟ اسمع. كانت أنفاسه تتلاحق؛ لقد تعبتُ من الركض خلفك. ظننتُ أنك عقلت، أن بوسعك أن تكون، ولو لمرة واحدة، ابنًا صالحًا لأمك بعد رحيل والدك، لكنك في النهاية أنت. وكل ما تريده هو أن تحشر نفسك في قضايا لا تعنيك، أن تفتعل المشاكل وأن تكسر قلوبنا جميعًا. أنا لن أستطيع مساعدتك إلى الأبد، وكل ما أريده منك

هو أن تغادر. حاضِر. أجاب عن طيب خاطِر.

في تلك الليلة، بعد أن اصطاد سمكته الأولى، قرر أن موعد المغادرة قد حان. أقرب طائرة ذاهبة إلى مطار هيثرو كانت، مرة أخرى، في الثانية فجرًا. نظر إلى مؤشر الساعة في هاتفهِ؛ التاسعة والنّصف ليلًا. يستطيع أن يبقى هنا، مع نايف والبحر، لساعة ونصف، ثم يعود إلى البيت، يحزم حقائبه ويرحل. لقد كفّت كل الأشياء عن إيلامه، وصار في وسعهِ أن يتحدّث مع نايف عن كلماتٍ مجرّدة. وبدلًا من أن يتحدثا عن الحراك، أو الحكومة، أو الآباء، أو دانة.. عادا يتناقشان كما فعلا في الأيام الخوالي.

عاد إلى البيت بعد ساعةٍ ونصف. نايف ينتظره في السيارة. مرة أخرى سمع نباح صلبوخ، وعرف تلك اللحظة أن الكلب لن يراه أبدًا إلا كما هو؛ الرجل الغريب الذي يتسلّل في جُنح الليل إلى البيت الذي لن ينتمي إليه أبدًا. جثا على ركبتهِ ورفع المزلاج. دلق سطليّ الماء في حوض البرحية، ثم دلف المنزل. خلال نصفِ ساعة، كان قد استحمَّ وجهّز حقيبة سفره واستبدل ملابسه. كان قلبهُ يضربُ بشدّةٍ وهو يغلق باب غرفتهِ للمرّة الأخيرة. نظر إلى الباب الموصدِ لغرفةِ أمّهِ، وفكّر أن يتسلّل داخلًا في الظلام ليقبّل رأسها للمرة الأخيرة، لكنه عوضًا عن ذلك، حمل حقيبته ونزل الدرجات. يبدو أنه لن يتعلّم، أبدًا، كيف يقول وداعًا.

في الطريق إلى المطار، كان جاسم يفكّر في صاحبهِ الذي يدندن مع طلال مدّاح «وأمشي معاك.. للآخِر»، وتساءل إن كان سيراهُ بعد اليوم. وتساءل إن كان سيعود إلى الكويت ثانية، ربما مع موتِ شخصٍ آخر. وإذا كان من الضروري أن يصير الوطن رديفًا للموت. ولكن نايف، ومنع السّفر الذي يبدو أبديا. هل سيراه؟ أخافته أفكاره حتى كفَّ عن التفكير. شارك صاحبه الغناء؛ للآخِر. توقفت السيارة أمام بوابات دخول المغادِرين. ترجّل الاثنان من السيارة. فتح نايف الصندوق. سحبَ حقيبته وأوقفها بجانبه ثم نظر كلٌ منهما بعيدًا.

– ترى مالها داعي الدراما.

قال نايف. ابتسم جاسم. أحسَّ أن قلبه قد صعد إلى حنجرته وعلقَ هناك.

– نايف..

– خلاص يا ابن الحلال..

نظر إلى عيني صاحبه المبتلّتين.

– لا تصعّب الموضوع. روح.

ولكي يضفي شيئًا من العادية على المشهد أضاف:

– طمنّي إذا وصلت.

ثم جلس صاحبه أمام المقود، شغّل المحرّك، ومضى بسيارتهِ بعيدًا، وقد أخرج يدهُ من النافذة عن يساره، تلوّح مودّعة.

3

عندما سلّم جاسم جواز سفرهِ إلى موظّف الجوازات في المطار، كانت يدهُ ترتجف. قرّر أنه بمجرّد أن يعبر هذه النقطة، ويصيرُ، بشكلٍ رسمي، خارج حدود الكويت، سوف يتّصل بأمّه، حتى لو كان ذلك يعني أن يوقظها من النوم. سيخبرها أنه اضطر للعودة فجأة بسبب الدراسة، ثمَّ سيعود إلى لندن ليمارس الشيء الذي برع فيه طوال السنوات الماضية؛ اختلاق الأعذار. سوف يجدُ أسبابًا تبقيهِ خارج البلاد، وأسبابًا أخرى كي لا يتزوّج ويُنجب، ويورّط آخرين بهذا العبء؛ عبء الوجود. وفيما موظّف الجوازات يطقطقُ على لوحةِ المفاتيح أمامه، وجد نفسه يفكّرُ في ابن أخيه، وتساءل إن كان سيكبرُ فعلًا ليصير الشخص الذي قرروا له أن يكونه. أم تراهُ قد ورث شيئًا من لوثته، وسيجدُ نفسه دائمًا يصرخُ كالطرزان ويلعن الجدران، ويحاول إصلاح الصنابير المكسورة.. فيكسرها أكثر؟ سوف يتّصل ببراك أيضًا، ويخبره بألا يخاف، لقد غادر الولد الشقيُّ إلى الأبد، ولن يكون عليه، بعد اليوم، أن يركض خلف المردم لينقذه من نفسه. دقائق.. مجرّد دقائق وينتهي كلّ شيء.

موظف الجوازات يجري اتصالًا ويهمس. خلال دقائق، جاء ثلاثة ضبّاط من أمن المطار وحوّطوه. سأله أحدهم:

– جاسم العظيمي؟

– إي نعم.

– تفضّل معانا شوي..

أحسَّ جاسم بجفافٍ مفاجئ في فمهِ وهو يرى نفسه محاصرًا بين كل تلك البزّات العسكرية.

– عسى ما شر؟ في شي؟

– تفضّل معانا وألحين بتعرف.

اقتادوه إلى غرفة الحجز. هناك أخبره أحد الضباط أنه ممنوعٌ من السفر، ومتهم بقضية جنائية، وأن عليهِ أمر ضبط وإحضار، وأن المباحث الجنائية في طريقها إليه. حتى تلك اللحظة، كان متأكدًا أنَّ في الأمر خطأ. لقد سجن لستة أشهر، وخرج بعد حكم الاستئناف، وغادر، وعاد.. ووجد نفسه يضحك.

“مستحيل!” قال للضابط، “في شي غلط”. لكن الرجل احتفظ بوجهه البارد، عديم المعنى.

غاص في مقعده يشخصُ في وجوه مرافقيه، فكّر في شقيقه. ماذا تراه سيقول إذا عرف بأنه.. سأل الضابط: ممكن أجري اتصال؟ أومأ بالقبول. أخرج هاتفه واتّصل بصاحبه. “أكيد في شي غلط نايف”. كان يردّد؛ “سوء تفاهم، تشابه أسماء”.. ولكنّه عندما سمع صاحبه يصرُّ على ضرورة توكيل محامٍ، عرفَ أنَّ عليهِ أن يَقلق، وأخذ يفكّر في مقالته الأخيرة. من قتل دانة داود؟

بمجرد أن تذكّر دانة، خيّم عليهِ هدوءٌ فوري. اعتدل جالسًا، واستأذن الضابط ليدخّن. تفضّل.. قال الرجل. في تلك اللحظات كان قادرًا على رؤية مستقبلهِ بوضوح، لقد رأى كل شيء؛ سوف تصل قوات المباحث الجنائية لأخذه. سوف يستمرُّ التحقيق معه لأربعة أيّام تقريبًا، قبل أن يحال إلى النيابة العامة. هناك سيحققون معه ثانية؛ ما هو دليلك على أن دانة قتلت؟ وما هو دليلك على أنَّ راكان قُتل؟ وما هو دليلك على السرقة والاحتيال؟ سوف يقرّر وكيل النيابة حبسه احتياطيًا على ذمة التحقيق. وسيخرج رئيس تحرير الصحيفة بكفالةٍ مدفوعة. يحفظ جاسم الإجراءات جيدًا؛ واحد وعشرون يومًا قابلة للتجديد، ستجدد ثلاث مرات حتى يحال التحقيق إلى المحكمة. وفي المحكمة، قاضي التجديد سوف يجدّد له الحبس شهرًا بعد آخر. كنت تعتقدُ أنك عائد إلى الكويت لثلاثة أيّام. كان الصوت داخل رأسهِ يضحك منه. هذه البلاد لن تتركك ترحل. حقيبة سفرك، حياتك خارج الكويت في السنوات الماضية، تمنحهم كل المسوغ لجعلك شخصًا يُخشى هربه.

نفثَ الدخان من أنفه وهو يرى نفسه يعود إلى عنابر أمن الدولة، إلى الصاجة، يلصق جبينه بالمغسلة ليصدّق أنه موجود. سوف توضع الأصفاد في يدهِ وفي قدميهِ، ويرى الأسلاك الشائكة تعلو أسوار السّجن. ثم تفتح البوابة، ويجدُ نفسه في سرداب العالم. في طريقه إلى السّجن المركزي سوف يرى منصة الإعدام كما رآها من قبل؛ شاهقة، معدنية، وجائعة. سوف تطبق المشنقة على عنقه، وللمرة الثانية، سوف يتذكّر والده.

سوف يخبرونه لاحقًا عن طبيعة الجريمة التي ارتكبها؛ إشاعة أخبار كاذبة. لأن خصمك يستطيع أن يستخدم الحقائق لطمس الحقيقة. لأنك مجرد كاتب، ماذا بوسعك أن تفعل؟ في تلك اللحظة، شعر أنه كان يعرفُ، على نحوٍ ما، أن هذا هو ما سيحدث. ولدهشته، لم يشعر بأي ندم. رنّ هاتفه باتصالٍ من نايف. وضع الهاتف على الوضع الصامت وتركه دونما رد. أحسَّ نفسه يطفو، وسط غيمة الدخان التي انتشرت في الغرفةِ، ثمَّ سمع خطوات اقترابهم، ورأى ثلاثة من ضباط المباحث الجنائية يدخلون غرفة الحجز، لمرافقته إلى التحقيق. لم ينبس بكلمة، سلّمهم هاتفه من تلقاء نفسه، كما لو أنه يريد التخلّص منه. سار بين الثلاثة بصمتٍ وهو يسمع داخل رأسه صوت حرس السجن يصرخون؛ «تسكير!»، «تسكير!».

كانت ثمة سيارة يوكن سوداء تنتظره خارجًا. أركبوه في المقعد الخلفي، غطوا عينيه بقماشةٍ سوداء، قيّدوا يديه. يُبه أنا رجعت. ابتسم.. سمع هدير المحرّك، أحسَّ باختضاضات السيارة تأخذهُ إلى مبنى مباحث أمن الدولة. هناك، سوف تبدأ رحلة أخرى، وعرة، من الأسئلة الأبدية. ما هو دليلك، وكيف، ولماذا، ومنذ متى.. ولكنَّ سؤالًا واحدًا على الأقل، صار يعرفُ جوابه. وإذا سأله المحقق؛ ما هي طبيعة علاقتك بالمدعوة دانة داود؟ سوف يبتسم.

تمت

شكر وتقدير

أتقدم بجزيل الشكر لكل من ساعدني في كتابة ومراجعة وتحرير هذا العمل. الأستاذ محمد العجمي (بوعسم)، على تزويدي بجلِّ التفاصيل والمعلومات التي تطلّبتها كتابة النّص. الأستاذ علي العريان على تزويدي بالمعلومات القانونية والإجرائية. والدتي؛ كوثر المسلم، والأصدقاء؛ حسن ياغي، مصطفى الحسن، طارق الخواجي، حجي جابر، هدى الدخيل، محمد العتابي، محمد يوسف، المغيرة الهويدي، وسارة الشمّري، على مساعدتهم لي في التحرير والتدقيق والمراجعة.

هذا العمل مدينٌ أيضًا لآخرين اعتذروا عن ذكر أسمائهم.

لهم الشكر جميعًا.